الوتر والظل

رواية

أليخو كاربانتير ترجمة : علي الأشقر



الوتر والظل

الوتر والظلّ

★ الوتر والظل
★ آليخو كاربانيتير
★ ترجمة : علي الاشقر

★ الطبعة الأولى 1990
★ المطبعة : دار العلم
★ عدد النسخ :1000
★ الناشر : دار الحوار ــ سورية ــ اللاذقية
ص . ب 1018 هاتف :22339

الوتر والظل

رواية

آليخو كاربانتيير

ترجمة :

علي الأشقر

« في الهارْب حين يعزف
ثلاثة أشياء :
الفن واليد والوتر .
وفي الإنسان : الجسد
والروح والظل . »

الأسطورة الذهبية

الفصل الأول

I الوتر

« مجدوه بدق الصنوج البهيج
مجّدوه بعزف الهارْب » .

النشيد ١٥٠

تخلفت إلى الوراء مصابيح مذبح الاعتراف السبعة والثمانون . كانت قد ارتعشت مرات عديدة ذلك الصباح داخل زجاجاتها المصممة لتهتز متناغمة مع التراتيل البهيجة التي تؤديها فرقة الإنتشاد البابوية ذات الأصوات القوية .

أغلقت الأبواب الضحمة بهدوء . وفي كنيسة سانتو ساكرمنتو الصغيرة التي تبدو غارقة في ظلال غسقية لمن يخرج من أنوار الكاتدرائية الساطعة فإن المحفة ، بعد أن نقلت من المناكب إلى الأيدي ، ظلت على بعد ثلاثة أشبار من الأرض . غرس حملة المراوح الكبيرة مقابض مراوحهم الريشية في مستودعها ، وبدأت رحلة قداسته البطيئة عبر ردهات متعددة لا تزال تفصله عن شقته الخاصة ؛ وسارت على خطا حمالين متشحين بالأحمر ، عليهم أن يثنوا ركبهم كلما مروا تحت عتبة باب منخفضة . وعلى جانبي الطريق الطويل ، الطويل

للغاية ، الممتد بين جدران قاعات وأروقة كانوا يمرون بلوحات زيتية عاتمة ، وبسجاد بهتت ألوانه ، وصور شخصية جللها الزمان بالسواد ، ربما تبدو لمن ينظر إليها بفضول ، نظرة زائر غريب ، أنها تعرض رموزاً ميثولوجية ، وانتصارات الإيمان الشهيرة ، ووجوه طوباويين ضارعة أو أحداث بطولات من حياة القديسين . أما الحبر الأعظم الذي تعب قليلاً ، فقد أغفا غفوةً خفيفة . أثناء ذلك ، كان رجالات الموكب ينصرفون حسب مراتبهم وفئاتهم ، مدعوّين ألا يتابعوا سيرهم أبعد من هذه العتبة أو تلك ، بمراعاة دقيقة للمراسم . أولاً أحد الكرادلة يختفون زوجاً زوجاً ، بمعاطفهم الكبيرة ذات الحواشي الأنيقة . ثم تلاهم الأساقفة وقد تحرروا من تيجانهم البراقة ، فالكهنة والقساوسة ورؤساء أقلام المراسلات ، ورؤساء المجامع ورؤساء الغرفة السرية وضباط البيت العسكري ، والمونسنيور رئيس الخدم والمونسنيور الحاجب ، حتى لم يبق إلا القليل لبلوغ الحجرات ذات النوافذ المطلّة على فناء سان دامتسو ،حيث تختفي الحلل المذهبة والبنفسجية والحمراء القانية والحرير ، وتظهر زينات أقل رواء يلبسها الحشم والبوابون . وأخيراً ، استقرت المحفة على الأرض ، إلى جانب مكتب عمل قداسته ؛ ثم رفعها الحمالون ، من جديد ، بعد أن تحررت من حملها الجليل ؛ وانسحبوا وهم يؤدون انحناءات متكررة . جلس البابا على مقعد أعطاه إحساساً بالثبات وطلب مرطباً من شراب اللوز إلى الأخت كريثنثيا المكلفة بإعداد وجباته الخفيفة . وبعد أن صرفها بإشارة موجهة أيضاً إلى خدمه ، سُمع صرير الباب وهو يغلق ـــ الباب الأخير الذي يفصله عن عالم الكنيسة الذي يملؤه بالنشاط :

أحبارٌ من الحاشية البابوية ، وأعيان وبطاركة بعكاكيز ومعاطف لا تُميز وسط دخان البخور وحركة حملة المباخر ، من أزياء الخدم والمستشارين أو الحرس النبيل ، أو زي الحرس السويسري الفاخر بدروعه الفضية ومطارده[1] وخوذه المميزة وملابسه المخططة بالأحمر والأزرق ، وهما لونان أضفتهما عليهم مرة واحدة وإلى الأبد ريشة ميغل آنجلو الذي ارتبط عمله وذكراه بوجود الكنيسة الرائعة الكبرى .

---

(١) ج . مطرد : رمح وفأس حرب معاً .

الطقس حار ؛ ومع ذلك فإن نوافذ سان دامَسُو مغطاة ـــ ما عدا نوافذ حجرته بالطبع ـــ لمنع النظرات الخفية من التجسس على أسرار الحجر والردهات البابوية . فكان يسود هدوء غريب جداً على ضوضاء المدن : مرور العربات ، أو أصوات آلات الحرفيين ، حتى إذا ما وصل إلى هنا صدى ناقوس بعيد ، فإنه يدق لحناً يبعث في الذهن صورة روما حد نائية ، كأنها مدينة من عالم آخر .

كان نائب السيد المسيح يميز أنواع البرونز من درجة الرنين الذي تحمله الريح : فهذا الرنين ذو الترداد المتسارع صادر عن كنيسة يسوع الباروكية ؛ وذاك الجليل المهيب والأدنى يأتي من سانتا ماريا ماتجيوري ؛ وذلك الآخر الحار والخشن قادم من كنيسة سانتا ماريا سوبرا منيرفا ، التي ترتسم في غابتها من الرخام الأحمر مسحة إنسانيّة من كاتالينا دي سيينا ، الدومينيكانية المتحمسة والشجاعة والمدافعة بحرارة عن سلفها أوربانو السادس بطل قطيعة الغرب الغاضب .

كان البابا الذي يُجلُّ في هذا الأخير طبعه المقاتل ، قد عمم منذ خمس سنوات منشوراً دون أن يظهر فيه توقيعه ، وإن كان الجميع يعلمون أن النصّ مستوحى من خطبه وعظاته ومنشوراته ورسائله البابوية . في هذا المنشور تدان الطواعين الثلاثة ، وهي اليوم : الاشتراكية والشيوعية اللتان طالما حاربهما بنثره اللاتيني الواضح والقوي، كمحاربته الجمعيات السرية (يعني الجمعيات الماسونية) و« الجمعيات التوراتية » (إشارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية) ، وبعامة ، المراكز الدينية الليبرالية المختلفة التي كثيراً ما رفعت رؤوسها تلك الأيام .

لقد كانت الفضيحة التي اثارها المنشور عظيمة ، حتى أن نابليون الثالث ، وهو بعيد عن أن يُتهم بالليبرالية ، حاول المستحيل ليمنع انتشاره في فرنسا ؛ حتى الوسط الديني الذي فوجىء بهذا التطرف قد أدان المنشور نظراً لتشدده وحدته المفرطين .

كان المنشور قد نضج ببطء في نفسه ، منذ مسيرته في الأراضي الأمريكية حيث استطاع أن يرى قوة انتشار بعض الأفكار الفلسفية والسياسية التي لا تقف أمامها حدود

البحر أو الجبال . كان قد لمس ذلك في بوينوس آيريس ، ولمسه أيضاً وراء سلسلة جبال الآنديس خلال تلك الرحلة البعيدة غاية البعد ، والغنية بمعلوماتها . وهي رحلة كانت قد نصحته بالعدول عنها والدته الكونتيسة /أنتونيا كاتارينا سولاتسي / ؛ وألحت عليه بذلك إشفاقاً وتألماً . كانت زوجاً مثالية لذلك الأب المترفع والمستقيم والمتقشف الكونت /جيرولامو مستائي فيرّيتي/ . وهو ــ أي البابا ، لا يزال مذ كان طفلاً ناحلاً ممراضاً يرى ذلك الأب عاجزاً متجهماً وتياهاً حين يرتدي زي حامل راية سينيغاليا .

في ذلك اليوم الذي نعم بالهدوء مرة أخرى ، بعد احتفالات فخمة ومتألقة ، فإن اسم سينيغاليا جاء يتناغم مع جوقة نواقيس روما الشديدة البعد ، حاملة له ذكرى عجلات ورنين أجراس، إذا ما أُمسكت باليد كانت تتراقص في فناء هذا البيت النبيل الرحب، بيت أخواته الكبار ذوات الأسماء الناعمة : ماريّا فيرجينيا ، ماريّا إيزابيلا ، ماريا تيكلا ، ماريا أوليمبيا ، كاتارينا جودّيتا ، كلهن ذوات أصوات ندية رنانة لا تزال نغمتها المحفوظة في ذاكرة السمع ، تثير فجأة ، أصواتاً أخرى . أصوات أطفال أيضاً ، ترتبط بأغان دينية بريئة ، سمعها أول مرة في احتفالات عيد الميلاد العاصفة في مدينة ، هي في أقصى الأرض ، ومع ذلك حاضرة في الذهن ، ألا وهي سانتياغو في الشيلي :

الليلة ليلة عيد
وليست ليلة نوم
العذراء في المخاض
وستلد عند منتصف الليل .

ولكن صوت سانتاماريا سوبرا منيرفا الضخم ، أبعده فجأة عن تداعيات قد تكون جد تافهة ، في يوم كان عليه أن يتخذ فيه قراراً ذا أهمية قصوى ، بعد أن أنهى احتفالاً مطوّلاً أوقدت فيه شموس كاتدرائية القديس بطرس .

كانت الرزمة ــ أو الإرسالية الشهيرة ــ تقف بالانتظار منذ العام الفائت ، بين محفظة مذهبة من صنع بينيبونتي تشيليني ، وبين صينية من البلور الصخري ، قديم صنعها ، تشبه أواني المسيحيين الأوائل البسيطة .

لم يجرؤ أحد أن يطلب التعجيل بها . ولكن يبدو واضحا ، أن كاردينال بوردو المحترم ، والكاردينال رئيس أساقفة بورغوس ، ومطران أبرشيات الأنتيل ، ورئيس أساقفة المكسيك ، وكذلك ستمائة ونيف من الأساقفة كانوا قد مهروا الوثيقة بأختامهم ، وهم في غاية القلق لمعرفة قرار قداسته . فتح المحفظة المليئة بأوراق عريضة مغطاة بأختام شمعية . وفيها شرائط من الحرير الأحمر لضمها في ملزمة .

وللمرة العشرين قرأ طلب الترشيح المقدم إلى مجمع الطقوس المقدس ، والذي استهل بالعبارة التالية :

« إن اكتشاف العالم الجديد من قِبل كريستوبال كولون ، كان أعظم حدث عرفه الإنسان منذ وُجد الدين المسيحي في العالم ؛ وبفضل هذه المأثرة الفائقة فقد تضاعفت مساحة الأراضي والبحار المعروفة التي تصل إليها كلمة الإنجيل » .

وإلى جانب الطلب ، توجد ، في ورقة منفصلة ، رسالة قصيرة موجهة إلى مجمع الطقوس ، الذي ما أن يتلقى التصديق البابوي حتى يباشر عملية التطويب الشاقة ، تطويب أميرال فيرناندو وايزابيل الكبير .

أمسك قداسته بالقلم ؛ ولكن يده أخذت تقفز فوق الورقة كأنها ترتاب بالأمر . ثم فصّل مرة أخرى ، المعاني المختلفة لكل كلمة . وهذا ما حدث له كلما صمم على وضع توقيعه الحاسم أسفل تلك الوثيقة . وذلك لأن فقرة من النص فيها جملة بارزة على نحو خاص ، كانت تسترعي انتباهه دائماً : « لإدراج الطلب بطريقة استثنائية » . وهذا الإدراج بالطرق الاستثنائية كانت تجعل الحبر الأعظم يحجم المرة بعد الأخرى .

من الواضح أن تطويب مكتشف أمريكا ـــ وهو طريق مختصرة للترسيم ـــ كان يشكل حالة لا سابق لها في تاريخ الفاتيكان ، لأن صاحبها يفتقر إلى بعض الوثائق البيوغرافية ، وهي ، حسب القانون الكنسي ، لازمة لمنحه /هالة نورانية / . وهو أمر سيستغله محامي الشيطان ، مدعي عام مملكة الجحيم الأريب والمهيب . هذا ما أكده العلماء

الجزويت المحايدون والمدعوون لإبداء رأيهم . وهو نفسه ، بيّو التاسع ، الذي كان رئيس أساقفة أبسوليتو ، وأسقف ايمولا ثم صار كاردينالاً قبل أن يرق عرش القديس بطرس منذ خمس سنوات خلت ، هو نفسه قد كلّف عام ١٨٥١ مؤرخاً فرنسياً هو الكونت روسلي دي لورغ بكتابة تاريخ كريستوبال كولون . لقد قرأ البابا الكتاب وتأمله طويلاً ، وبدا له ذا أهمية حاسمة لاتخاذ قرار بترسيم مكتشف العالم الجديد . كان المؤرخ الكاثوليكي ، وهو المعجب ببطله ، المتحمس له ، قد أعلى من شأن المزايا التي تضخم صورة الملاح الجنوبي البارز ، مشيراً إلى أنه جدير بمكانة مرموقة في حظيرة القديسين ، وفي الكنائس /مائة ألف كنيسة / حيث تمجد صورته . (وهي صورة غير معروفة حتى الآن ؛ فليس بحوزتنا صورة شخصية له ـــ وكم حدث الأمر ذاته مع قديسين آخرين ؟ ـــ ولكنها لا تلبث أن تكتسب شكلاً وملامح بفضل تحريات ريشة مُلهمة تمنح الشخصية القوّة والتعبير اللذين أضفاهما البرونزينو ـــ رسام سيزار بورجيا ـــ على صورة أندريا دوريا الملاح المشهور ، برسم زيتي ذي جمال فذ) . وهذا الأمر كان قد تملك مستائي، رجل الدين الشاب ، منذ عودته من أمريكا ، حين كان بعيداً عن أن يتصور نفسه متربعاً ذات يوم على عرش كنيسة القديس بطرس .

إن تكريس كريستوبال كولون قديساً كان أمراً ضرورياً لأسباب عدة ، سواء من جهة الإيمان ، أم من جهة السياسة . ولقد رأينا ـــ أي بيو التاسع ـــ من خلال منشوره أنه لم يكن يزدري العمل السياسي ، الذي لا يمكن أن يستوحيه إلا من السياسة الإلهية . وهي سياسة يعرفها جيداً من قرأ سان أُغسطين قراءة وافية . إن توقيع القرار الماثل أمامه كان سيبقى من أهم الأعمال خلال بابويته. غطس الريشة في المحبرة من جديد ، على أن الريشة ظلت معلقة في الهواء . تردد البابا مرة أخرى هذا المساء من أمسيات صيف لن تلبث أن تتناغم فيه نواقيس روما لتدق من أجل صلاة البشارة .

لقد كفّت سنغاليا منذ طفولة مستائي عن أن تكون مدينة تجارية ترسو في مينائها مراكب كانت ترد من جميع سواحل المتوسط والأدرياتي ؛ لقد امتصتها الآن مدينة تربست المزدهرة الفاسقة . ولن تلبث هذه الأخيرة أن تدمر بثروتها جارتها الفقيرة التي طالما آثرها في

زمن غابر بحارة الإغريق القدامى . فضلاً عن أن الأزمنة كانت قاسية : فبونابارت خلال حملته الكاسحة على إيطاليا ، قلب كل شيء رأساً على عقب ؛ فاحتلّ فيرارا ، وبولونيا ، واستولى على رومانيا وأنكونا؛ وأهان الكنيسة ، ونهب الأملاك البابوية وحبس الكرادلة ، واحتل روما ذاتها . ووصل بالإهانة حداً حتى قبض على البابا ، مستولياً على منحوتات ثمينة ، هي فخر الأديرة المسيحية ، وعرضها في باريس ـــ إمعاناً في السخرية ـــ بين تماثيل أزوريس وآنوبيس ، وصقور وتماسيح مما يزخر به متحف آثار مصرية .

كانت أزمنة سيئة ، ومعها كان بيت النبلاء من آل الكونت مستائي ـــ فيرّيتي يزداد سوءاً . فلا صور العائلة ، ولا قطع السجاد الذاوية ، ولا المحفورات التي علاها خُرْء الذباب ، ولا خزن البلور العالية ، ولا الستائر الباهتة ما كانت لتخفي بصورة حسنة ، التدهور المتفاقم في حالة الجدران التي غطتها رطوبة ناجمة عن الرشح ، ببقع رمادية شوهاء ، ما فتئت تتسع بمرور الأيام . حتى الأرضيات الخشبية العتيقة كانت تصر ، والرقع التي زال عنها ترصيعها المشغول بإتقان ، أخذت تتزايد بفعل تقلبات الزمن . وفي كل أسبوع كان ينقطع وتر أو ثلاثة أوتار في البيان العتيق ذي المفاتيح الصفر الذي كانت ماريا فيرجينيا وماريا أوليمبيا ما تزالان تجهدان للعزف عليه بيدين أثنتين أو أربع ، سوناتات لموزيو كليمنتي ، وقِطعاً للأب مارتيني ، أو ليليات ، ـــ وتلك جدة طريفة ـــ للانكليري فيلد ، متظاهرتين أنهما لا تدركان صمت بعض النغمات التي لم تعد تستجيب للمس منذ شهور عديدة ، بسبب غيابها عن الآلة . كانت حِلْية حامل الراية الشيء الوحيد الذي يسبغ مظهر السيد النبيل على الكونت مستائي ـــ فيرّيتي ، الذي ما إن يعود إلى البيت الخالي من أطايب الطعام ، حتى يتدثر بسترات رقعتها وأعادت رقعها الخادمتان الوفيتان اللتان ما تزالان تعملان عنـده ، وتقبضان أجرهما كل سنتين عن سنة واحدة . ولكنَّ الكونتيسة كانت تضفي مظهراً حسناً على التيارات المعاكسة متشبثة بكرامة المظاهر التي طالما امتازت بها . فترتدي الحِداد على أقارب وهميين متوفين في مدن بعيدة دائماً ، لتبرز استعمالها الدائب زوجاً من الملابس السود مضى زيهما منذ زمن طويل . كانت تذهب باكراً إلى كنيسة لاس سِرْفيتاس ، برفقة ابنها

الأصغر جيوفاني ماريا ، كيلا تتعرض للظهور في الخارج إلا بالقدر الأدنى الممكن ، سائلة السيدة العذراء أن تهوّن من وضعها الكئيب وتخفف عنها وطأة الخطوب .

باختصار : كانت تحيا حياة بؤس مترفع ، في قصور مهدمة ، شأنها شأن عائلات إيطالية عديدة في ذلك العصر . حياة بؤس مترفع : رايات مشرعة فوق الأبواب ، مداخن بلا نار ، صليب مالطا مرسوم على الظهر ولكن البطن ضامر بسبب الجوع الدائم ـــ هذا ما عثر عليه مستاتي الشاب أثناء دراسته اللغة الإسبانية في قصص البيكاريسكا[1] ، التي لم يلبث أن تخلّى عن قراءتها لخفتها ؛ ولكنه تغلغل في منعطفات مفاهيم غراثيان قبل أن يبلغ حالة التأمل وتجربة التمارين الروحية لسان إيغناثيو ؛ فألفاها ذات جدوى وعلمته تركيز التأمل والعبادة ، في صورة مختارة مسبقاً ، ليتحاشى من خلال « تركيب المكان » جنون العائلة في شطط الخيال المفاجىء ، نحو مواضيع غريبة عن تفكيرنا الأوّلي .

العالم يمشي بالمقلوب ، والماسونية تنتشر في كل مكان . فمنذ أربعين عاماً (وما هي أربعون عاماً في عمر التاريخ ؟) كان قد مات فولتير وروسو أستاذا الكفر والعهر . ومنذ أقل من ثلاثين سنة خلت ، أعدم بالمقصلة ملك شديد الإيمان على مرأى من جمع ملحد وجمهوري ، وعلى إيقاع طبول ملونة بالأزرق والأحمر لوني علم الثورة .

كان لا يزال حائراً بالنسبة لمستقبله ، حتى بعد دراسات غير منتظمة تشمل اللاهوت والحقوق المدنية واللغة الإسبانية والفرنسية واللاتينية التي أجادها حتى مستوى شعر فيرجيل وهوراس وأوفيد . فلم يجد فيها كلها شيئاً ذا نفع كبير للحصول على القوت اليومي آنئذ . فصار يرتاد مجتمعات روما الراقية التي استقبلته بحفاوة نظراً للقب الذي يحمله ، وإن كانت تجهل أنه في أغلب الأحيان لا يأكل ما يشبعه بسبب افتقاره للمال . وما كان يعجبه في تلك الاستقبالات ـــ لا جياد الحسناوات ولا الرقص الذي تتجلّى فيه خلاعة الفالس الجديدة ،

---

(١) نوع من القصص في الأدب الإسباني يتناول حياة الصعلكة والعيش بالحيلة مع الحفاظ على المظهر .

ولا الحفلات التي يحييها موسيقيون كبار في بيوت الأغنياء ـــ وإنما نداء رئيس الطهاة إلى قاعة الطعام حيث تقدم على ضوء الشموع اللحوم الوافرة في صوانٍ من الفضة، فيقبل عليها بشهية يثيرها جوعه المتراكم .

ولكن الشاب جيوفاني ماريا ، استبدل ذات يوم ، بعد تجربة غرامية غير موفقة ، خمور الأباريق المذهبة ، بماء آبار الأديرة؛ واستعاض عن لحوم الطيور الشهية في مطابخ القصور ، بالجلبان والكرنب وثريد الذرة في قاعات الأكل المشتركة . لقد صمم على أن يخدم الكنيسة ، فانخرط سريعاً في الرهبانية الثالثة الفرنسيسكانية ، وسمي قساً ، وامتاز بالحماسة وبلاغة مواعظه . ولكنه يعلم أن طريقاً طويلة شائكة تنتظره ، دون أملٍ في صعود ، ليرقى إلى المراتب الكنسية العليا ، نظراً للعزلة التي تحيا فيها أسرته ولعلاقاته المحدودة ؛ وأهم من ذلك كله بسبب هذا العصر العاصف المشوّه الذي يعيش فيه المرء وسط مسيحية منقسمة على نفسها ومجزّأة وضعيفة كما لم تكن إلا مرات قليلة خلال تاريخها ؛ فلم تعد تقوى على مواجهة الأفكار الجديدة التي تشن هجوماً متصاعداً وشاملاً ، ولا على مواجهة نظريات ومذاهب تميل كلها بطريقة أو بأخرى ، إلى إعداد إتيوبيات خطرة منذ أن تحطم التوازن الاجتماعي (لم يكن ذلك التوازن مُرضياً دائماً ، لكنه توازن على كل حال) على يدي عبدة الثورة الفرنسية الخطرين . كان كل شيء في حياته ظلاماً ومهانة واستسلاماً حين حدثت المعجزة : ذلك أن المونسنيور جيوفاني موتزي رئيس أساقفة فيليبو بوليس في مكدونيا ، مهد الاسكندر الأكبر ، سُمي مندوباً رسولياً إلى الشيلي ، فطلب من مستائي أن يساعده في مهمته الدقيقة . لم يكن الرئيس الديني يعرف هذا الذي اختاره بناء على توصية من رجل دين صديق . ولكنه فكر أن الكاهن الشاب يمكن أن يكون ذا فائدة قصوى له ، بسبب ثقافته العامة وخاصة معرفته باللغة الإسبانية . وهكذا تحوّل بابا المستقبل من مَيْتم حيث كان يؤدي مهمة جد متواضعة في رعاية الأيتام ، وانتقل إلى وضع مرموق : مرسل إلى العالم الجديد؛ عالم جديد ، اسمه وحده كان يضع في أنفه رائحة مغامرات مدهشة . وقد شعر أنه اختير لغاية تبشيرية ، قد تعود إلى معرفته النشاطات التبشيرية لتلامذة سان إيغناثيو في الشيلي والشرق الأقصى والفيليبين

والساراعواي . ووجد نفسه ، فجأة ، يضطلع بدور المبشّر ، ولكن ليس على طريقة الجزويت التي سخر منها فولتير سخرية مرّة في رواية ذائعة الصيت ، حتى أن المرتد الأب مارتنسيا قد ترجمها إلى الإسبانية . ولكن مستائي يدرك أن الأزمنة قد تغيّرت ، وأن الشأن السياسي يجب أن يحظى بأهمية متزايدة في القرن الوليد . لذلك سيكب على جمع كومة من المعلومات ويدرس المحيط الذي سيعمل فيه بحذر وذكاء ومهارة .

منذ البداية ، فإن شيئاً ما جعله يرتاب غاية الريبة . إن من طلب إلى البابا — بيو السابع أن يرسل بعثة رسولية إلى التشيلي هو /برناردو أو هيغنس / الذي كان على رأس حكومة بلقب مدير عام . إنه يعلم كيف حرر أوهيغنس الشيلي من الاستعمار الإسباني . ولكن الشيء الغامض أن يبادر إلى معونة الفاتيكان لإعادة تنظيم شؤون الكنيسة التشيلية . كانت روما في هذه الأزمة الصاخبة والمضطربة مأوى ذوي الدسائس من كل لون ، وجنة المتآمرين والسعاة ورجال جمعية الكاربوناري السرية ، ومرتع قاطني أديرة سابقين ومرتدّين ورجال دين تائبين ، وخوارنة فولتيريين سابقين راجعين إلى حظيرة الإيمان ، ومخبرين ووشاة . فكان من السهل العثور على فارّين من الماسونية ، مستعدين دائماً لبيع أسرارها بثمن بخس . وقد عثر مستائي وسط هؤلاء على سيد سابق من رؤساء أوج لاوتارو في قادش ، فرع المحفل الأمريكاني الكبير في لندن الذي أسسه فرنسيسكو دوميراندا ، وله فروع في بوينس آيريس وميندوسا وسانتياغو .

يقول المخبر إن /أوهيغنس / كان صديقاً حميماً للفنزويلي المدهش /سيمون بوليفار / جنرال الثورة الفرنسية الذي شكلت جولاته عبر العالم قصة من أعجب قصص المغامرات ، حتى يقال إنه نام مع كاتالينا الروسية /وغمغم مستائي : أبعدنا الله عن الظنون الآثمة / . « لأن عشيقها بوتمكين قد سئم شبق سيدته المفرط ، ففكر أن المولّد الجميل ذا الدم الحار قد يشبع شهوات الروسية الطافحة . وهي وإن كانت امرأة نَصَفاً[1] — وأنت تفهمني يا سيدي — فقد كانت مولعة بصورة رهيبة أن ... » . فقال مستائي لمخبره : « كفى !

(١) في أواسط عمرها .

كفى ! كفى . حدثني عن أشياء أكثر حدية ، أقدم لك زجاجة خمر أخرى » . بلل المرتد حلقه وهو يطري نوعية البيذ الأحمر الثميل ، لأن عطشه الدائم للخمر يمنعه من أن يميز بين الرديء والجيد . ويتابع حكايته . كانت الماسونية تسمي اسبانيا في مصطلحاتها « أعمدة هرقل» . ولدى أوج قادش «لجنة الإحتياطيين» ، التي تعنى بإثارة الاضطرابات السياسية في العالم الهسباني[1] . وإن أوساط اللجنة تعلم أن ميراندا كان ألّف في لندن كتيّباً بعنوان : نصائح أمريكي جنوبي عجوز إلى شاب وطني حين عودته من انكلترا إلى بلاده ، يحوي عبارات من طراز : لا تثقوا بأي شخص جاوز الأربعين إن لم يثبت لديكم أنه محب للقراءة . الشباب هو سن العواطف النبيلة والجيّاشة . بين أترابكم ستجدون سريعاً من يصغي إليكم ويقنع معكم بسهولة » . (وفكر مستاتي : واضح أن هذا الميراندا يرتاب مثل غراثيان بمشاكل الشيخوخة وشرفها ، فيضع ثقته في قصر الشباب المسحور) .

وكتب الماسوني البارز أيضاً : « من الخطأ أن نحسب كل رجل حلق رأسه وجلس في مقعد الكاهن متعصباً ، متزمتاً وعدواً لدوداً لحقوق الإنسان » . « لقد صرت أفهم /برناردو أوهيغنس / فهماً أفضل » . قال مستاتي طالباً إلى الفارّ من أوج قادش أن يردد المقطع ثلاث مرات . لقد كان الأمر واضحاً . فأيا كانت أفكار /أوهيغنس / فإنه يعلم أن إسبانيا تحلم بإعادة سيطرتها الاستعمارية القمعية على أمريكا ، مكافحة ببسالة لتحقق نصراً حاسماً في الشريط الغربي للقارة أولاً ثم تتوجه إلى مناطق أخرى لتخنق الدول التي استقلت عنها حديثاً ، عبر حرب استرداد حقيقية . ولا تنقصها الوسائل من أجل ذلك . وهو يعلم أن الإيمان لا يمكن أن يُقتلع مرة واحدة ، كما تقلب حكومة نائب الملك ذات صباح ؛ وأن الكنائس في أمريكا الجنوبية ترتبط حتى الآن بأسقفية اسبانيا دون أن يكون عليها الخضوع لروما . لذلك أراد محرر الشيلي أن ينأى بكنائسه عن نفوذ الميتروبول السابقة (لأن كل خوري اسباني سيكون حليفاً لغزاة محتملين) ويجعلها تحت سلطة الفاتيكان العليا الذي هو أضعف ما يكون في الناحية السياسية ، إذ لا يقدر أن يفعل إلا القليل في أراضي ما وراء البحار ، ما

---

(١) تطلق على أمور إسبانيا وأمريكا اللاتينية معاً .

عدا الأمور التي تتعلق بتشريع ذي طبيعة كنسية محضة . وهكذا يُحيد جهاز ديني معادٍ ومحافظ ومتعطش للثأر بوضعه ـــ وليس له أن يشكو مع ذلك ـــ تحت الرعاية المباشرة لنائب السيد المسيح على الأرض . إنها حيلة متقنة يمكن الإفادة منها في كل النواحي . لقد صار /برناردو أوهيغنس / محبوباً من الشاب مستائي المتعطش لعبور المحيط ، بالرغم من مخاوف القديسة أمه الكونتيسة ، التي ما فتئت تلح عليه من بيتها المتصدع في سنغاليا ، أن يجد في صحته الهشة أعذاراً تعفيه من هذا السفر المنهك عبر بحر هائج التهم عدداً لا يحصى من الغرق . « إنه بحر كريستوبال كولون نفسه » ـــ قال مستائي في سره ـــ وهو يحنّ عشية السفر الكبير إلى هدوء الجو العائلي ، متذكراً بتوق خاص ماريا تيكلا أخته الأثيرة التي فاجأها ذات مرة ، وهي تدندن بصوت خفيض كأنها في حلم : « أيتها الخطيئة الهفهافة البريئة » . وهي أنشودة فرنسية للأب مارتيني عثرت عليها في ألبوم لأعمال الفرنسيسكاني الكبير ، مؤلف أغاني قداس وخطب متنوعة :

لذة الحب
لا تلبث أن تزول .
لوعة الحب
تبقى مدى الحياة .

وعلى الرغم من الدعوة إلى الحيطة والحذر ، فإن رجل الدين الشاب ، كان ينتظر قلقاً موعد الانطلاق . ولكن يبدو الآن أنّ قدراً من العراقيل قد انتصب في طريق هذا المشروع : فقد توفي البابا ، هذا البابا الذي أهانه الكورسيكي الوقح ، وأرغمه على أن يُقر مهزلة تنصيبه امبراطوراً ، ويضع التاج بجلال على رأس هجينة من المارتينيك . ثم انتخاب ليون الثاني عشر بعد اجتماعات الكرادلة المضنية لمدة عشرين يوماً ، ومؤامرات قنصل اسبانيا الذي أعلمه مخبروه بغرض البعثة الرسولية . فيا لها من رياح معاكسة ومؤامرات ونمائم ورسائل تذهب ورسائل تأتي وأجوبة طالما تمناها المرء .

وأخيراً ، أخيراً ، وفي تشرين الأول ١٨٢٣ رفعت السفينة /هيلوير / مراسيها باتجاه العالم الجديد . (فضل مستائي اسم ابيلاردو على هيلوير روسو) . وأخر معه المندوب جيوفاني موتزي ، وسكرتيره الخاص دون سالوستيو والدومنيكاني /رايموندو آرتي / والأرشمندريت /ثيين فويغوس / (وزير الشيلي المفوض لدى البابا وقد رفعه أوهيغنس حديثاً) .

من جنوة انطلق المركب . وجنوياً كان من باشر ذات يوم المشروع العجيب الذي أعطى الإنسان رؤية تامة عن العالم الذي يعيش فيه ، وفتح أمام كوبرنيك الأبواب التي خولته الوصول إلى بداية ارتياد اللا نهاية . طريق أمريكا ، طريق سانتياغو ، طريق درب التبانة ؛ في الحقيقة ، هي طريق نحو نجوم أخر : إنها بداية دخول الكائن البشري في تعددية الأفلاك الهائلة .

إن إقامة رجل الدين الشاب في جنوة ، وإن كانت طويلة ومرهقة أحياناً ، فقد كانت مثمرة فيما كشفته له . فقد أذهله في كل خطوة إشعاع عظمة مدينة آل دوريا ، وهو اسم له رنين ذهبي . المدينة تملؤها كلها ذكرى /أندريا / الأميرال البارز الذي تمثله رسوم تخيلية بجذع عارٍ ولحية مجعدة ، حاملاً في يده رمحا رمزياً ذا ثلاث شعب ، كأنه صورة حية ومحكمة لبوسئيدون . لقد وقف الشاب كثيراً يتأمل بيت برانكا دوريا ، هذا المجرم الرائع ذي الأصل الجنوي الذي شاهده دانتي في الحلقة التاسعة في الجحيم يقضي عقوبته بالروح ، بينما يعبث الشيطان بجسده الذي يبدو أنه ما زال حياً على الأرض . وفي مواجهة كنيسة سان ماتيو تنهض دارة لا مبادوريا التي شيدها مارتينو دوريا . وهي متينة متانة نسب أصحابها ، وقاومت عوادي القرون . كما لا تزال سليمة وجميلة وشامخة دارتا دومينيكاشيو دوريا وكونستانتينو دوريا التي سكنها أخيراً آندريا ــ كل الناس هنا يبدو أنهم يسمون باسم اندريا ــ هذا الملاح الرائع الذي انتصر على الأتراك في مائة معركة .

... والآن ها هي الهيلويز تخوض أمواج نهر /دي لابلاتا / الموحلة . فجال في ذهن مستائي مشهد المرفأ الفخم الذي خلفه وراءه في المدينة ذات القصور الحمر ، والقصور

البيض ، والبلور والأفاريز والأعمدة المجيدة والأجراس الدقيقة ؛ فأين من ذلك كله /مونتيفيديو / التي توقف فيها قليلاً ، وتركت في نفسه انطباعاً أنه موجود في اسطبل كما في مزرعة . وإن الجياد والماشية لها في الحياة اليومية هنا أهمية نسيتها أوروبا منذ عصر المرفنجيين . وحتى بوينوس ايريس ليس لها مرفأ ما عدا خليجا رديئاً ، على المرء أن يبلغ منه المدينة في عربة تجرها الخيول برفقة فرسان ، وسط نتن الجياد ورائحة الجلود الخام وجوقة صهيل . إنه حضور للحصان حضوراً مرهقاً يُفرض على المسافر ما دام يقيم في القارة التي وطئتها قدماه للمرة الأولى .

على ضوء قناديل أحضرها الجيران ، استُقبلت البعثة الرسولية في المدينة الشاغرة من أسقف منذ زمن طويل . كان انطباع مستائي الأول قاتماً . حقاً أن الشوارع مستقيمة استقامة خيط المطمار ، ولكنها مكتظة بالوحل المجروف والمدحول والمعاد دحله ، والمكوم والمنثور مرة أخرى بحوافر الخيل وبعجلات العربات التي تجرها الثيران المذعورة من لدغ الحشرات .

ثمة زنوج ، فيض من الزنوج يشتغلون في أعمال تافهة ، ومهن متواضعة ؛ أو يعملون بائعين جوالين ، أو منادين تحت مظلاتهم المنزوية على الملفوف الجيد والجزر الطري ؛ أو خدماً في بيوت الأغنياء تميزهم ألبسة محتشمة تتناقض والملابس الملطخة بالدم التي ترتديها الزنجيات اللاتي يجلبن أحشاء الدواب من المسلخ .

وهذا المسلخ له ، كما يبدو ، في حياة بوينوس آيريس شأن ، حتى أن مستائي تساءل ، بالنظر إلى عبادة اللحم المشوي ، والفيليه ، والخاصرة ، والكتف والشرحات ـــ والمثقفون على الطريقة الانكليزية يسمونها بيف ـــ إن كان المسلخ يتجلّى في حياة المدينة منشأة أهم من الكاتدرائية ذاتها وأهم من أبرشيات نيقولاس والكونثبثيون ، ومونسيرات والبيبداد .

كل شيء يعجّ برائحة السروج بإفراط ، ورائحة الدباغة ، والصوف ، والقطيع واللحم المملح والمقدّد ، ورائحة عرق الخيول والفرسان ، والبعر والروث في مدينة ما وراء البحار تلك ، حيث يرقص الناس في الأديرة والحانات رقصة الريفالوسا أو « متى يا حياتي ،

متى ؟ » وهي رقصة ذات مغزى سيء ، كان يتردد صداها في طول القارة الأمريكية وعرضها ، بله الضجة البربرية التي يثيرها وراء الجدران قرع طبول التانغو ، كما تسمى هنا ، ويقوم به أناس ملونون . ولكن إلى جانب هذا ، كانت تزدهر أرستقراطية حقيقية ، تعيش عيشة مترفة ومنعّمة ، وتلبس آخر أزياء باريس ولندن ، وترتاد حفلات ساهرة يُسمع فيها أحدث إبداعات الموسيقى التي عرفتها المراقص الأوروبية . أما في أيام الأعياد الدينية فلم تكن تنقص رجل الدين الشاب ، كيما يرفّه عن نفسه ، أصوات المولدات الناعمة وهن يغنين أناشيد للعذراء ، لبرغولوسي .

ولكن ، لسوء الحظ ، فإن أساليب الزي والحضارة لم تكن تسافر وحيدة إلى ما وراء البحار . فقد كان يصل معها : « هوس التفكير الخطر » . وكان مستائي يعلم ما يعنيه حين ينعت بـ« التفكير الخطر » الاهتمام الفائق بالبحث عن الحقائق واليقين أو الإمكانيات الجديدة في بلد يسود فيه رماد وظلمات وليل روح . كانت بعض الأفكار قد عبرت المحيط الواسع مع كتابات فولتير وروسو التي يحاربها الكاهن الشاب بطرق ملتوية ويصفها بأنها متزمتة ومتجاوَزَة نافياً أية صلاحية لكتب مضى عليها أكثر من نصف قرن . ولكنّ هذه الكتب كانت قد طبعت كثيراً من النفوس بطابعها . وهي نفوس ترى في الثورة الفرنسية نفسها ، وقد تأملتها من بعيد ، أنها لم تكن إخفاقاً . والبرهان على ذلك ، أن /برناردينو ريفادافيا / وزير الدولة ، كان ينظر بكرهٍ شديد إلى إقامة البعثة الرسولية في بوينوس آيريس . وهو بصفته ليبرالياً وماسونياً بالتأكيد ، أعلم الأسقف موتزي أنه يحظر عليه تثبيت إقامته في المدينة ، داعياً إياه أن يتابع السفر أبكر ما يمكن . وقد جهد أن ينغص هذا السفر مسبقاً على أعضاء البعثة ، موحياً أن مبعوثي روما قد لا يستقبلون في الشيلي بالتقدير الذي يأملون .

وهكذا ، غادر رجال الدين حوالي منتصف كانون الثاني ١٨٢٤ ، في عربتين واسعتين تلحق بهما عربة أخرى ، تجمع فيها الصناديق والطرود والأدوات فضلاً عن الأسرّة والأثاث ذي الضرورة القصوى مما يصعب الحصول عليه في هذه (الخانات) التي سيضطرون إلى النزول فيها للنوم لعدم توفر مسكن يستضيفهم . واعتماداً على نصيحة أناس

مشفقين ينتقدون جحود /ريفادافيا / الفظ ، الذي لم يقدم للبعثة أية معونة رسمية ، فإن المسافرين حملوا معهم مؤناً موفورة من الطعام : كالحبوب والبطاطا والشحوم والبصل والثوم والليمون بدلاً من الخل الذي يكون ملوثاً في أعماق البلاد ، وبعض زجاجات من الخمر ومن مشروب آخر . وعلّق جيوفاني موتزي ضاحكاً :

ـــ ويقولون إن رؤساء الدين لا يطعمون إلا أسماك الترويت اللذيذة والقبّر .

ولكن مستائي كان يتكلم قليلاً ويتأمل طويلاً . وكان المنظر ذا رتابة مرهقة . ولكنهم ألِفوه من خلال محطات التوقف للراحة . وكان الشاب يحسب أنه يعرف ما هو السهل . ولكن الأمر اشتبه عليه عند رؤية البامبا[1] اللا نهائية حيث مهما سار المرء فإنه يجد نفسه وسط أفق مستدير من الأرض ذات لون واحد ؛ البامبا التي توحي للمسافر أنه لا يتحرك ولا يتقدم في طريقه مهما حث دوابه على السير ؛ البامبا باتساعها وبصورتها التامة عن اللا نهاية تضع الإنسان أمام تصور جاهز عن اللا محدود . كل هذا جعله يفكر برؤية الصوفي الرمزية ، الذي يرى الإنسان محشوراً في رواق لا بداية ولا نهاية معروفتين له ، فيحاول بالعلم والبحث أن يبعد عن نفسه الجدارين اللذين يحدان مجال رؤيته من اليمين ومن اليسار ؛ فيتمكن بعد سنين من دفع الحائطين إلى الوراء ، وإن كان لا يقدر على تحطيمهما أبداً ؛ أو يصل ، مهما أبعدهما عنه ، إلى تغيير وضعهما أو يعرف ما وراءهما . قطع مستائي البامبا وهو غارق في حلم مضيء ـــ تقطعه من حين لآخر صرخات جماعة من الرعاة تخب بصخب ـــ ولقد نبهه منه بعد أيام وأيام من الطواف في الوضع ذاته ، بروز أشياء معروفة : بعض النتوءات الأرضية ، والجداول ، والمقاصب الشبيهة بما هو موجود بأماكن أخرى ؛ وظهور بيوت ذات هندسة متشابهة ونباتات وحيوانات تبدو أقل خوفاً في اتساع طبيعة ذات مدى لا ينتهي .

ولكن ما لبث أن تحولت اللا نهاية الأفقية إلى لا نهاية عمودية ؛ إنها سلسلة جبال الآنديس : جلاميد هائلة تنتصب فوق الأرض ، ذات قمم تسبح في الغيوم كأنما تأبى أن

(١) سهول أمريكا الجنوبية الشاسعة .

تُطال أبداً . وإزاءها بدت لمستاني جبال الدولوميت التي يعرفها جبالاً للنزهة والزينة . (ومن المؤكد أنه لم يكن قد وطأ إلا المدارج الأولى منها) . فاكتشف بغتة ، تناقضات أمريكا التي أخذ يراها اسطورية ، وإن بدا له رجالها ، في الغالب ، جهلةً وأجلافاً وتافهين داخل المحيط الذي يشغلونه ، وجمجم : « لكنّ طبيعة كهذه ، لا يمكن إلا أن تنجب رجالاً مختلفين » وسيقول المستقبل أي عروق وأي أعمال وأي أفكار ستنطلق منها ، متى يصبح كل ذلك أكثر نضجاً ، ومتى تحصل القارة على وعي تام بإمكانياتها الذاتية . ولكنها تبدو الآن ، بما رآه حتى اللحظة ، أنها : « تفتقر إلى خميرة معتقة » ، مستخدماً هنا التعبير الخاص بذوّاقي الخمر العتق المجيدين .

ثم بدأ ، بعد ذلك ، أعضاء البعثة بالصعود البطيء والمضني نحو القمم التي تنبع وتتوزع منها الأنهار . فصعدوا عبر شعاب تشرف على مهاوٍ وتكسرات ترتمي فيها سيول هوج تسّاقط من قمم شرف ثلجي غير منظور ، ويختلط هديرها بصفير العواصف الثلجية وعويل شهيق المنخفضات . وفي الأعلى ، عرف مستاني وحشة القفار ، ووعورة الأرض ؛ وانتابه الذعر من شموخ المرتفعات ، وعمق الوهاد ؛ وأذهله جموح الغرانيت الأرعن ، وتصدع الصخور والحجارة والألواح الحجرية السود المصطفة كالتائبين في موكب ديني . وأدهشه المساطب المتدرجة ، والرؤية الكاذبة لمدن مدمرة ؛ رؤية تخلقها صخور ذات تاريخ موغل في القدم ، وما زالت تنزع عنها أسمالها المعدنية حتى كشفت عن هيكل عظام الأرض عارياً أجرد .

وكان العروج من سماء أولى ، إلى سماء ثانية ، فسماء ثالثة ، فسماء رابعة حتى بلوغ حد ظهر السلسلة الجبلية في السماء السابعة — وحق أن يقال ذلك — ليبدأ بعدها الانحدار باتجاه وديان الشيلي ، حيث تكسو النباتات خضرة مجهولة بسبب الطحالب الطالعة من الضباب . الطرقات هنا لا تكاد تكون سالكة . فقد بعثر الحجارة زلزالٌ حديث ، وألقى بالحطام على عشب القفر الهزيل . ثم كانت البهجة بالعودة إلى عالم الأشجار والأراضي المحروثة .

وأخيراً ، وصلت البعثة الرسولية إلى سانتياغو الشيلية ، بعد تسعة أشهر من السفر منذ مغادرة جنوة .

ـــ ما أعسرها ولادة !!

قالها مستائي وقد سُرّي عنه .

المعابد والأديرة في سانتياغو الشيلية وافرة جداً ، حتى أن رجل الدين الشاب شبّه المدينة لما دخلها بقرى صغيرة إيطالية حيث ينتصب عشرون برجاً للأجراس مقابل كل مائة سقف . وإذا كانت بوينوس آيريس لها رائحة الجلود والدباغة والسروج وغالباً ـــ لِمَ انكاره ؟ ـــ رائحة روث الخيل ، فإن المرء يحيا هنا وسط أدخنة البخور في مباني وأديرة سانتو دومينغو ، وسان أنطونيو ، وسان فرنسيسكو ، والريكوليتاس ، والكلاريساس ، وأغوسينوس ، والكومبانيا ، وسان دييغو بيراكروث ، ولا ننسَ ديراً يضم عدداً كبيراً من الراهبات ينتصب في البلاثامايور . لقد هنّأ مستائي نفسه لأنه صار بإمكانه أن يبدأ في مناخ موائم، عمله الجديد مستشاراً للبعثة. ولكن نبأ طارئاً أثار الاضطراب في عزائم المسافرين: إن /أوهيغنس / مدير الشيلي الذي كان قد طلب ، بواسطة سفيره لدى الفاتيكان ، إرسال المونسنيور /موتزي / ، أوهيغنس بطل حرب استقلال نبيلة وقاسية ، أطاح به منذ شهرين رجل ثقته الكبرى /رامون فريري / جنرال الجيش في الشيلي . وهذا الجنرال كان قابعاً في جزيرة شيلويه البعيدة منصرفاً إلى أمور حربية . (وفكّر مستائي الشاب : لقد برز الجنرالات المزيفون ولما يمت جنرالات السيف الحقيقيون) . فصار بذلك كل ما حصلوا عليه في مهب الريح ، لأنهم يجهلون كيف يكون استعداد فريري . وهكذا قبعوا في انتظار مغيظ ، كتب أثناءه مستائي في رسالة تعكس قلقه : (... إن الحكام الأمريكيين الجدد هم حكام يسيطر عليهم الخوف ، بسبب التقلبات المستمرة التي يخضعون لها) . « لقد طار الملاك الجبان دون رغبة منه هرباً من فأل مشؤوم » (كان يتمتم قداسة بيّو التاسع لما أعاد قراءة نسخة من هذه الرسالة المبشرة بكثير من الأحداث الدرامية ستنجلي في المستقبل ؛ ولقد ظل يحتفظ بها حتى اليوم مَن كان رجل دين مغمور آنئذ) . لكن مستائي لم يكن ذا عزيمة تنثني أمام

عقبات تعترض مخططاته . وبانتظار أن يستطيع العمل ، فقد انكبّ على تنمية صداقات أتاحتها له منذ أول يوم الجماعات الموسرة والمثقفة في سانتياغو . فقد واظب على زيارة الآنسات كوتابّوس الشغوفات للغاية بالموسيقى الراقية ، فأسمعنه ، كما هو مؤمّل بالنظر لصفة الزائر الدينية ، مرات عديدة مقطوعات لبرغولوسي .

(وفكر مستائي : إنه لأمر غريب أن مؤلفاً في العشرين من عمره حاز شهرة عريضة بمقطوعة واحدة أكثر مما حازه العجوز باليسترانى رغم مؤلفاته الضخمة التي كتبها خلال حياته المديدة) .

وكانت الآنسات كوتابّوس يقلن : « إن عمله الأوبرالي ذائع الصيت هنا أيضاً ، وإننا نعرف فقرات منه ، ولكن حواره قد يصدم حضرتك بجرأته » . فشكر مستائي لهن تحفظهن بابتسامة حانية ، وإن كان فيها قدر من الرياء ، لأنه يتذكر جيداً أنه وأخته ماريا تيكلا كانا قد لهوا طويلاً ذات مساء في سنغاليا ، وهما يترنمان بأجزاء تتضمن شخصيات ثنائية (الثالث كان أصم) من تلك الهزلية اللطيفة الموضوعة فوق البيانو المنزلي المحطم . وقد عرف من الأخوات كوتابّوس بعض أغاني عيد الميلاد التي تنشر البهجة في المدينة ــ الرمادية والكئيبة ــ على مدار العام . احداها ذات لحن جد شعبي سحرته بطراوة براءتها وإن كان فيها حشو :

سيدة دونيا ماريّا
لقد جئت من بعيد
ولابنك الصغير جلبت
زوج أرانب صغير .

حل الأسبوع المقدس وقتئذ ؛ وقد شُده مساعدُ البعثة النابه بالطابع القاتم والدرامي وشبه القروسطي الذي يتجلى فيه موكب التائبين يوم الجمعة ، حينما يطوف في المساء الحزين عبر الشوارع المركزية : رجال حفاة يلبسون جلابيب طوالاً وبيضاً ، ويضعون تيجاناً من

الشوك ويحملون صلباناً ثقيلة من الخشب على أكتافهم اليسرى وسياطاً على اليمنى يجلدون بها ظهورهم بعنف .

وفكر مستائي أن قوة الإيمان في هذا البلد لا يمكن أن تكون غير ملائمة لأعراض البعثة . ولكنه تأكد أيضاً من أن ما يسمى بالأفكار الجديدة قد انتشر هنا انتشاره في بوينوس آيريس . وإذا كان التائبون قد أدموا ظهورهم في موكبهم التطهيري ، فإن شباناً ظرفاء وغير مؤمنين يسمون « أغراراً » ، قد أفهموه قاصدين تكديره أن حرية الصحافة لن تلبث أن تتوطد — وقد قلصت بالضرورة بسبب الحرب القاسية التي عاشتها — وأن في ذهن فريري مشروعاً سرياً بعلمنة الاكليروس الشيلي . ولكن مستائي الذي يترقب الأحداث تبنّى تكتيكاً جديداً ، إزاء من يبدون ليبراليين في حضرته . تكتيك يكمن بإظهار قدر من الليبرالية أكثر من الليبراليين أنفسهم . ويعلن مستخدماً استراتيجيات أخذها من الجزويت ، إن فولتير وروسو كانا من ذوي الموهبة النادرة ، وإن كان هو لا يقاسمهما آراءهما ، مذكراً ، مع ذلك بنفاق ناعم ، أن هذين الفيلسوفين ينتميان إلى أجيال تجاوزتها الأفكار الراهنة . ولهذا فقد آن الأوان للسير على إيقاع العصر ، مطرحين جانباً نصوصاً نخرة مليئة بمفاهيم تاريخية دحضها الواقع ؛ فصار ملحّاً تبني « فلسفة جديدة » . والأمر ذاته بالنسبة للثورة الفرنسية ، وهي حدث أكل عليه الدهر . فقد أحبطت مثلها الأولى على الرغم من أن الناس هنا ما زالوا يتحدثون عنها باستفاضة ، في حين لا أحد يذكرها في أوروبا . وإذا ما تحدث عن العقد الاجتماعي وكتابات الموسوعيين ، فكان يقول عنها : « متشنجة ، وباطلة وعتيقة . إنها إنتاج أناس من عصر آخر » .

وكان يقول عن الثورة الفرنسية : « إنها تطلع يوتوبي لم يُفضِ إلى شيء ، ووعود منكوثة ، ومثل مخونة ، كان يمكن أن تكون أمراً كبيراً ، ولكنها لم تبلغ ما حلم به باعثوها . إني أؤكد هذا ، أنا — رجل الدين — الذي ينبغي أن تعتبروني رجلاً أسير حدود تفكير دوغمائي وعتيق » .

ولكن : كلا ! كلا ! كلا ! اليوم تقوم ليبرالية من نوع جديد ــ ماذا نقول ؟ ــ تقع على يسار اليسار ذاته ، متذكراً أن اليعاقبة في قاعة الجمعية الوطنية ، كانوا يشغلون دائماً المقاعد الواقعة على يسار الجمعية . ويسألونه : « أينبغي ، إذاً ، أن نكون يعاقبة أكثر من اليعاقبة ؟ » .

« ــ توجد اليوم طريقة ليكون المرء فيها يعقوبياً » . كان يجيب من أوحى مستقبلاً بالمنشور البابوي ، وهو بمهارته في مداورة أفكار الخصم قد ارتقى إلى البابوية بشهرة رجل ليبرالي إلى أقصى حد ، وصديق للتقدم .

قضت البعثة الأشهر التالية في الانتظار والقلق ، والاضطراب والهموم ونفاد الصبر والإثارة والإحباط نظراً لعداوة /فريري / المبطنة . فهو يعرف ، لسوء حظ رجال الدين ، أن يبدو مهذباً وبعيد المنال بآن واحد ، حفيّاً آناً ونفوراً آناً آخر ، بشوشاً ومنفتحاً في الظاهر ، متى يلتقي برئيس الأساقفة موتزي ، ليعمل بعدئذ عكس ما قدمه .

لقد التفّت أرستقراطية سانتياغو القديمة حول البعثة الرسولية . ولكنّ حلقة الوشاية كانت تتسع حول الغرباء . واتهم /موتزي / بتطبيق تشريع يذكر بأيام الكولونيالية ، حينما امتنع عن عقد قران أرمل على ربيبته . وقيل أيضاً إن مستائي الشاب قد تقاضى مبلغاً ضخماً لقاء قيامه بواجب ديني في منزل أسرة ثرية . لقد صارت النمائم والتخرصات ، والتقولات ، والدسائس والإشاعات الكاذبة تنمو كل يوم حتى لم يعد بمقدور رجال الدين المُنتَدبين تحملها . ولقد طفح الكيل لما حدث ما كان « الأغرار » قد أعلنوه . فقد تقررت حرية الصحافة ، وإن كان فريري قد أكد لرئيس الأساقفة ، مندوب روما ، أنه لن يسير في ركاب ليبرالية جد متطرفة . ومنذ هذا اليوم ، صارت مستحيلة حياة المندوبين الرسوليين . فقد أُكّد بحروف بارزة أن إقامة البعثة الخاملة قد كلفت الخزينة العامة /٥٠٠٠٠ / بيزو ؛ واتُّهم أفرادها أنهم جواسيس للحلف المقدس . وزاد في الطين بلة ، الإعلان بشكل قاطع عن علمنة الاكليروس الوشيكة . وبموجب ذلك ، فإن الكنيسة المحلية تُؤَمم وتعفى من أي

خضوع لروما . وأمام هذه الوقائع ، فإن موتزي أعلم الحكومة أنه سيعود فوراً إلى إيطاليا ، معتبراً أن ثقته وإرادته الطيبتين لم تقعا موقعاً حسناً .

وهكذا ، وبعد تسعة أشهر ونصف من جهدٍ لا طائل تحته ، فإن الرئيس الديني ومساعده الشاب ودون سالوستيو غادروا إلى /فالبرائيسو / التي كانت حينئذ بلدة قميئة لصيادي السمك ، تقع وسط دائرة من الجبال حيث يتكلم الناس الانكليزية كالإسبانية لوجود مخازن بريطانية مزدهرة هنا ، تتبادل السلع مع السفن التي ترسو بعد إبحار طويل وشاق عبر المحيط الهادي الجنوبي ، وخاصة مع السفن الشراعية الأمريكية الشمالية والسريعة التي يزداد عددها كل يوم ، وتنشر ، لإدهاش الناس ، قلوعها الأربعة .

أما مستائي الذي أحزنه قليلاً إخفاق البعثة ، فقد شهد هزات زلزالين أرضيين ، لم يصب فيهما بضرر . ولكنهما جعلاه يعاني من قلق لا يوصف لإحساسه بفقدان الاستقرار ، فقدانه الاتزان الجسدي . وقد أعجبته لا مبالاة موسيقيين ضريرين لم يكفا خلال الهزات القصيرة عن عزف لحن صارفين جل اهتمامهما إلى الصدقات وليس إلى الغضب الأرضي . ويذكر أنه دُعي في أحد مطاعم المرفأ إلى تذوق طعم السمك البوري والمجنون ، والأعشاب البحرية وسرطان بحر أرض النار الشهير . وفي النهاية ، أبحر رجال الدين على متن « الكولومبيا » ، وهي سفينة شراعية ذات بناء حسن وهيكل قوي ، وقد اعتادت على مواجهة عواصف المحيط القاسية الدائمة ، أثناء الالتفاف حول المخروط الأمريكي الجنوبي . اشتد البرد عند العبور بموازاة مدينة فالديفيا . وفي ١٠ تشرين الثاني كان الركب على خط عرض جزيرة شيلويه . وفي ١٧ منه تأهب المبحرون لمواجهة تجربة عبور رأس هورن المهيب . **وهناك حدثت المعجزة** : ففي منطقة الأعاصير الذائعة الصيت ، ومقابل نصب الغرانيت السود التي تصفعها رياح جنوبية مزمجرة ، وتحدد خط نهاية القارة ، كان البحر هادئاً هدوء أمواج بحيرة ايطالية . لقد ذهل ربان /الكولومبيا / وبحارتها من هدوء لا عهد لهم بمثله في هذا المكان من الكرة ؛ حتى أن أقدم البحارة من سكان المنطقة لم يتذكروا أعجوبة كهذه .

إنها ليلة صافية ملائمة وإبحار سعيد له إيقاع موزون على حسيس أجهزة السفينة ، ونوسان الفنارات الناعس . كان مستائي راقداً على ظهر السفينة ، متكئاً على مرفقه ، تتراءى له اليابسة أكثر مما يراها ؛ فاستذكر أحوال مغامرات هذه الرحلة الطارئة التي لم تخلُ من أحداث جديرة أن تضمها خير الروايات المستوحاة من نكبات السفن في المحيط والرائجة بين الناس آنئذ ، بعد حادثة المركب /ميدوس / الرهيبة : عواصف ورياح معاكسة ثم فترات هدوء محبطة ، ورؤية أسماك نادرة ؛ وتذكّر حتى هجوم القراصنة في جزر الكناري أثناء القدوم إلى هنا . فهؤلاء بعد أن انقضوا على السفينة وهم يصرخون صراخاً مفزعاً ، ويطعنون الهواء بمديهم ، انكفؤوا مرغمين لما لم يعثروا على متن الهيلويز على أشياء ثمينة ، ما خلا وعاء القربان وثياب الرهبان والكأس المقدس ، فتركوها بوقار في حوزة رئيس الأساقفة موتزي ، لأنهم كاثوليك طيبون ، وليسوا من أولئك البروتستانت القذرين : ثم كان بعد ذلك اكتشاف أمريكا . أمريكا أشد قلقاً وعمقاً وأصالة مما آمله رجل الدين . فقد وَجَدَ وراء كسل أهلها وفظاظتهم ، ومكر الهنود وقسوة رعاة البقر والفرسان ذوي الهيئات الغريبة ، والعازفين الشعبيين الذين يغنون ، متى لمسوا القيثار ، المدى الهائل ، والحب والتحدي والسخرية والموت ؛ وراء ذلك كله ، وجد أمريكا أخرى موّارة ذكية مصممة ومبدعة دائماً وإن انحرفت أحياناً . أمريكا حاملة بمستقبل يجب أن يقترن ، حسب مستائي ، بمستقبل أوروبا ــ لأن حروب الاستقلال تنزع إلى حفر هوة لا تفتأ تتسع وتتعمق بين القارتين : العجوز والجديدة ــ . والعامل الموحد يمكن أن يكون الدين . وتذكر الشاب أديرة الشيلي ومعابدها المختلفة ، وكنائس البامبا المتواضعة ، والبعثات الحدودية ، وعذابات جبال الآنديس . ولكنّ الإيمان هنا ، خلافاً لما هو معروف ، يتركّز في عبادات محلية وقداسة من نوع معين ، في الحقيقة ، مجهولة في أوروبا . لقد درس رجل الدين جيداً حياة القديسين الأمريكان لما كان يتأهب للرحلة الحالية . وقد ذُهل ، وهو يستعرض ذهنياً ، من غرابة الأطوار التي وجدها في مطوبيهم وقديسيهم. ففيما عدا /روسا دي ليما / ذات المسحة الصوفية الراسخة ، والشهرة البعيدة، لم يجد إلا صوراً أرتبطت بتخيلات موضعية. فإلى جانب /روسا / ترتفع كتتمة ثلاثية آندية، صور /طوريبيو دي ليما / المولود في مايوركا ورئيس

محكمة تفتيش فيليب الثاني والمرق إلى رتبة رئيس أساقفة . فكان يجوب أرجاء أبرشيته الفسيحة على مدى سبع سنوات معمداً عدداً لا يحصى من الهنود الحمر . ثم /ماريانا دي بارديس /زنبقة كيتو ، ومنافسة روسا في العذاب الذي فرضته على جسدها ، حتى أنها في زلزال ١٦٤٥ المرعب قدمت روحها إلى الله قرباناً ليخرج سكان المدينة من المحنة سالمين . وقريب جداً من /طوريبيو دي ليما / لدينا /فرنسيسكو سولانو / وهو ضئيل الذكر في العالم القديم . فقد كان مبحراً على متن سفينة تنقل رقيقاً فأنقذ الرقيق من الغرق لما تخلّى عنهم الملاحون بجبن وأسلموهم بدون حماية ولا قارب ولا طوف إلى ثوران المحيط . ثم يأتي المبشر المثير للجدل /لويس بلتران / الذي حول في كولومبيا وباناما كثيراً من الهنود إلى المسيحية ، وإن قيل إن هذا التحول ليس بذي أهمية لأنه جرى عبر مترجمين لجهل القديس اللغات المحلية . ولكن شخصية /بيدرو كلافير / تبدو أكثر بروزاً كحام للأرقاء الزنوج ، ومعادٍ لسلطة قرطاج الدينية في أمريكا . وإنه ، حسب تأكيدات معاصريه ، عمّد أكثر من /٣٠٠ / ألف زنجي خلال مهمته التبشيرية النموذجية . ويأتي بعد هؤلاء قديسون ومطوبون أقل شأناً ، هم موضوع تقدير جد محلي مثل /فرنسيسكو كوليناريو / واعظ غواتيمالا ؛ وغريغوريو لوبيث ، الخادم السابق عند الملك فيليب ، ولم يتم ترسيمه في روما ، وإن كان لا يزال معتبراً في /تاكاتيكاس / . ومارتن دي بورّيس ، وهو حلاق وحجام من ليما وأول مولّد يصبح قديساً . ثم /سبستيان أباريثيو / وهو يتمتع بتقديس محلي في /بويبلا دي لوس آنخليس / وقد كان منشيء طرقات ومدير مصلحة البريد بين مكسيكو وتاكاتيكاس . وقد اهتدى إلى نور الإيمان وهو في السبعين من عمره بعد حياة دنيوية ماجنة . أما /سبستيان مونتانيول / الذي قتله هنود تاكاتيكاس (بالتأكيد كانت هذه المدينة ، مثلها مثل ليما ، موضعاً مختاراً لتجلّيات رسالات خطيرة) ، وألفونسو رودريغيث ، وخوان إل كاستيّو ، وروكي غونثالث دي سانتا كروث ، شهداء باراغواي فقد ظلوا موضوع تاريخ جد محلي ومعزول ، ويُحتمل ألا يوجد اليوم مؤمن واحد في الدنيا يمكن أن يركن إليه مستائي الشاب بشأنهم . كلا . كلا . فالأمر المثالي والكامل ، من أجل خدمة الديانة المسيحية ، في العالمين القديم والجديد ، ويجد فيه الناس ترياقاً من سموم الأفكار الفلسفية التي لها فائض من

الأتباع في أمريكا ، قد يكون قديساً يحظى بتقدير شامل ، قديساً ذا سمعة غير محددة ، قديساً له بعد عالمي راسخ ؛ قديساً كبيراً ، وأكبر من تمثال رودوس الأسطوري ، يضع قدماً في شواطىء القارة ، وقدماً أخرى في أقاصي الأراضي الأوروبية ، قديساً يطل بنظره من فوق الأطلسي على نصفي الكرة كليهما . إنه القديس كريستوبال كريستوفوروس ، خادم المسيح المعروف من الجميع ، ومحط إعجاب كل الشعوب . إنه عالمي في أعماله ، عالمي في شهرته . وفكر مستائي ، بغتة ، كأن نوراً أضاء جوانبه ، فكر بأميرال فيرناندو وإيزابيلا العظيم. كانت عيناه مركزتين في السماء المرصعة بالنجوم البديعة . وانتظر جواباً على سؤال انزلق من بين شفتيه ، وحسب أنه يسمع بيتاً من شعر دانتي :

لا أقول لك شيئاً ، كيما تبحث عنه في نفسك .

ولكنه أحس فوراً بالضيق ، لشعوره بضآلة شأنه . فلإثارة موضوع ترسيم الأميرال الكبير ولتقديم طلب ترشيح إلى مجمع الطقوس المقدس ، كان لا بد من الحصول على إذن الحبر الأعظم ، أو على الأقل إذن أحد أعيان الكنيسة . فلقد مضى زمن طويل على وفاة مكتشف أمريكا ؛ وحالته بصراحة ، ليست من الحالات الشائعة . ولكنّ مستائي كان تابعاً بسيطاً ورجل دين مغموراً ، ومهزوماً هزيمة تامة في بعثة دينية مخفقة . غطى وجهه بيديه ، في تلك الليلة التي ترين على رأس هورنو الشاسع ، ليطرد من ذهنه فكرة تتجاوز بضخامتها إمكانياته في العمل .. أجل ! غطى وجهه بيديه ، تلك الليلة المشهودة ؛ ولكن هاتين اليدين ، هما ذاتهما اللتان تترددان الآن بين المحبرة والريشة، يدان هما يدا قداسة البابا بيّو التاسع. ولِمَ الإمعان في الانتظار ؟ ها قد انقضت أعوام وهو يداعب هذا الحلم . حلم قد يتحقق الآن معلناً إلى العالم ترسيم كريستوبال كولون على أنه أعظم الإنجازات خلال بابويته المديدة . أعاد ببطء قراءة فقرة من النص المقدم إليه من رئيس كنيسة بوردو : « — إن نيافة الكردينال دونّيه رئيس أساقفة بوردو ، أعلم قداستكم منذ أربع سنوات تبجيل المؤمنين خادم الله كريستوبال كولون ، وهو يرجو بإلحاح إدراج قضية الشخصية المشهورة بطريقة

استثنائية » . (ملحق رقم ٢ من طلب الترشيح المنشور في خاتمة الكتاب : مكتشف الكرة الأرضية /د . ليون بلوي) .

تناول الورقة المرفقة بالطلب ووقع القرار بعزم ، فأتاح بذلك افتتاح باب الاستعلام وإجراء عملية التطويب . وأغلق قداسته محفظة الوثائق الحمراء وزفر زفرة رفّه فيها عن نفسه ، شعوراً منه بأنه أنجز مهمة عظمى . فتحت الأخت كريشتيا الباب بهدوء حاملة فانوساً ذا ضوء هادىء غطته شاشة خضراء ، معلنة قبل كل مساء ، أن الغسق صار وشيكاً . سلّم الرزمة إلى الراهبة ورجاها أن توصلها صباحاً بطريق رسمي إلى يدي رئيس مجمع الطقوس المقدس . وظل البابا وحيداً . منذ سنوات طوال نُظر إليه في محيط الفاتيكان ، بسبب هذه الرحلة ، على أنه أعظم العارفين بمشاكل أمريكا . لذلك كان يؤخذ رأيه في كل مشكلة عويصة ويصغى إليه بأقصى انتباه . وهو نفسه ، قد تباهى مرات عديدة بكونه : « أول بابا أمريكي بل تشيلي »[1] . (وكان يضيف : لأنه لا يمكن أن يجري شيء فيما وراء البحار دون أن أكون مهتماً به) . ولكن ، بدفعه عملية التطويب الشائكة قدماً ، كان عليه منذ الآن أن يسمي : محامي ـفاع وكردينالاً مقرراً ، ووكيل الكنيسة القادم ، وكاتباً ومستشاراً يجب أن يباشروا القضية . (وهي خطوة تسبق ترسيم كريستوفوروس) . وهذا ما شغل باله مرة أخرى . لذلك كان مضطراً أن يلجأ إلى إجراء استثنائي : « لإدراج القضية بطريقة استثنائية » . كانت روما تفضل دائماً أن تبدأ إجراءات التطويب بأسرع ما يمكن ، بعيد وفاة المرشح . فحينما يمر زمن طويل يوجد دائماً خطر من تقديسه تقديساً محلياً ، قد يُعلي بإفراط ما قد يكون مجرد سيرة إنسانية تقية ، فيمنحه مجمع الطقوس تطويباً « مكافئاً » أو « تطويب ترضية » ، وهو ذو شأن وشهرة هزيلين . وفي حالة كولون فإن هذا النوع من التطويب يتناقض ومخططات الحبر الأعظم ، الذي يريده عالمياً له صدى وضجة كبيران . فمسألة الزمن ، إذاً ، تبرر « الطريقة الاستثنائية » ، ولكن ... ماذا بشأن الباقي ؟ لا توجد شكوك . فمنذ ثلاث عشرة سنة خلت ، كان قد طلب إلى الكونت روسلي دي

---

(١) حسبما جاء في وثيقة نشرتها البعثة الرسولية في الشيلي عام ١٩٥٢ .

لور غ ، الكاتب الكاثوليكي الفرنسي ، أن يكتب سيرة كريستوبال كولون الحقيقية ، على ضوء أحدث الوثائق والبحوث التي أجريت حول حياته . وفي هذه السيرة ـــ وقد كان قرأها وأعاد قراءتها عشرين مرة ـــ يبدو واضحاً أن مكتشف أمريكا جدير من كل ناحية بمكانة بين كبار القديسين . والكونت روسلي دي لور غ لا يمكن أن يكون قد أخطأ . فهو مؤر خ دقيق ومتشدد ومتحمس ، خليق بكل تصديق . ولقد رأى أن الملاح الكبير كان يعيش دائماً بهالة نورانية غير منظورة تتوج رأسه . وقد آن الأوان لجعلها منظورة من أجل إعلاء مجد الله .

وتذكر البابا أن كولون كان قد انتسب مثله إلى الرهبانية الثالثة الفرنسيسكانية وفرنسيسكانياً كان كاهن الاعتراف أيضاً .

أوه : ما كان أسعده ذلك القس المغمور الذي ظفر بالنعمة الكبرى لما تلقى ذات مساء في بلد الوليد الاعتراف الشامل من مكتشف العالم !! ما كان أشرقها لحظة وأبهرها ! ولشد ما امتلأت بالصور الكونية ، ذلك المساء ، غرفة بائسة في نزل صغير ، تحوّلت بكلمات (من) كان يدلي باعترافه ، إلى قصر بديع من العجائب . ولا حكاية أوليس في بلاط الفيسيين يمكن أن تضاهي ، حتى من بعيد ، مجداً وخطراً ، ما كان يتفوّه به ، ذلك المساء (مَنْ) عرف عند حلول الليل أسرار الموت ، كما عرف في حياته أسرار ما وراء جغرافي مجهول ، وإن ظل الناس يحدسون به منذ : « العصر السعيد ، ومنذ عصور السعادة التي أطلق عليها الأقدمون اسم العصور الذهبية » . عصر سعيد وعصور سعادة أثارها دون كيشوت في حديثه إلى رعاة الماعز .

الفصل الثاني

II اليد

« ومر بيده فوق
البحر ، ليقلب الممالك »

أشعيا /٢٣ / II

لقد ذهب القوم في طلب رجل الدين من أجل الاعتراف . ولكنّ هذا الأخير سيبطىء في القدوم ، لأنّ بغلتي تمشي على مهل حينما تسلك طرقاً وعرة (والبغلة في النهاية مطية النساء ورجال الدين) ؛ ولأن الكاهن الفرنسيسكاني النجيب الذي يعالج العلل الروحية ، انطلق لمساعدة أحد أقاربه المحتاج إلى زيوت مقدسة ، وعليهم أن يجدوه على بعد أربعة فراسخ من المدينة .

إني أرقد فوق لوح حجري ، (منتظراً (مَنْ) سأتحدث إليه حديثاً طويلاً غاية الطول ، مدّخراً قواي لأتكلم ما شاء لي الكلام ، فقد أنهكتني وطأة العمل أكثر مما أنهكتني الأمراض التي قاسيتها . يجب أن أقول كل شيء . كل شيء . أجل ! كل شيء . سأسترسل في الكلام ، وأمضي أبعد كثيراً ، مما أرغب أن أقول . لأن الأمر (ولست أدري إن كان راهب يفهمه جيداً) يفرض في الغالب ، اندفاعات وتوقفات ، ومبالغات (وإني أقبل الكلمة) يصعب أن تتواءم ، بعد أن جرى ما كان ينبغي أن يجري ، مع كلمات تنمق خلال الحديث ويجلى عنها صدؤها ، فتطبع في النهاية اسماً في رخام القرون .

فالفلاح الذي سرق كرمة جاره ، قد يقف أمام عرش الله شبه برىء . وكذلك قد تمثل البغي شبه بريئة أيضاً . (واغفروا لي هذه اللفظة ، فقد استخدمتها دون تزويق في رسالة موجهة إلى جلالة مليكيّ) . فهي ، بسبب افتقارها إلى مهنة أفضل ، تسعى لاصطياد بحار في مرفأ وتلجأ معه إلى حمى الجدلية التي ينير تمثالها المقدس في باريس راية « الأخوة الريبالديين » ، التي أقرها بتوقيعه وخاتمه سان لويس ملك فرنسا ، على أنها ذات نفع عام .

فهذان يحتاجان في اعترافهما الأخير إلى قليل من الكلمات . ولكني ، أنا وأمثالي الذين ينوؤون بحمل صور لم تشهدها عين إنسان قبل قيامهم بمغامراتهم الخاصة ، أمثالي الذين سلكوا طرق المجهول (وقد سبقني آخرون إلى ذلك ، وإني أقرُّ به ، وعلي أن أقر به ، وإن كنت قد سميت كولكيدا ما لم يكن أبداً كولكيدا ، وذلك ليفهمني الناس فهماً أفضل) ، أمثالي الذين جاسوا خلال ممالك المسوخ وكشفوا الحجاب عن السر ، وتحدوا غضب العناصر وغضب الناس ، هؤلاء لديهم فيض من الكلام ليقولوه . سأقول أشياء فيها فضائح واضطراب وعشق وتزوير . سأقول كل ذلك إلى رجل الدين في أسرار الاعتراف .

ولكنني في هذه اللحظة التي ما زلت فيها حياً ، بانتظار رجل الدين ، نحن اثنان في واحد . الراقد ، ويداه مضمومتان كأنه في وضع الصلاة . والآخر ، الآخر الداخلي الذي يجهد ليتحرر مني ، أنا ، أنا الذي أحيط به ، وأحبسه وأسعى لخنقه ، صائحاً بصوت أغسطين : « إن جسدي لم يعد يطيق حمل روحي الدامية » . وحين أنظر إلى نفسي بعيني الآخر الذي يمر بجانب سريري ، فإني أراها مثل تلك التحفة التي كان يعرضها في جزيرة شيلوبه تاجر يضع على رأسه قبعة رسمت عليها دائرة البروج ، ويقال إنها جلبت من الأراضي المصرية . تحفة كانت تشبه علبة لها شكل بشري ، داخلها علبة أخرى شبيهة بالأولى وهي تحصر بدورها جسداً ، حفظ عليه المصريون عبر فنونهم في التحنيط مظهر الحياة . كان الوجه جافاً كجلد مدبوغ ، لا تزال تشع منه طاقة حتى ليُظن كل لحظة أنه سيرجع للحياة .

أحسست أن غطائي الحريري صار مشدوداً ، وأنه يحيط كالعلبة الأولى بجسمي المقهور . ولكن ، داخل هذا الجسم المنهك تعباً وصراعاً ، كان (الأنا) الأعمق ما يزال يقظاً ، صاحي الذهن ، سريع الخاطر ، مستجمع القوى . وهو شاهد على أمور عجيبة وملوث بنواحي ضعفه ؛ إنه مثير فتن ونادم اليوم على ما فعله بالأمس . قلق أمام نفسه ، مطمئن أمام الآخرين . إنه هلوع وجبار في آن واحد . وهو مخطىء بحق الإرادة الإلهية ، وشاهد وممثل ، وقاضٍ ، وطرف ومحامٍ عن نفسه أمام هيئة محكمة عليا ، حيث يرغب أيضاً أن يحتل منصب قاضٍ ليستمع بنفسه إلى النقاش ، وينظر في وجهه وجهاً لوجه . ولأرفع يدي وأصيح ، وأدلي بحججي ، وأجيب ، وأدفع عن نفسي الإصبع الممدودة إلى صدري وتتهمني . وأصدر حكماً وأستأنف وأبلغ أعلى درجات القضاء في محكمة حيث أبقى في نهاية الأمر وحيداً . وحيداً ، أنا وضميري الذي كثيراً ما يتهمني ، وكثيراً ما يعفيني . وحيداً أمام المنظم الذي لن نصل إلى فهمه ، ولن نعرف شكله ، والذي لم يجر اسمه ذاته خلال قرون وقرون على ألسنة أمثال آبائي وأجدادي من المؤمنين المتقيدين بشرائعه .

ولئن جاء في النصوص ، إنه خلقنا على مثال صورته ، فتلك سماحة منه أن يأذن بنزول شيء كهذا في كتابه . ربما لأنه يعلم أن الكائن الناقص الذي ينبثق من كماله اللا متناهي يفتقر إلى الشبه والصورة كيما يجسد في ذهنه المحدود الطاقة الشاملة والوجود الكلي (لمن) يقوم كل يوم بدقة لا تخيب ، بتنظيم وتسيير الأفلاك العجيبة .

ولكنني لست معنياً بنزع الأستار عن أسرار تتجاوز ذكائي ، وإنما أنا في ساعة الخشوع التي يقضي بها اقتراب الحل النهائي . هذا الحل الذي يتساءل فيه المُمهل ، والمنظر بين المنظرين ، إن كان سيشتعل فوراً ، ويلتهب من جلال (رؤية مَن لم يُر أبداً) ، أو عليه أن يقبع في الظلمات ملايين السنين ، ساعة يُحشر فيها مع الأشرار ويدعى إلى قفص المتهمين . أو يوضع في إقامة جد طويلة يقوم على رعايته فيها بواب مجنّح ، ملك من كتبة الملائكة ، يحمل أقلاماً في جناحيه ، ويضع أقلاماً أخرى وراء أذنيه وهو يمسك بسجل الأرواح .

ولكن تذكّرْ أنك بهذه الشطحات قد خرقت خرقاً خطيراً قواعد رهبانيتك الروحية ، المعادية لكل سؤال لا معنى له ، ولكل ظن أثيم . تذكّرْ ، أيها البحار ، الكلمات المنقوشة في لوح حجري يعثر به المؤمنون كل غداة في أعظم معابد طليطلة :

هنا يرقد

غبار

رماد

عدم

وأذكر أيضاً ، ذاك اليوم من كانون الثاني والعاصفة في أوج غضبها ، لما دوّى في مسمعيك صوت واضح وقوي ، بعيد وقريب في آن واحد :

« أوه ! أيها الأحمق ! ناقص الإيمان والمقصر في خدمة ربه رب العالمين . فهو مذ ولدت يرعاك رعاية حسنة . ثق ولا تخشَ . كل محنك مكتوبة في لوح من رخام . وليس بدون سبب » .

سأتكلم إذاً ؛ سأقول كل شي .

بين الخطايا الكبرى ، واحدة منها كانت غريبة عني دائماً : هي خطيئة الكسل . لأنني من جهة المجون ، ففي المجون عشت ، حتى أخرجتني منه مشاغل كبرى . وإنّ اسم (ماديغال دي لاس آلتاس تورّيس)[1] ــ وهي كلمات ترتبط لديّ بصورة النسب الرفيع ؛ والجمال وبهجة العيد ، والهدف الأعلى للرغبة ــ هذا الإسم وحده أعمى بصيرتي ، حتى أني كنت أرى في أشكال الجبال التي رأيناها أول مرة ، شبيهاً بأشكال أخرى كانت ترتسم حثيثاً وبشوق في أعمق أسرار ذاكرتي .

افتتح والدي محلاً للجبن والخمور في سافونا ، دون أن يتخلى عن ندف الصوف . وأنشأ فيه واجهة خلفية يستطيع فيها الشرب أن يمدوا كؤوسهم إلى صنابير الدنان ليشربوا

---

١) بلدة في إسبانيا ولدت فيها الملكة إيزابيل .

الأنخاب بعدها فوق منضدة من الجوز السميك . فشغفت منذئذ بالاستماع إلى المغامرات التي يرويها البحارة ، وأنا أكرع كأساً وراء كأس تمرر لي خلسة . فأغرمت بالخمر حتى أن كثيرين سيدهشون مستقبلاً من أنني في رحلاتي ، أسعى دائماً لحمل كمية كبيرة من الدنان في السفن . وإني لو عنيت بأمور الزراعة لحفظت زبدة الأراضي التي قد يهبنيها القدر لزراعة الكرمة ورعايتها . فنوح ، وهو سلف جميع البحارة ، ضرب المثل السيء في ذلك . ولما كان الخمر يلهب الدم ويثير الشهوات الآثمة ، فلا يوجد في المتوسط بقعة لم تعرف نزوات شبابي ، لما قررت تكريس حياتي للبحر مسبباً شقاء كبيراً لوالدي .

لقد جرّبت نساء صقلية وشيّو وقبرص وليسبوس ، وجزر أخرى مختلطة إلى هذا أو ذاك ، هي مزيج من عرب لم يرتدوا عن دينهم تماماً ، ومسيحيين جدد لا يزالون يمتنعون عن أكل لحم الخنزير ؛ وسوريين يركعون أمام كل كنيسة دون أن يعرفوا أية جهة يتبعون؛ وأغريقيين ينادون على بيع أخواتهم لساعات معدودات ، ويتاجرون بكل بضاعة ، وهم لوطيون وقذرون إن اقتضى الأمر ذلك . لقد خَبَرْت نساء يقمن قبل الاتصال بالعزف على السامبوكا والطبلة . وجنوبيات منحدرات من سلالة يهودية ما، يغمزن غمزة ذات معنى لما يلمسن فحولتي ، وقد احمرت عيونهن من الكحول ؛ وحين يرقصن يدفعن للطيران فراشات موسومة على بطونهن ؛ وأخريات ــ مغربيات في الغالب يحفظن النقود التي يحصلن عليها في أفواههن حماية لألسنتهن من ألسنة مندسة . ونساء أخر يدرن ظهورهن ويقسمن أغلظ الأيمان أنهن لم يُمسسن من قبل ، إن لم تحملهن عطية سخية على بذل ما لم يرخصنه لأحدٍ أبداً . وهذا فضل عظيم .

وعرفت الإسكندريات المبيّضات ، والمحمّرات والمزوّقات كرسوم ساحرة في جؤجؤ السفينة ، أو كصور موتى منقوشة للزينة على غطاء القبور التي لا تزال تستخدم حتى الآن .

ورب قادمات من كل صوب ، لشدة تأوهاتهن يكاد يغمى عليهن . وهن يقتلن ضجرهن بنظم حبات عقد فوق صلبك الذي أنهكه السعي وراء متعة يُدلل عليها بالصياح

حتى يدفع المرء لقاء استماعه لها . عرفت كل هذا ، وعرفت أكثر منه في جزيرة سردينيا القاحلة ، وفي مرسيليا مدينة الفساد الكبير . كان ذلك قبل سنوات من ارتيادي سواحل أفريقيا وتعرفي على النساء ذوات البشرة القاتمة ؛ كانت تزداد قتامة كلما تقدمنا ، حتى بلغنا سوداوات غينيا وساحل الذهب ذوات الوجنات المشطبة بالسكاكين واللآلىء المتدلية من جدائلهن ، وذوات الزغب المنتصب والأرداف الوثيرة التي يُغرم بها البرتغاليون والغاليسيون غراماً حقيقياً . أقول — حقيقياً — لأني أتذكر أن الملك سليمان كان حكيماً وحاكماً جد نبيه ؛ كان حكيماً أيضاً لأنه اقترن بتلك — الشمس السوداء — التي يتدلى ثدياها كعنقودي عنب ، مثل تلك الأعناب السود الريانة ، النابتة على سفوح الجبال ، المعرضة لرياح البحر ، فتعطي خمراً عطراً وكثيفاً يترك بعد شربه مذاقاً طيباً في الشفاه المتلمظة .

ولكن ، ليس باللحم وحده يحيا الإنسان . فقد جنيت من رحلاتي البحرية منفعة ، بتعلم فنون الملاحة ، وإن كنت — في الحقيقة — أثق بحدسي الخاص في كشف رائحة الأنسام ، وفك لغة الغيوم ، وتفسير دوامات المياه أكثر من ثقتي بالحسابات والأجهزة . كنت شديد الاهتمام بمراقبة طيران طيور اليابسة والبحر لأنها أدرى من الإنسان باختيار المسالك التي تلائمها وإني أفهم حكمة رجال الشمال البالغة . فهم — حسبما روي لي — يحملون معهم غرابين ليطلقوهما متى صادفتهم عثرة في إبحارهم، مدركين أن الطائرين، إن لم يعودا ، يكفي توجيه السفينة بالاتجاه الذي غابا فيه أثناء طيرانهما ، حتى يجدوا اليابسة على أميال قليلة منهم . وهذه المعرفة لدى الطير ، حملتني على دراسة مزايا بعض الحيوانات وعاداتها التي — لدهشتنا — تعيش وتتزاوج وتتكاثر في الكون .

وهكذا ، فقد علمت أن الخرتيت يمكن تهدئة ثورة غضبه ، إذا اعترضته فتاة ، وكشفت عن ثدييها لمّا تراه مقبلاً « وبهذا الشكل — يقول لناسان ايزيدورو الاشبيلي — فإن الحيوان يتخلى عن شراسته ويلقي برأسه في حضن الفتاة » .

وإني ، وإن لم أشهد أحد مسوخ الطبيعة المرعبة ، فأنا أعلم كيف أن الأفعوان وهو ملك الحيات ، يقتل أترابه بنظرته ، وحتى العصفور لا يستطيع أن يمر سالماً بقربه . وإني

أعرف أن الضب حين يهرم ويصاب بالعمى، يدخل في ثقب جدار؛ وحين تطلع الشمس يحدق باتجاهها، ويجهد أن يرى، فيسترد بعد ذلك بصره. وكذلك أدهشني السمندر الذي يعيش — كما هو معلوم — وسط النيران؛ فلا تلتهمه ولا يحس ألماً. وكذلك الأورانسكوب، وهو سمك سمي هكذا، لأن له عيناً واحدة في رأسه ينظر بها دائماً إلى السماء. وسمك اللسك الذي يستطيع بأسراب كبيرة أن يوقف سفينة، حتى يبدو أنه ضرب جذوراً في أعماق الصخر. وقد لفت انتباهي على وجه الخصوص، احدى الكائنات البحرية وهو طائر القِرلّي[1] الذي يضع عشه شتاء في مياه المحيط حيث تفقس فراخه. ويقول سان ايزودورو أيضاً إنه حينما تنقف الفراخ فإن العناصر تهدأ والرياح تسكن تكريماً من الطبيعة لهذا الطائر وفراخه.

كل يوم أجد لذة أكبر في دراسة الكون وعجائبه. ولكثرة دراستي، خامرني شعور أن العالم يفتح لي شيئاً فشيئاً، أبوابه السرية التي تخفي وراءها عجائب وأسراراً لا تزال محجوبة عن سائر البشر. كان بي عطش لمعرفة كل شيء. وكنت أغبط الملك سليمان — وهو أحكم من هامان وكالكول وداردا. فقد كان قادراً على أن يتحدث عن مختلف الأشجار، بَدْءاً من أرز لبنان حتى نبات الزوفى الذي ينبت بين الجدران. وكذلك كان يعلم طباع جميع ذوات الأربع والطيور والزواحف والأسماك الموجودة في الدنيا. وكيف لا يعلم ذلك كله، إن كان ينبئه به مبعوثوه وسفراؤه وتجاره وبحارته؟ فمن أوفير وترسيس كانت ترده حمولات الذهب؛ ومن مصر يشتري عرباته، ومن كيليكيا تأتيه الخيول. في الوقت ذاته، كانت اسطبلاته تزود بالخيول الأصيلة ملوك الحثيين وملوك آرام. أضف إلى ذلك، أن نساءه المؤابيات والأمونيات والأدوميات والصيداويات، ناهيك، عن المصريات، كن يُعلمنه بأشياء لا حصر لها، كفوائد النباتات، وسفاد الحيوانات، وحماقات مختلف الشعوب ووقاحاتها واضطراباتها وخلاعاتها وشذوذها، ما كان أسعده هذا الرجل الحكيم! هذا الرجل

(١) طائر مائي صغير الحجم، حديد البصر، سريع الاختطاف يطير ويرفرف فوق الماء.

الشجاع ! فقد كان قادراً أن يستعرض في قصره البديع حسب ألوان الأيام ومسالك رغباته ، ستمائة زوجة رئيسة وثلاثمائة عشيقة ، ناهيك عن الغريبات وعابرات السبيل ، واللاتي يأتين على غير موعد ، مثل ملكة سبأ ، حتى أنهن يدفعن لقاء ذلك (إنه حلم سري لكل رجل حقيقي) . ومع ذلك ، لدي شعور بأن أساطيل الملك سليمان ، على اتساع العالم الذي يعرفه وتنوعه، كانت تبحر فقط في مياه آمنة. لأنها إن لم تكن كذلك، لكانت حملت أنباء عن مسوخ ذكرها المسافرون والبحارة الذين اجتازوا عتبات مناطق لا تزال مجهولة . فحسبما روى شهود ، كفاءتهم ليست موضع شك ، يوجد في الشرق الأقصى عروق من الناس ليس لها أنوف . وأن وجوهها مسطحة تماماً . وبعضها الآخر له شفاه بارزة حتى أنها تغطي الوجه ، وتحمي من وهج الشمس حين النوم . وبعضها ذو أفواه ضيقة ، حتى أن الأكل يحقن فيها من خلال قصبة شوفان . وبعضها الآخر بدون ألسنة ، فتستخدم الإشارات والحركات للاتصال فيما بينها . وفي ايكسنيا يوجد البانتيون ؛ وهم قوم لهم آذان كبيرة حتى أنهم يتدثرون بها كما يتدثرون بالمعاطف اتقاء شر البرد .

وفي اثيوبيا يعيش ذوو الأقدام الكبيرة ، المدهشون بسيقانهم وسرعة جريهم . وإنهم حينما يستلقون أثناء الصيف ، تنشأ لأقدامهم ظلال عريضة وكبيرة ، حتى أنها تستخدم مظلات . في بلدان كهذه يوجد أناس يغتذون بالعطور فقط . وآخرون لهم ستة أيد . وأعجب من ذلك كله ، النساء اللاتي يلدن شيوخاً . شيوخاً يعودون إلى الصبا وينتهون بأن يصبحوا أطفالاً في سن الرشد . وليس علينا أن نمضي بعيداً ، إذا تذكرنا ما حكاه سان خيرونيمو ، وهو علامة مشهور عن اكتشاف حيوان يشبه الماعز ، كان عرض في الاسكندرية وتبيّن أنه مسيحي ممتاز ، على عكس ما يظنه الناس الذين دأبوا على نسبة هذه الكائنات إلى أساطير الوثنيين . ولئن زها بعضهم بمعرفة ليبيا ، فمن المؤكد أنهم ما زالوا يجهلون وجود بشر مخيفين يولدون بدون رؤوس ، أو أن عيونهم وأفواههم مغروزة حيث الأثداء والسرة .

ويبدو أن ذوي الأقدام المعكوسة يعيشون في ليبيا أيضاً . فباطن القدم مقلوب لديهم . ولهم ثمانية أصابع في كل منها . ولكن بخصوص هؤلاء ، فإن الآراء مختلفة . لأن الرحالة يؤكدون لنا أن هذا الشعب يظهر بتنوعات كثيرة : فمنهم بشر لهم رؤوس كلاب ، أو عين واحدة في جباههم . ومنهم من يسكن الكهوف ، ومنهم رجال نمال ، أو رجال بلا رؤوس ، ناهيك عن رجال بوجهين كالإله (جانو) لدى الأقدمين .

أما من جهتي ، فلا أعتقد أن تلك كانت هيئة ذوي الأقدام المعكوسة . إني مقتنع ــ وإن كان هذا الرأي خاص لي ــ أنهم من طبيعة جد مختلفة : أعني ببساطة ، تلك الطبيعة التي تكلم عنها سان أغسطين ، وإن نفى وجودها الأسقف (ايبونا) لما اضطر لإبداء رأيه حولها ، لأن الكثيرين كانوا يتحدثون عنها . ولكن ، إذا كان الخفاش ينام معلقاً من أرجله ، وإذا كان كثير من الحشرات يهيم بشكل جد طبيعي في سماء هذه الغرفة ، غرفة المومسات ، حيث ينشغل فكري الآن ، بينما ذهبت المرأة لتجلب الخمر من الحانة القريبة ؛ إذاً ، يمكن أن توجد كائنات بشرية قادرة على السير ورأسها إلى الأسفل . وليقل ما يقول مؤلف (الابسبيريدون) المحترم؛ إذ يوجد بلهوانيون يقضون نصف حياتهم سائرين على أيديهم ، دون أن تصدع السوائل الدموية أصداغهم . وقد حكي لي أيضاً أن قديسين هنوداً يقفون على مرافقهم ، وأنهم يجعلون أجسامهم مشدودة وساكنة ، ويقضون عدة أشهر وسيقانهم مرفوعة إلى الأعلى . وهو أمر أقل غرابة من بقاء ذي النون ثلاثة أيام وثلاث ليال في جوف الحوت ، تتوج رأسه الطحالب ويتنفّس كأنه في جو طبيعي . إننا ننكر أشياء كثيرة لأن ذهننا القاصر يدفعنا إلى الاعتقاد بأنها مستحيلة . ولكنني كلما ازددت قراءة وعلماً ، ازددت معرفة بأن ما يعتبر مستحيلاً في الذهن ، يصبح ممكناً في الواقع . وللتأكد من ذلك ، يكفي أن نقرأ حكايات وقصص تجار نشيطين وبحارة كبار ، بحارة كبار بوجه خاص ، مثل بيتياس المرسيلي الذي أتقن فنون الفينيقيين في الملاحة ، وانطلق بسفينته باتجاه الشمال ، وأوغل في هذا الاتجاه تدفعه رغبة لا ترتوي للاكتشاف ، حتى بلغ مكاناً يتصلب فيه البحر كثلج قمم الجبال . ولكن ، أحسب أني لما أقرأ إلا القليل . فعليّ أن

أحصل على مزيد من الكتب ، التي تهتم بالأسفار على وجه الخصوص ويقال لي أن مأساة لسينيكا تتحدث عن جاسون الذي أبحر إلى الشرق من بونتو لاكسينو ، على رأس ملاحية فعثر على /أرض كولكيدا / ذات الجزات الذهبية . فيجب أن أعرف مأساة سينيكا هذه التي تحوي معلومات ذات فوائد جمة ، كما هو الحال في كل ما كتبه الأقدمون .

ترن الأبواق صاهلة ، خوّارة ممطوطة النغم ، وهي تسّاقط من أعلى صواري السفينة التي تمخر ببطء ، وسط جزيرة من الضباب الكثيف حتى لا تبين مقدمة السفينة إذا نُظر إليها من مؤخرتها . والبحر حولها يبدو بحيرة ذات مياه رمادية ؛ أمواجها الهادئة تنتهي بقمم ناعمة الحد دون أن ترغو بالزبد . أطلق الحارس إنذاره ، ولكن أحداً لم يجبه . ثم عاد ليسأل . ولكن السؤال ضاع في صمت يهدهده ضباب يطبق عليّ حتى لا أرى أبعد من عشرين ذراعاً . ويتركني وحيداً ، وحيداً بين أشباح ملاحين ، أنا والانتظار المتوتر . لأن الانفعال بنبأ الوصول ، والقلق لرؤية المكان ، أبقياني على متن السفينة منذ أن دقت الساعة السادسة . ولئن جبت قدراً كافياً من البحار حتى الآن ، فإنني ، اليوم ، خارج كل طريق ، في رحلة ما تزال تحمل رائحة البطولة .

ـــ ولا يمكن قول الشيء ذاته ، إذا ما نظرنا إلى رحلات البحر المتوسط القصيرة . لقد عيل صبري لرؤية الأرض العجيبة . هي جد عجيبة حتى يقال إنها تحدد خط نهاية الأرض . فمنذ أن غادرنا بريستول لقينا ريحاً طيبة وبحراً رخياً . ولم يبد أنها ستتكرر معي محنة رأس ابيسنتي القاسية ، حيث أنقذت برحمة من الله ، وأنا أمسك بمجذاف ، أثناء احتراق السفينة ثم غرقها المروّع .

في /غولواي / التقينا بالمعلم جاكوب ، وهو خبير لا يضاهى في سلوك طرق خطرة ، قاد فيها سفن دي سبينولا ودي نيغرو ، المحملة بالخشب والخمور ، لأن الجزيرة التي تراءت لنا للتو ، تفتقر كما يبدو للغابات والكروم ، فكان الخشب والخمر مادتين تحظيان بأكبر تقدير لدى الناس ها هنا . الخشب ، لإشادة بيوتهم ؛ والخمر لإنعاش نفوسهم في شتاء لا نهاية له ، يبقيهم فيه معزولين عن العالم ، محيط متصلب ، وأمواج تحوّلت إلى منحوتات جليدية ، وجبال تلعب بها الرياح ، وهي الجبال التي رآها بيتياس المرسيلي . على الأقل ، هذا ما روي لي . وإن كان المعلم جاكوب يؤكد وهو عليم خبير بهذه السماوات ، أن البحر لن يتجمد هذا العام ـــ ويحدث ذلك مرات عديدة ـــ لأن بعض التيارات القادمة من الغرب من عادتها أن تلطف قساوة هذا الفصل .

المعلم جاكوب إنسان مرح ولطيف المعشر ، استقر في جزيرة (غولواي /حيث اقترن بايكوسية جميلة، وإن كانت نمشاء كبيرة الثديين، تشغلها قليلاً مسألة نقاوة الدم التي تسمم هذه الأيام ممالك قشتالة . ففي هذه الأخيرة ، يشاع منذ زمن أن محاكم التفتيش ستبدأ قريباً (الشهر القادم، ذات يوم من هذه الأيام ، لا يُعلم متى) بإثارة وتسجيل ماضي المسيحيين الجدد وسلالاتهم ونسبهم . وأنه لن يُكتفى بإعلان الإيمان ، وإنما سيؤخذ كل مستجد بمدى تقيده بالعبادات وبأثر رجعي . وهذا الأمر يترك الظنين بالغش أو الرياء والتراخي والزندقة ، عرضة إلى سعاية كل دائن أو كل طامع بأملاك الغير وكل عدو واش . أو كل حائكة دسائس حسودة ، مهتمة بصرف الأنظار عن تجارتها الخاصة بالطيوب والأدوية من أجل الحب . ولكن هناك أكثر من ذلك . إنها أغنية تجري من فم إلى فم ، ونشأت حيث لا يعلم ، منذرة بأيام مرة . تلك التي قرأتها تقول : « ألا ، يا يهود ، هيّا إلى الرحيل ... » ربما تنشد من أجل السخرية ، ولكنها سخرية ، لقسوتها ، يمكن أن تكون إعلاناً باقتراب هجرة جديدة . وهي هجرة لا يرضاها الله ، لأن فائضاً من الثروة يأتي من الأمور اليهودية . ولأن « الملائكة » كبارَ المموّلين ، انتقلوا إلى الحظيرة الملكية بفضل القروض ، وآلاف آلاف من النقود المسكوكة بحلقة الختان . لذلك كله ، فكر المعلم جاكوب أن « أمراً حذراً يساوي اثنين » ، وأن حياة المهجر قاسية . لذلك اتخذ لنفسه مسكناً في غولواي ، تحت ظل شركة دي سبينولا ودي نيغرو ، التي تخزن بضائعها قرب فتاته الشقراء النمشاء ، ذات الثديين ، التي جعلت حياته سهلة ، وإن كانت تفوح رائحة عرق إبطها الأشقر بإفراط . وفوق ذلك ، هو يعرف أن شيئاً ما يجعل بقاءه لا غنى عنه ، وهو قدرته العجيبة على تعلم لغات بأيام معدودات . فهو يتكلم البرتغالية كما البروفنسية ؛ ويعرف لغة أهالي جنوة أو بيكارديا ؛ ويفهم أيضاً الانكليزية بلهجة لندن ؛ وكذلك عامية بريتانيا ؛ حتى أنه يعرف لغة خشنة نافرة بالأحرف الصوتية، وعرة وبحّاء — «للعطس من الداخل» — كما يقول — منتشرة في هذه الجزيرة التي نتجه نحوها . جزيرة وسط ضباب يتلوّن الآن بلون غريب ، لون طين الفخّار ؛ جزيرة أخذت الآن ترتسم في الأفق ، هذا اليوم ، بعيد المغيب . لقد بلغنا نهاية الأرض .

لا أدري لماذا كان ينظر إليّ المعلم جاكوب بسخرية ، كل مرة قلت فيها : « نهاية الأرض » . وها نحن الآن على اليابسة ، في بيت مشاد من ألواح صنوبر الوديان الجيد ، يُطاف علينا بزجاجة خمر مصفّى، وقد علا بفعل المشروب ، صوت المعلم جاكوب ، وهو يسخر من اعتقاد أي كان بأنه بلغ هنا تخوم الأرض المعروفة . ويضيف : إنه حتى الأطفال الذين يلبسون صداري ويضعون قبعات جلدية ويسيرون عبر شوارع هذا الميناء الذي لن أوّفق إلى لفظ اسمه أبداً ، هؤلاء قد يسخرون مني لو قلت إن الأرض التي نطؤها هي نهاية أوحد شيء ما . ويقول لي ، وهو يقودني من دهشة إلى دهشة ، إن رجال الشمال هؤلاء (يبدو أنهم لهذا السبب يسمون نورمان) أخذوا قبل أن نبدأ نحن بالخروج من مسقط رؤوسنا يبحثون حثيثاً عن خطوط ملاحية جديدة . فوصلوا عبر الشرق إلى مناطق الروس ، وهم يقودون مراكبهم وسفنهم الخفيفة عبر أنهار الجنوب بالغين ممالك ياجوج وماجوج ، وسلطنات شبه الجزيرة العربية ، التي جلبوا منها نقوداً تعرض هنا بفخر كأنها كنوز عثروا عليها في شبه جزيرة نائية . وقد أطلعني المعلم جاكوب ، ليبرهن لي أنه لا يكذب ، على دنانير ودراهم جيء بها من مناطق طافت فيها قبائل أجداده الأبعدين ، ويحفظها تمائم في حقيبته البحرية ، وإن كان دينه ، فيما أعلم جيداً ، يحظر عليه ممارسة أي شكل من أشكال التطير .

يتناول المعلم جرعة طويلة من الخمر المندلق من الزجاجة إلى حلقه ، ويقلب عينيه باتجاه الغرب . ويقول لي إنه منذ سنين غابرة تتجاوز عدة قرون ، انطلق من هنا رجل أشقر حكم عليه بالنفي لجريمة قتل ، وأبحر عبر خطوط غير مطروقة ، قادته إلى أرض هائلة سماها « الأرض الخضراء » ، لشدة خضرة الأشجار فيها ونضرتها . وقلت للمعلم جاكوب : « هذا لا يمكن أن يكون » . معتمداً على رأي كبار رسامي الخرائط المعاصرين ، الجاهلين بهذه الأرض الخضراء التي لم يذكرها خيرة ملاحينا . وينظر إليّ المعلم جاكوب ساخراً ، ويعلمني أنه منذ ما يزيدُ على مائتي عام ، كان يوجد في الأرض الخضراء مائة وتسعون مزرعة ، وديران للرهبان وحتى كنيستان ، واحدة منها توازي في كبرها أعظم ما بناه النورمان . ولكنّ

هذا ليس كل شيء . فهؤلاء الرجال الضائعون في الضباب ، المبحرون بسفنهم في ليالٍ بدون فجر عبر عوالم الشمال ، هؤلاء لابسو الجلود ، ومحطمو الضباب على إيقاع المجاذيف ، كانوا أبحروا بعيداً باتجاه الغرب ، وأوغلوا في هذا الاتجاه مكتشفين جزراً وأراضي مجهولة مذكورة في كتيّب أجهله ، اسمه /الاكتشاف السعيد / ، الذي يبدو أن المعلم جاكوب رجع إليه كثيراً . ولكنّ ذلك أيضاً ، ليس نهاية المطاف . فإن أحد أبناء البحار الأشقر المسمى /ليف ذو الحظ السعيد / ظل يبحر باتجاه الغرب دائماً ، ويقطع شأواً بعيداً في هذا الاتجاه ، حتى بلغ أرضاً شاسعة أطلق عليها اسم /أرض الغابات / ، يكثر فيها السلمون ، وتنبت فيها الأعناب والتوت ، وأشجارها ذات جذوع هائلة ، وعشبها لا يذوي شتاء ، وهذه أعجوبة لا تصدق في تلك المناطق ؛ أضف إلى ذلك ، أن ساحلها ليس فيه تكسرات وليس ليّناً ولا منخوراً بكهوف يهدر فيها المحيط ، ويعيش فيها التنين الرهيب ... وقد تغلغل ليف ذو الحظ السعيد في ذلك الفردوس المجهول حيث تاه بحّار ألماني يدعى تيرك . انقضت بضعة أيام ، ولما أيقن رفاقه أنه لن يعود أبداً أو أن وحشاً مجهولاً قد التهمه ، فإذا بتيرك يظهر وهو أشد سكراً من صيادي التونة ، معلناً أنه عثر على أشجار كرمة برية عظيمة ، وأن أعنابها ، إذا ما تخمرت أعطت خمراً هو من الجودة بمكان ، يكفي لتعرفوها ، أن تنظروا إلى ما أنا به . فلا ينبسنّ أحد بكلمة ، ودعوني أنم ؛ إنها « أرض الأحلام » ، وإني لن أبرحها أبداً . ولا يقتربنّ مني أحد ، لأني أحطم رأسه كما حطم الملك بيوفولف التنّين ذا الأنياب السامة . أنا الملك ، هنا ، ومن يتحدني ... ثم ينهار ويتقيأ ويصيح : إن النورمان كلهم أولاد قحبة . ولكن ، بعد الأرض الخضراء صار للنورمان اليوم ، أرض الخمور : ويضيف المعلم جاكوب : « إن كنت تعتقد أني كاذب ، فابحث عن كتابات آدم دو بريمن وأوديريك فيتال » .

ولكني لا أعلم أين أجد هذه النصوص . فضلاً عن أنها مكتوبة ، بالتأكيد ، بلغة أجهلها . وإن ما أريده هو أن يقص عليّ ويُروى لي قصص تنتشر في هذه الجزيرة التي تندفع من أحشاء صخورها السود ينابيع مياه حارة . وهي قصص تدور حول أشياء قديمة لا يزال يغنيها ويعزفها على الهارْب أناس ذوو ذاكرة غنية يُسمَّون (الإيسكالديين) . ويحكي لي

صديقي الزنغ أن الناس لما علموا بأرض الخمور ، سرعان ما انطلقوا إليها في رحلة جديدة ضمت مئة وستين رجلاً بقيادة ثور بالدو وهو ابن آخر للبحار الأشقر المنفي ، وصهره ثوربالدو أيضاً ، زوج فريديس التي تحمل سيفاً في زنارها ، وتضع سكيناً بين ثدييها . ومن جديد كان السلمون الوافر ، والخمر اللاذع الذي يسكر بيسر ؛ وكانت الأعشاب التي لا تذوي أبداً وأشجار الأرز ، حتى اكتشفوا في الداخل سهولاً شاسعة من القمح البرّي . كل شيء كان يبشر بالسعادة لما ظهر رجال صغار يبحرون بقوارب يبدو أنها مصنوعة من جلود بعض الحيوانات البرية . وهم ذوو بشرة نحاسية ، ووجنات بارزة وعيون مائلة كاللوز وشعور كشعور الخيل ، ألفاهم رجال الشمال الضخام والأشداء قبيحين ومشوّهين . في البداية ، أقاموا معهم تجارة طيبة بعقد مقايضات رابحة ، فيحصلون على جلود ثمينة لقاء أي شيء يبدو جديداً في أعين هؤلاء الناس الذين يُفهم عليهم بالإشارة : دبابيس شعر رخيصة الثمن ، حبات عنبر ، عقود من الخرز ، ولكن بوجه الخصوص أجواخ حمر . يبدو أنهم مشغوفون للغاية باللون الأحمر الذي يعجب به النورمان أيضاً أيما إعجاب .

كل شيء كان يسير على ما يرام ، حتى اليوم الذي فر فيه ثور من الاسطبل في إحدى السفن وأخذ يخور في الشاطىء . لا يُعرف ماذا حدث لهؤلاء القوم ؛ وكأنما أصابهم مَسٌّ من جنون له علاقة ، حسب دينهم البربري ، بوقوع شرٌّ ما . فشرعوا يفرّون . ولكنهم عادوا بعدئذ في قطيع هادر ، يدقون الأرض بأقدامهم ، ويمشون خفافاً ، ويقذفون الحجارة ويمطرون العمالقة الشقر بعاصفة من الحصى والأتربة . وقد تبيّن للنورمان أن بلطاتهم وسيوفهم لا تجدي نفعاً في حرب كهذه . كذلك لم ينفع في شيء إبراز فريديس ثدييها لإثارة حياء من يحاولون الاحتماء بالسفن ، ويفتقرون إلى الخصي . ولكنها التقطت سيف أحد المحاربين الصرعى ، وانقضّت على مطلقي الحجارة الذين ذعروا من صيحات الأنثى المخيفة ، فولّوا الأدبار مرة أخرى . ولكن الفيكينغ ــ يسمون هكذا أيضاً ــ عقدوا تلك الليلة مجلساً واتفقوا على العودة إلى هذه الجزيرة بعد تجهيز حملة أكثر عدداً وعدة . ولكن المشروع أثار قليلاً من الحماس في نفوس الناس ، الذين أخذوا ، عاماً بعد عام ، يبحرون في مياه آمنة ، ويقودون سفنهم حتى باريس وصقلية والقسطنطينية . واليوم لا يوجد من يجرؤ على التعرض

لمخاطر مغامرة بالإقامة في عالم ، يثير فيه أعداء معروفون ، كالإنسان والحيوان ، خوفاً أقل مما تثيره الأسرار التي تنطوي عليها الجبال الوعرة ، والكهوف التي قد تكون مأوى للوحوش والمفازات المقفرة الشاسعة ، والصخور حيث يُسمع ليلاً عويل ونحيب وصراخ تؤكد وجود /جنيات أرض / . أرض جد واسعة ، وجد ممتدة إلى الجنوب حتى أنها تحتاج إلى آلاف وآلاف من الرجال والنساء لارتيادها وإعمارها . لم يعد أحد ، إذاً ، إلى أرض الغرب الكبرى ، وتلاشت صور فِنلنديا بعيداً كالسراب ، وبقيت منها ذكرى عجيبة في أفواه /الإيسكالديين/ . بينما ظل وجودها الحقيقي مثبتاً في كتاب آدم بريمن الكبير مؤرخ أساقفة هامبورغ ، والمكلّف بحمل صليب المسيح إلى أرض الشمال المعروفة أو في سبيلها لتعرف ، حيث كلمة الأناجيل لم تدوٍّ فيها حتى اليوم . وإن الحاجة ماسة لتدوي فيها « الكلمة » . لأنه يوجد ناس ، ناس كثر ، يجهلون أن أحداً قد مات من أجلهم ؛ ناس آخرون ، أمثال أولئك الذين يركبون عربات تجرها الكلاب ، وهم ينطلقون إلى بلاد الليل الدائم .

وأسأل المعلم جاكوب عن اسماء هذه المخلوقات المستسلمة حتماً إلى وثنية بائسة ، وكان لهم الجرأة على طرد العمالقة الشقر من أراضيهم . وأجابني البحار : « إني أجهل تحت أية كلمة يصنفون أنفسهم . ولكن أُطلق عليهم في لغة مكتشفيهم سكْريلنْغر . وهذا يعني — ماذا نقول نحن ؟ — شيئاً مثل المشوهين ، الممسوخين ، الكسحاء . أجل هذا معناها : كسحاء . لأن النورمان ، وهذا واضح ، أشداء وذوو مظهر حسن . بينما هؤلاء الناس ، لضآلة أجسامهم ، وتسطح أنوفهم ، وقصر سيقانهم ، بدوا لهم مشوهين . سكْريلنْغر ، تعني كسحاء ، وأنا أفضل : أقزام . وصاح المعلم جاكوب : وجدتها ! وجدتها ! أقزام ! نعم الكلمة التي وجدتها ! » .

أعود متأخراً إلى حجرتي في مستودع دي سبينولا ودي نيغرو ، الذي تسطع منه في هذي الأرض النائية ، رائحة راتنج قشتالة ، نظراً لأكداس الخشب فيه ، ولكثرة الدنان المعدّة ليعبأ فيها شراب يسمّى : بيورّ. ولكنني لا أستطيع النوم . إني أفكر بهؤلاء البحارة

التائهين في الجليد والضباب ، بسفن كالأشباح ، يعلو مقدمتها رأس تنين ؛ وهم يرون جبالاً خضراً تطلع من آفاق باهتة ، شاحبة ، ويصطدمون بجذوع طافية ، ويشمون أنساماً محملة بروائح جديدة ، ويلتقطون أوراقاً ذات أشكالٍ تختلف عما هو معروف ، ويعثرون على شجيرات لفّاح عابرة نمت في خلجان لم تُر أبداً . أرى رجال الضباب هؤلاء الذين لا يكادون يبدون بشراً وسط دخان الضباب ، يستعلمون عن طعم التيارات ، ويذوقون درجة ملوحة الزبد ويفكّون لغة الأمواج ، ويتنبهون إلى طيران طيور غير متوقعة ، ويمرون ببقع زفتٍ تلهو بها الطحالب . فكل ما تعلمته خلال أسفاري ، وكل تصور لديّ عن عالم معروف أو عالم متخيل قد انهار الآن . أصحيح أننا لو أبحرنا باتجاه الغرب ، نعثر على أرض يابسة ، شاسعة الأبعاد ، يسكنها أقزام ، وتنبسط إلى الجنوب كأن لا نهاية لها ؟ وأقول : يمكن أن تمتد حتى الأراضي الحارّة ، ربما بموازاة مالاغات . لأن هؤلاء النورمان وجدوا السلمون ووجدوا الكروم . والسلمون ينتهي حيث يبدأ العنب . (إذا استثنينا جبال البيرنيه ، وهو أمر نادر جداً ، ندرة كل ما ينمو في بلاد الباسك) . والكرمة تهبط حتى أراضي الأندلس ، وحتى الجزر اليونانية التي أعرفها ، وحتى مديراس والالتقاء بأراضي العرب ، وإن كان هؤلاء لا يعصرون منها خمراً لأنه محظور بنص القرآن . ولكن ، حسب علمي ، حيث ينتهي العنب يبدأ نخيل البلح . وربما نجد النخيل أبعد كثيراً إلى الجنوب ، جنوبي الأعناب .

ولما صار الأمر هكذا ، فقد اشتبهت عليّ كل الخرائط المعروفة وانقلبت ، وتبدّلت ، وامّحت معالمها . الأفضل أن أنسى الخرائط ، لأني صرت أراها الآن ، ممجوجة ومتعجرفة بتباهيها المزعوم أنها تحيط بكل شيء . أولى بي أن أعود إلى الشعراء الذين ينطقون أحياناً بنبوءات من خلال أشعارهم الموزونة . وفتحت كتاب /مآسي سينيكا / ، الذي يرافقني في هذه الرحلة . وتوقفت عند مأساة ميديا التي أثارت إعجابي الكبير لكثرة ما حكت عن بونتو ، والإسّيت . وعن الطرق والشموس والنجوم وعن كوكبة الجدي والدب التي استحمت في بحار محظورة . وتوقفت عند الفقرة النهائية الرائعة التي تغني الجوقة فيها أمجاد جاسون :

« ستأتي في سني الكون الأخيرة ،
أزمنة يُخلخل فيها المحيط
الروابط بين الأشياء ؛
وتُفتح أرضٌ جديدة ؛ وإنّ بحاراً جديداً
كالذي كان دليلاً لجاسون يدعى تيفي
سيكشف عالماً جديداً ، وحينئذ لن تكون
تولي هي نهاية الأرض » .

في تلك الليلة اهتزت في ذهني أوتار هارْب الإيسكالدبين ، شعراء الملاحم ، كما كانت تهتز في الريح أوتار ذلك الهارْب العالي الذي كان سفينة الأرغوناوت[1] .

---

(١) هم البحارة الذين رافقوا جاسون في رحلته ، وقادوا السفينة آرغو

أعيش كما لو كنت مخدراً بما سمعته من فم المعلم جاكوب . تعود إلى ذهني وتدور فيه أدق التفاصيل حول ذلك الكشف العجيب الذي قام به رجال الشمال . وقد وصلت إلينا قصته عبر أناشيد ملحمية (ويسمون هنا /ساغا / أناشيدهم الملحمية) تحفظ لنا مثل أنشودة أولاد لارا ، والميّوسيد ، وقائع كثيرة وصادقة ، خلف حذلقة من أقوال حماسية ، أو بلاغة دينية موشاة .

وإن ما يشغل بالي هو مسألة الأبعاد . فلا مناص من أن يبدو للملاحين طريق الذهاب طويلاً ، كما يبدو لنا دائماً كل طريق لم نطرقه من قبل ، فلا نعرف متى نقطعه . ولكن لا ينبغي ، في الحقيقة ، أن تكون أرض الجليد (ايسلندا ، كما يُقال في لغتهم ، وهي تيلي أو تولي لدى القدماء) بعيدة عن تلك الأرض الأخرى ، أرض السلمون والأعناب التي طردهم منها حفنة من الأقزام دون سيوف ودون سهام ، وهو أمر يكاد لا يصدق . وأخيراً ، فإن أناشيد الملاحم في جزيرتهم تحكي أن /ليف ذا الحظ السعيد / انطلق ذات مرة من نيداروس إلى فنلنديا دون أن يتوقّف في أي مكان . وأنّ بحاراً آخر عاد من فنلنديا إلى إيسلندا في رحلة مباشرة وهو يبحر في خط مستقيم . من المؤكد أن سفنهم ذات صنع ممتاز ، وأنها خفيفة ورشيقة وذات مَدَىً جيد ، ولها ربابنة قديرون . ولكن ، من الصحيح أيضاً ، أنها ضيقة وذات سعة ضئيلة ؛ فإن كان عليهم أن يقوموا بسفر طويل ، لكان بحارتها افتقروا سريعاً إلى ما يسد حاجتهم إلى الطعام الضروري . وهكذا ، ينبغي أن تكون فنلنديا قريبة ، قريبة إلى حدٍّ كاف . وإنها لمعجزة ألا يكون آخرون قد بلغوها في إثر رجال الشمال . ولئن أُغفل ما صرت أعلمه الآن ، فربما لأن البحارة القلائل من جنوة ولشبونة واشبيلية القادمين إلى ايسلندا ، فضلاً عن أنهم يعتبرون هذه الأخيرة ، هي فعلاً نهاية تخوم الأرض ، فإنهم كانوا يجهلون لغة (العطس من الداخل) اللغة التي تشبه همهمة الخنزير والتي يتقنها المعلم جاكوب . أو لأن الحظ لم يحالفهم كما حالفني بسماع قصصه . لأن المعلم جاكوب ، للحقيقة ، قلما يألف الشرب مع حثالة المرافىء الدنيئة والفظة التي ترد ، عادة ، على سفننا . أما بالنسبة لصداقتنا القصيرة والودية مع ذلك ، فذلك يعود إلى زمالة ، لنقل ، إنها من الزنار فما دون .

والواقع الآن ، هو أن السنين تمر أمام ناظري سريعة وطافحة . إني أعلم علماً يقيناً بوجود أرض في الغرب ، كبيرة ومعمورة وغنية . وأعلم أني بالإبحار نحو الغرب ، فإني أبحر بأمان . ولكن ، إن علم أني واثق من سلامة الإبحار نحو الغرب ، لما علمته في أرض الجليد ، يتضاءل حينئذ التقدير الذي يستحقه مشروعي . وأكثر من كل ذلك : فلا يعدم وجود نديم أو محظي أو رجل ثقة ، أو ملاح ماهر عند حاكم من الحكام فيحصل على السفن بدلاً مني ، ويخطف من يدي مجد الاكتشاف الذي أراه أغلى من أي شرف آخر . إن طموحي يجب أن يقترن بالسر . ومنذ الآن يجب أن يُكم فم الحقيقة . ولكم فمها ، فإني أحيط نفسي بشبكة من الأكاذيب لا تفك إلا بالاعتراف الشامل فقط ، حيث أكشف للفرنسيسكاني المذهول الذي سيصغي إليّ : كيف كان ذهني يحترق وهو يفكر باستمرار بهذا الأمر عينه ، وكيف كنت أرى نفسي محاصراً ليل نهار بالفكرة ذاتها ؛ فما كنت أفتح كتاباً دون أن أحاول أن أجد في ثناياه شيئاً من الشعر أو أمراً ينبىء برسالتي ؛ وكيف كنت أبحث عن بشائر أتنبأ بها من خلال تفسير الأحلام ، حتى صرت من أجل ذلك ، أرجع إلى نصوص خوسيه الدجال ، ومفاتيح ألف باء لدانيال الكذاب ، وإلى كتيّب أرثيميدور الإيفيسي ؛ وكيف كنت أحيا محموماً مضطرباً ، راسماً مخططات خيالية إلى هذا الحد أو ذاك ، وما زلت كذلك حتى أصبحت كذاباً كبيراً وجريئاً . هذي هي الحقيقة . سأقول ، أجل ، سأقول إني حين أنظر إلى نفسي في هذه الساعة الأخيرة ، أجد آخرين أقل كذباً ، أقل كذباً مني بمدى بعيد قد أطرقوا خجلاً من أكذوباتهم المزيلة أمام قوس محكمة التفتيش . فليست بذات شأن أكاذيب من يضلل فتى عاشقاً ليبيعه أكسيراً للحب ؛ أو من ينصح بحيلة من حيل السحر البسيط للحصول على أمور غير نزيهة ؛ أو من يصف علاجات من دهن الدب أو الأفعى أو القنفذ أو غبار المقابر ؛ أو شراباً من قشور حشيشة فزاعة الذئب أو لسان العصفور مما يحفل به كتاب حكمة سليمان .

وليست بذات شأن دسائس القوادين ، ولا من يطلب عون أحد أمراء الظلام الغارقين في أعمال أهم حتى لا يلبوا مثل هذه الحماقات . كل هذه الأمور ليست بذات شأن أو هي

ذات شأن ضئيل إذا قيست بأكاذيبي ودسائسي التي عملت سنوات وسنوات لأحظى برعاية ملوك الأرض ، مخفياً الحقيقة الحقيقية ، وراء حقائق مزعومة ، مدعماً أقوالي باستشهادات منتقاة بمهارة من الكتاب المقدس ، دون أن أتخلى أبداً عن أن أختم الفقرات بخاتمة برّاقة من أشعار سينيكا التنبئية :

ستأتي في سني الكون الأخيرة
أزمنة يخلخل فيها المحيط
الروابط بين الأشياء .

وهكذا صرت أسعى من بلاط إلى بلاط ، دون أن أبالي لحساب من أبحر . لأنّ ما كان يهمني هو سفن للإبحار ، أولتأتِ من حيث أتت . سفن متينة ذات سعة كبيرة وربابنة مجرّبين ورجال أشداء ؛ ولا أبالي من أجل ذلك ، إن كانوا من خريجي السجون . ولكنني لا أريد قساً . ويكفيني أن أصل إلى (هناك) ، وهذا إنجاز عظيم ، دون أن أشغل نفسي بالتزامات دينية ولاهوتية ، ودون أن أعرف إن كان أولئك الأقزام يدينون بدين بربري يصعب انتزاعهم منه إلا بجهود علماء وخبراء في وعظ الوثنيين وتحويلهم عن وثنيتهم .

أما بالنسبة للمجد الذي قد ينجم عن مغامرتي ، فإني أحس أن مباهاة هذه المملكة أو تلك به ، يغمرني أيضاً بشرف شخصي ، ويجعلني شريكاً كامل المشاركة في الفوائد المحققة . لهذا السبب سأقيم مسرح عجائب كذلك الذي يطوف به المهرجون في الأسواق الايطالية . سأقيم مسرحي أمام الدوقيات وذوي الجلالات والممولين والرهبان والأغنياء ، ورجال الدين والمصارف وأمام أعيان هذا البلد وأعيان ذاك . وأرفع ستارة من الكلمات ليظهر للتوّ في عرض برّاق الكرنفال الكبير للذهب ، والماس ، واللآلىء ، وعلى وجه الخصوص أنواع التوابل : فالسيدة قرفة والسيدة جوزة الطيب ، والسيد فلفل والسيد حب الهال ، تدخل يداً بيد مع زفير وفيروز وزمرد والسيدة فضة يتبعها السيد زنجبيل والسيد كبش القرنفل على إيقاع نشيد بلون الزعفران وعطور مالابار حيث ترن بألحان موسيقية أسماء سيبانغو ، كاتاي ، وكولكيداي الذهبية وأراضي الهند كلها وهي متنوعة كما يعلم . أراض عديدة ، متناثرة ،

مجتمعة ، جميلة ومترامية الأطراف . ولكنها مقبلة علينا ، راغبة بمد أياديها لنا وبالخضوع لقوانيننا .هي قريبة ، أقرب مما نظن ، وإن كانت لا تزال تبدو بعيدة . نستطيع اليوم بلوغها بطريق سهل، إذا أبحرنا بالاتجاه الأيسر للخرائط معرضين عن طريق الجانب الأيمن الخطر الموبوء في هذه الأزمنة ، بقراصنة مسلمين وصعاليك بحر يطوفون بقواربهم من الأسل . في حين أننا بالسعي وراء هذه الأرض من جهة الغرب ، لا تطالنا قوانين السلب المهينة ، ولا تغيير الموازين ودمغها في الأراضي التي يحكمها السلطان التركي ... جانب الخرائط الأيسر ، الجانب الأيمن.. خرائط كنت أنشرها وأبرزها وأحركها بمهارة حاوٍ ودقة صائغ أو أتكلم بلهجة درامية ، فأرفعها كأنني نبي مستشهداً بأشعيا ، مستذكراً المزامير ، مثيراً أموراً مقدسة ، حاسراً عن ذراعي ، مبيناً ما هو خافٍ ، مشيراً إلى ما هو مجهول ؛ ألوّح بالثروة وأروز كنوزاً غزيرة غزارة اللآلىء الخيالية التي تبدو أنها تفِرُّ من بين أصابعي وتسقط على الأرض ، ثم تطفر ، بلمعانات شرقية ، فوق قطيفة السجاد . كان نبلاء الناس وحكماؤهم يصفقون لي ، ويحتفون بآرائي الكونية ، ويحلمون لبرهة بوعود صائغ الذهب المتنبىء ، والسيميائي دون حوجلات . ولكنهم في نهاية المطاف ، تركوني في مرفأ — يعني في أبواب — دون سفن ودون آمال ... وهكذا بقيت أطوف أعواماً بعد أعوام بمسرحي الكرنفالي دون أن تتجسد كلمة سينيكا في جسد (مَنْ) يرقد الآن ها هنا عرقان ، مستضعفاً ، مقهور الجسم منتظراً الفرنسيسكاني ليعترف له بكل شيء . أجل ! كل شيء .

وسأقول له : إني بانتظار تحقق رغبتي ، قمت بأغرب صفقة عرفتها في حياتي : (وكانت في النهاية أسوأ صفقة لي) . فلمّا كنت في لشبونة فكرت كما فكر الشاعر : « العالم يعمل من أجل غايتين اثنتين . الأولى : لإقامة الأود ، والثانية للإقتران بأنثى تجلب اللذة » . فلقيت فيليبا وغازلتها كما عُهد بسيد محترم مثلي . وهي وإن كانت ذات وجه رائق ، وجسم نضر ، أرملة رقيقة الحال لها ابنة تعيش معها . ولكني لم أهتم للأمر ، متذكراً أنها من نسب رفيع . وذهبنا إلى مذبح الكنيسة حيث تعارفنا ذات يوم كانت تؤدي فيه واجباتها الدينية . وعلى كل حال ، فقد فكرت أنها ، أولاً ، امرأة تجلب اللذة ، وثانياً تمت بصلة قربى

إلى آل برْغَنْتَس ، وهذا الأمر يفتح لي الباب لدخول البلاط البرتغالي وأقيم فيه مسرحي العجائبي . (وكانت تفتح لي كثير من الحاجات بهذا الزواج) . ولكن ها هي سنوات الانتظار الممض قد بدأت . لأن كل شيء كان ، لا محالة ، انتظاراً خلال السنوات التالية التي سأقضيها : أولاً في جزيرة بويرتوسانتو ، حيث ذهبت للعيش وزوجي فيليبا . ولئن سعدت بوجود من كانت ـــ وأعود إلى قول الشاعر ـــ (ملتهبة الحب ، موطأة الفراش ، هانئاً وضحوك السن) فإني كنت أحس بالاضطرام لنفاد صبري وأنا أرى تفشي الإشارات التي تدفعني للتفكير طويلاً بما كان يختبيء وراء أفق أتأمله كل يوم .

فعلى شواطىء هذه الجزيرة ، كان البحر يلفظ جذو ع أشجار ضخمة غير معروفة في الأراضي الأوروبية ، ونباتات غريبة الأشكال ذات أوراق ثلاثية كأنها ساقطة من أحد النجوم . وحدثني بعضهم عن خشبة قذفت بها الأمواج ، وهي خشبة محفورة بطريقة عجيبة ، عملها ناس يجهلون أدواتنا الحديدية ، فاستخدموا النار للحصول على ما نحصل باستخدام المنشار والمسجح . وقد تحدث الناس أيضاً قبل سنوات عديدة ، عن جثتين عثر عليهما ، « لهما وجهان جد عريضين » وهيئة غريبة . وقد بدا لي هذا الحدث الأخير غير جدير بالتصديق . لأنه من الصعب الاعتقاد أن هذين الجسدين قد وصلا من ذلك البعد دون أن تلتهمهما الأسماك العديدة النهمة الجائعة التي يحويها المحيط . فإن كانت الأنواع المعروفة منها لا تحصى ، فهناك ما لا يحصى من أنواع ووحوش أخرى غير معروفة . منها ما له رأس وحيد القرن ، ومنها ما يطلق شلالات من أشداقه . ومنها وحوش غريبة غرابة تلك الأفعى المائية ـــ بنت ليفتيان وأونوكو التي وصلت بحراً من غالاسيا الآسيوية إلى شواطىء الرودانو ، وكانت تلتفّ بقوة على كل سفينة تلقاها حتى تصدع هيكلها وتغرقها بطواقمها وحمولتها ..

لن أدخل في تفاصيل صفقات ورحلات ضعيفة الشأن ، قمت بها ، في تلك الأعوام التي رزقت خلالها بطفل سميته دييغو . ولكن لما صرت أرمل تحررت من رباط كان يهدىء بعض الشيء من اضطرابي ، وعادت نار طموحي للاضطرام ، وقد صممت على طلب العون

أينما وجد . وكان واجباً أن أقوم به لأن البحارة البرتغاليين صاروا كل يوم أكثر إقداماً في كشوفاتهم . ولم يكن خوفي بلا أساس ، لأني أعتقد أنهم لكثرة ما قلّبوا الطرف باتجاه الجنوب ، وباتجاه الشرق ، فقد يحدث أن يمدوا أبصارهم مرة واحدة باتجاه الغرب ، الذي أرى طرقه تنتمي إليّ انتماء شرعياً ، مذ حفّز فيّ المعلم جاكوب سعير المغامرة . فكنت أنتفض كلما بلغني خبر عن أسفار البرتغاليين . وكنت أرتعد ليلاً ونهاراً من أن يسلبوني مجدي ، كما يرتعد البخيل رعباً أمام لصوص محتملين في المسرحيات الكوميدية اللاتينية . فهذا المحيط الذي أتأمله من سواحل بويرتو سانتو الوعرة ، كان ملكي . وكل أسبوع يمر كان الخطر يزداد في أن يسلب مني . كانت قواي تتآكل كما تتآكل أظافري وأنا أهرش حوافّ سفن /سنديوني ودي نيغرو/ وقد صارا اليوم شريكين ، وأنهمك بالتجارة لهما بالسكر ، سالكاً طرقاً تجارية روتينية ، متنقلاً من ماديرا إلى ساحل الذهب ، ومن فلورنسا إلى جنوة . وأعود إلى جزر الآزور ثم إلى جنوة ، مبتاعاً ، شاحناً ، ناقلاً ، مروجاً بضائع ، في حين كنت أعلم مقدرتي على أن أقدم للعالم صورة جديدة عما هو عليه العالم . عالم تام ، عالم مفترض . فأنا وحدي — الملاح المغمور ، الناشيء وسط حانة للخمور والأجبان — كنت أعلم الوزن الحقيقي لهذه الكلمات . لذلك حانت ساعة التعجيل بالأمر . فلا الخرائط ولا النصوص كانت تمدني بشيء . ولما كنت بحاجة ملكية للبدء بمشروعي ، فعزمت على البحث عنها بعناد ، حيث أستطيع أن ألقاها . فأولاً وأخيراً ، ما كنت أحفل إلا قليلاً بأية أمة قد تنال — إن ساعدتني — مجداً بلا حدود وثروة لا تنضب . لم أكن برتغالياً ولا إسبانياً ولا إنكليزياً ولا فرنسياً ، بل كنت جنوياً؛ والجنويون مواطنو كل مكان . فلا بد من زيارة جميع البلاطات الممكنة دون أن أشغل نفسي بمعرفة من أعزو إليه نجاحي ، أكان العرش الذي يرعاني معادياً لهذا العرش أو ذاك من العروش. لهذا السبب، عدت إلى تجهيز مسرحي العجائبي؛ وسرت به مبتدئاً جولة جديدة في القارة : عرضته أولاً في البرتغال . فلقيت ملكاً عسير عليه فهم الأمور الكونية واللاهوتية والبحرية ؛ وهو شديد الوثوق بملاحيه الذين يرعون مصالحهم جيداً . وفي نهاية المطاف ، أسلمني إلى رحمة علماء وجغرافيين وقانونيين وإلى أسقف سبتة الأحمق

ـــ والحمد لله ليست سبتة أنطاكية ـــ . وإلى المعلمَيْن رود ريغيث وجوزيف ، وهما أشد فظاظة وجهلاً من أميهما اللتين ولدتاهما . هؤلاء أكدوا أن أقوالي كانت مجرد تغييرات طفيفة وفروقاً قائمة ـــ كما في فنون الغناء ـــ على أساس مواضيع وضع ألحانها ماركو بولو البندقي الكبير الذي قرأت كتابه بشغف . ولكنني لم أسع إلى ترسّم خطواته ، لأن قصدي كان بالضبط ، أن أبلغ بالإبحار مع الشمس الممالك التي بلغها هو ، سائراً بمواجهة الشمس . فإن كانت خطواته قد رسمت نصف دائرة في الأرض ، فيقع عليّ عبء رسم النصف الباقي . لكنني كنت أعلم ـــ كنت أعلم جيداً ـــ أن القطعة الناقصة لإغلاق الدائرة هي القطعة العائدة إلى بلد الأقزام . ففككت مسرحي ، بعد أن خاب أملي في البرتغال ، وعدت إلى نصبه في قرطبة حيث تأمله جلالة الملكين الكاثوليكيين[1] برغبة ؛ وقد بدا لي الأراغوني[2] أبله وتافهاً أو ضعيف الإرادة محكوماً من امرأته . وكانت هذه ، أثناء المقابلة ، تسمع كلماتي بشرود ، كما لو كانت تفكر بشيء آخر . وخرجت من هناك بوعد كبير بأن علماء ـــ تتكرر قصة كل مرة ـــ سينظرون في عرضي ، لأن مشاغل الحكم العديدة تلك الأيام ، ونفقات الحرب الباهظة التي ، والتي والتي .. حجج باطلة تتعلل بها حاكمة جد قانعة بما لديها ، ومولعة بأن تبدو (طُلَعَة) ولكنها حسبما تؤكد ، تبدو « حمقاء ومسكينة » إذا قيست بلاهوتي طليطلة . وهو تواضع مزيف ممن يتظاهر بالاعتراف أنه لا يعلم شيئاً في حين يعتقد أنه يعلم كل شيء . فخرجت من المقابلة محنقاً ، ليس بسبب ازدرائهم لي ، بل لأنني لم أرغب يوماً ما أن أعقد صفقات مع امرأة خلاف ما يتعلق منها بالسرير . وكان واضحاً ، أن المرأة هي الآمرة الناهية في هذا البلاط وهي من يعلو في الحقيقة . على أن الرجل لا يمكن أن يبقى دون امرأة ، وإن كان ذلك لأسباب مختلفة . فقضيت وقتي حينئذ بعشرة حسناء باسكية أنجبت لي ولداً آخر . لم نبحث أمر الزواج ، ولا أنا كنت أريده . لأن من تعاشرني الآن لا تمت بصلة قربى إلى عائلة برغنش ولا مبدنتيليس . أضف إلى ذلك ، أنني لما أخذتها

(١) الملكة إيزابيل والملك فرناندو .

(٢) يقصد فرناندو ، ملك أراغون وقتالونيا قبل اتحادهما مع قشتالة التي تحكمها إيزابيل .

في نزهة إلى النهر أول مرة معتقداً أنها عذراء ، أعلمتني بكل بساطة أنها كانت متزوجة من رجل آخر قبلي .

كل هذا لم يمنعني من أن أجوب الطرقات على متن مهرة بلون الصدف ، دون لجام ودون ركاب ، في الوقت الذي كان فيه أخي /برتلومي / يقيم مسرحي في أنكلترا ، أمام عرش تيودور الأول . ولكنه لاحظ سريعاً أنه لن يلقى استجابة حسنة . فهؤلاء الانكليز الجبناء لا يعرفون شيئاً عن الأمور البحرية ، وهم عاجزون — كما كانوا حتى الآن — عن الحصول على عود من القرفة أو جريب من الفلفل إلا ما كان منها في حانوت البقّال ... ففكرت حينئذ بملك فرنسا الذي هو أغنى من والدته التي أنجبته ، وقد حاز اليوم على دوقية بريتانيا نتيجة لصفقة زواج ناجحة . فهؤلاء البريتون ، أتباع الدوقة آنا ، يرون في الحوت والرنكة وزيت مخ الحوت ، أشياء ثمينة ومضمونة أكثر مما يرون في ذهب الهند ؛ فلم أحظ هناك بلقاء طيب .

ولكن برغم الإخفاقات وخيبات الأمل ، فقد أخذت أضخم صورتي ، وقد أدركت أنه لن يُسمع لي البتة إلا إذا كنت شديد الوطأة ، مرهوب الجانب لدى الحجّاب ، مبدياً ضيقي من الانتظار . وضممت ألقاباً وأمجاداً مكتسبة . فجعلت من نفسي أسطورة تكفي لنسيان حانة سافونا — وليغفر لي والدي وصاحبها الصوّاف والجبّان ، الحريص على دنانه ، المشغوف بمشاجرات يومية مع السكارى المفلسين . فأخرجت من كمي أميرالاً مدّعياً أنه أحد أعمامي . وصرت طالباً متخرجاً من جامعة بادوا التي لم أطأ ردهاتها خلال وجودي المضطرب. وأصبحت صديقاً للملك /ريناتو دانجو/ دون أن أرى وجهه . وأمسيت رباناً ممتازاً لدى كولون الموسو الشهير . فصرت شخصاً معروفاً . وبذلك كنت أدير مكيدتي بنجاح أفضل من ذي قبل : فمن خلال نكات ، وإشاعات تطلق ؛ وأمور تقال كأنَّ أحداً لم يقلها ، وعبر إسرار ونجوى ومسارّات ، تؤخذ بشأنها وعود وأيمان بألا تنقل إلى أحد أبداً ، ومن خلال رسائل تقرأ حتى نصفها ، ومخططات مصطنعة لتبرير غياب مفاجىء استجابة لنداء عاجل من بلاطات أخرى ، وبوساطة طبيب وفلكي هما أدهى من إبليس ، وفّقت في كسبهما إلى صفي؛ من خلال ذلك كله جعلت الأراغوني والقشتالية يظنان على غير العادة

أنّ مملكتهما ، بسبب من حماقة البعض وغفلة البعض الآخر ، هي على شفا فقدان صفقة أرباحها الهائلة كانت محط أنظار حكّام آخرين أفضل مشورة . وهكذا كان . فقد أهدي لي على غير توقع ء بغلة شهباء مجهزة تجهيزاً حسناً ، كيلا تتسخ أثناء الجري بزة الخروج الوحيدة التي أملكها . وبأمر ملكي توجهت إلى معسكر /سانتا في / الضخم . وهو مخيم عسكري هائل تحول إلى مدينة وبلاط نتيجة إقامة الملكين فيه : خيام من الجوخ الرفيع . وخيام أخرى بلا جوانب ، ونيران ليلية ، وعربات مغطاة السقوف ، ودنان خمر محمولة على الحمير ، ورشقات من القيثار ، وطقطقة أكعاب غوانٍ يرقصن على المنصة ، ونداءات أبواق وزخّات صنوج . فمن هنا ستنطلق الجيوش محطمة حلقات الحصار وتشن الهجوم النهائي على آخر حصن للعرب في هذي الأرض التي لا تخلو ــ كما هو معروف ــ من زنادقة من كل لون ، ومن مسلمات يعاشرن منذ زمن بعيد مسيحيين متعلقين بحيث أعرف ، كما هو حال الملك ألفونسو السادس الذي اغتصب أخته دونيا أورّاكا .

ــ أية عائلات هذه يا إلهي ! ــ وقبل ذلك كان قد اتخذ من زيدة الشهيرة عشيقة له لزمن طويل . وهي فتاة عربية اشبيلية ذات حضن متين ، وثديين ناهدين ، ولحم له رائحة اللوزينا الطليطلية ، التي تصنع على هيئة حية من حيات الجنة ، ملتفة في علبة مدورة ، مغطاة بقشور بلون الذهب ، ولها عينان خضراوان من الرب ، ولسان من السكاكر الملوّنة .

انقضى شهر تموز ، وأنا قد أتممت الأربعين . وإني وإن لم أكن أبدو جميل الطلعة ، فقد كنت رشيق القد ، نبيل الملامح ، أقنى الأنف ، ثاقب النظرة ، طلق العبارة ، متين الأسر ؛ وجهي خالٍ من التجاعيد ، ذو بشرة لفحتها رياح البحر وشموس أفريقيا . وإذا كان رأسي كبيراً فقد كان يضفي عليّ جلالاً مقترناً بفكرة التجارب والرأي السديد اللذين يُعزوان ، وإن خطأً في بعض الأحيان ، إلى ما يتركه فينا مرور الزمن .

وكان الطقس حاراً لما وصلت إلى سانتافي .

هي أيضاً قد كانت أتمت الأربعين . وقد انتهزت فرصة غياب زوجها ، المشغول بأمور أهم ــ وهي في الحقيقة أمور تتعلق بالبيزرة ، وشرب الخمر ومعاشرة الفتيات ــ فاستقبلتني وحيدة في حجرة منعزلة وسط أثاث من طراز عربي مرصع بالصدف غنمته أثناء تراجع الكفار[1] إلى غرناطة . لم أرها منذ سنوات خمس مرّت على تلك المقابلة المخفقة التي شعرت إثرها بشيء من البغضاء نحوها ، لأنها صدّتني وتجاهلت كلماتي . ولكن تسريحة شعرها في ذلك الوقت ، والنقاب الذي كان يلف رأسها لم يتركا لي مجالاً لألحظ أنها امرأة شقراء ، شديدة الشقرة ، تشبه بعض نساء البندقية . وعيناها الخضر ــ زرقاوان فيهما جمال أخّاذ . ووجهها صقيل ومنوّر حتى ليبدو كوجه صبية . وقد زادها حلاوة تعبير ساحر وطبيعي ، قد يكون عائداً لانتصاراتها المتعددة ، وإلى ذكائها الحاد الذي كان ذا عون كبير لها ، أوقات الخلافات السياسية ، وساعات القرارات الحاسمة .

لم تكن ــ وهذا يعرفه الكثيرون ــ ملكة مغرمة بمن كان يخونها على مرأى ومعرفة من أتباعه مع أية سيدة ذات مقام رفيع ، أو مع إحدى سيدات البلاط أو إحدى الخادمات الجميلات ، أو إحدى الطباخات الحسناوات ممن يلقاهن في طريقه . ولم يكن يأبى علاقة مع مسلمة من المسلمات المرتدات ، أو اليهوديات المداجيات ، أو أية امرأة أخرى حتى لو كانت خشنة ، إن لم يجد لحماً خيراً من ذلك ، يغرز فيه أسنانه .

والآن ، فإن الشخص الذي أحدثه عن مشروعي الكبير هو الحاكم الفعلي في هذا البلاط . وهذا أمر يسلّم فيه الجميع . إنها المرأة التي دخلت كاتدرائية سيغوبيا يوم تتويجها ، تسير خلف مستشار كان يحمل سيفاً منتصباً ، وهي علامة الرجولة ، ويمسك به من مقبضه رمزاً للقوة والعدالة . ولطالما انتُقدت لهذا العرض الفظ . وهي التي تدير ، هذه السنين شؤون الدولة بقوة .

---

(١) الكلام ، كما هو واضح ، لكولون .

والأراغوني لم يكن يفعل شيئاً آخر ما عدا العناية بكلابه ، دون موافقة منها . وكان عليه أن يخضع لها جميع أوامره وقراراته ؛ حتى رسائله الخاصة كانت تقرأ لها ، فإن ساءتها واحدة منها ، أمرت ، وزوجها حاضر بإتلافها فوراً . لم يكُ أحد يبالي بأوامر الزوج حتى في أراغون وكاتالونيا ، في حين كان الجميع يرتعدون أمام أوامر مَنْ كانت تعتبر في كل أنحاء المملكة شخصاً أكمل جسماً ، وأيقظ ذهناً وأكبر قلباً وعلماً . كانت تلك مقابلتي الأولى مع من وُلدت في /ماداريغال دولاس آلتاس توريس / . (ولديّ من الأسباب ما يكفي لأحب فيما بعد اسم هذه البلدة) .

لقد حدثتها عما كنت أحدث به دائماً ، سائر العظماء والأقوياء . فنشرت مرة أخرى صور عرضي العجائبي ، ورسوم الخرائط اللامعة . ولكنني حين قمت بمهمة الإعلان عن العجائب المتوقعة ، طوّرت فكرة جديدة أنضجتْها مطالعاتي الحديثة ، فلقيت استحساناً من مستمعتي . فقد استندت إلى الأفكار حول التاريخ العالمي كما تصوره /بابلو أوروسيو / وبيّنت : كما أن حركة السماوات والنجوم هي من الشرق إلى الغرب ، فكذلك ملكية العالم أيضاً ، قد انتقلت من الآشوريين إلى الميديين ؛ ومن الميديين إلى الفرس ثم إلى المكدونيين فالرومان ؛ وبعد ذلك إلى الغاليين والجرْمَن ؛ وأخيراً إلى الغوطيين مؤسسي هذه المملكة . فبعد أن نطرد العرب من غرناطة ـــ وهو أمر لن يلبث أن يحدث ـــ من الصواب ، إذاً ، أن ننظر باتجاه الغرب ، مقتفين انتشار الممالك التقليدي ، المحكوم بحركة الكواكب ، حتى نبلغ امبراطوريات آسيا الكبيرة والحقيقية . لأن ما رآه البرتغاليون خلال أسفارهم التي سلكوا فيها خطوط الملاحة الشرقية ، لم يكن إلا فتاتاً من الممالك التافهة . ثم أثرت نبوءة سينيكا بنجاح كبير ، حتى أن مستمعتي السامية بدت مزهوّة لما قاطعتني لتنشد من الذاكرة أبياتاً من المأساة :

« ولما توسطت جمع النساء
كسف وجوهَهن سناءُ وجهها »

فرددت تلك الأبيات ، وأنا راكع أمامها ، مؤكداً أن الشاعر كان يفكر بها لما قال :

« لما توسطت جمع النساء » كل نساء الدنيا « كسف وجوههن سناءُ وجهها » . ورفّت بجفنيها رفة خفيفة ولذيذة وهي تستمع إليّ . فأنهضتني عن الأرض وأجلستني إلى جانبها . وأخذنا نستعيد التراجيديا الجميلة ونحن نتذكرها قطعة قطعة ....

وقد دفعتني جرأة من كانت تحسبني عنّيناً ، فتفوّهت بكلمات كأنها صادرة عن شخص آخر — كلمات لن أكررها في اعترافي — وقد أبقتني هذه الكلمات في المقر الملكي حتى دق نفير الفجر في المعسكر . ومنذ هذه الليلة لم أعد أرى إلا امرأة واحدة في العالم . هذا العالم الذي ما زال ينتظر مني أن أكمل تكويره .

ولكنّ العالم كان عيل صبره كيما يتكوّر . وأنا كنت أشد قلقاً منه ، وقد طوّقت من جديد بعراقيل ، ومعارضات ومقارنات وأدلة ومراوغات والتفافات — كلها خرأ — يثيرها علماء كون وجغرافيون ولاهوتيون ، جهدت في إقناعهم أن مشروعي لا غبار عليه وهو مثمر للغاية . وإن كنت لا أستطيع كالعادة دائماً ، دائماً أن أكشف سري الكبير : ذلك السر الذي كشفه لي المعلم جاكوب في أرض الجليد ذات الليالي البيض . ولو بحت به — وكدت أفعل مرات عديدة ، بتأثير الغضب الشديد — لكنت أقنعت معارضي المماحكين . ولكن المشرئبّ ليكون /أطلس الجبار / يبقى حينئذ ملاحاً عادياً ، أو عامل حانة ، أكثر منه طالباً في جامعة بادوا ، وجبّاناً أكثر منه ربّاناً عند كولون الموسو — هذا إن لم تُلق في النهاية إلى شخص آخر مقاليد قيادة الأسطول الذي أرغب فيه .

انقضت أشهر عدة ، وسقطت غرناطة أخيراً ، وطُرد اليهود من اسبانيا — « ألا أيها اليهود ، ... إلى الرحيل » . كل ذلك ضفّر التاج المزدوج بالمجد ، ولكنّ وضعي بقي هو هو .ولكنّ كولومبا — هكذا كنت أدعوها حينما نكون لوحدنا — كانت تعدني في لياليها الحميمة ، بثلاث سفن ، بعشر سفن ، بخمسين سفينة ، بمائة سفينة بكل السفن التي أريدها . ولكن حين أصبح ، تمّحي السفن ، وأبقى وحيداً وأنا في الطريق إلى بيتي مع تباشير الفجر . وأرى الصواري والأشرعة تتهاوى ، وكانت قد انتصبت ظافرة في أوهام العظمة التي أنسجها ، وعادت في رأد الضحى ، إلى لا واقعية الأحلام المتبخرة التي لا تتجسد أبداً في

صور ملموسة ... وقد صرت أتساءل إن كان مصيري كمصير كثير من عشاق الملكة مثل دون مارتين باسكيث ، أو دونثيل دي سبغونثبا الجميل الناعم ، اللذين قضيا نحبهما في معارك غريبة مع العرب لتهورهم في إبراز شجاعتهم أمام سيدتهم ، ملهمة رغباتهم ، وموجهة خطاهم . (وقد كنت أغار أشد الغيرة أحياناً من هذا الشاب الشاعر المقاتل الذي كنت أعزو له في تخيلاتي الغرامية ، من السعادة ما لم يحصل عليه في الواقع (ممن) لا تفتأ تردد ذكره ، ربما لأنها جد معجبة به حتى أنها كانت تخشى أن يظهر ذلك في عينيها) .

والويل لمن يحتك بحد الماس ، إن كان معدنه زجاجاً سريع العطب !! ولقد رأيت الرايات الملكية ترتفع فوق الحمراء ؛ وشهدت إذلال ملك العرب وهو يخرج من مدينته المهزومة ويقبل أيدي مليكيّ . وكانت تعد مشاريع طموحة ، والحديث يجري عن نقل الحرب إلى أفريقيا . ولكن أموري كانت كلها من قبيل : سنرى ، سننظر في الأمر ؛ سنتناقش به ؛ الأفضل الإنتظار قليلاً ، فلا شيء متوفر مثل يوم يجري إثر يوم ، وإن الصبر فضيلة عظمى ، وإن شراً نعرفه خير من خير نسعى لمعرفته ... لقد حصلت على مليون مرابطية[1] من الجنويين في اشبيليا ومن المصرفي /بيراردي / ، ولكن لا زال ينقصني مليون آخر كي أمتطي متن البحر . وهذا المليون الآخر هو ما كانت كولومبا تعدني به في المساء لتسحبه مني في الفجر ـــ لا بد من الاعتراف بذلك ـــ مع كلمة « إلى اللقاء » في الوداع .

ولكنّ غضباً مفاجئاً تملكني ذات ليلة فانفجرت صائحاً بأعلى صوتي : « إني وإن كنت مهذباً ومنقاداً في سلوكي معها ، حريصاً دائماً على مراعاة قواعد الاحترام ، لأحس بأني ندّ لأيّ ملك من الملوك ، وبأني أتربع على عرش دون تاج مرصّع ، ما عدا الهالة التي تضفيها عليّ فكرتي العظيمة ؛ عرش كعرش تاجي قشتالة وأراغون » . فصاحت بي :

---

(١) مرابطية : (نسبة إلى المرابطين) عملة إسبانية قديمة ، ذات قيم مختلفة باختلاف العصور التي استخدمت فيها . في أواخر القرن الخامس عشر كانت تعادل $\frac{1}{3}$ ريال من الفضة .

« **سافل ! لست إلا سافلاً** » . وصحت بدوري :

سافل أنا ، ولا أحد يعرف ذلك خيراً منك ، أنت من يعرفني على حقيقتي » . ولم أقدر هذه المرة على الاحتفاظ بالسر الذي حملته خلال أعوام طوال . فكشفت لها عما علمته في أرض الجليد حول أسفار البحار الأشقر وابنه ليف وعن اكتشافهما الأرض الخضراء ، وأرض الغابات وأرض الأعناب ، ووصفت لها منظر غابات التنّوب المدهش ، وحقول القمح البهية ، وسيولها الفضية المليئة بسمك السلمون . ووصفت لها الأقزام الذين تزينهم عقود من ذهب وأساور من ذهب ، وقطع من ذهب وقبّعات من ذهب . وقلت لها أيضاً إنهم يعبدون أصناماً من ذهب . وإن الذهب في أنهارهم غزير غزارة الحجارة في الهضبة القشتالية .. وإزاء الذهول الذي جمّد كولومبا ، صرخت . « إني ذاهب إلى غير رجعة . وإني سأتقدم بمشروعي الكبير إلى ملك فرنسا الذي هو على أتم استعداد لتمويله . لأن هذا الملك لديه امرأة مولعة بالبحر كأية بريتونية أصيلة ، جديرة بأن تكون من سلالة ايلينا الأرمورية ، بنت الملك كلوهن ، وزوجة قسطنطين العجوز ، المختارة من الله لتنبش الصليب المدفون على بعد عشرين شبراً تحت الأرض في جبل الجلجلة في القدس . بمثل هؤلاء القوم يستطيع المرء أن يثق . لذلك أنا ذاهب بعرضي إلى جهة أخرى » .

يبدو أن ما قلته قد أغضب كولومبا : « **سافل اخنزير قذر ، تبيع المسيح** بثلاثين فضية » صاحت ، بينما كنت خارجاً من الغرفة وقد صفق الباب صفقة مدوية . في الأسفل ، كانت بغلتي الشهباء تنتظرني تحت ظلال الأشجار . كنت مغضباً كما لم أكن أبداً . وزاد غضبي الآن ، لأني بحت بالسر الكبير الذي كان عليّ أن أصونه ؛ فقطعت فرسخين كاملين ونزلت في استراحة على الطريق ، وأنا عازم على أن أشرب من الخمر ما يتسع له جسمي . وكان نيسان قد أطل ؛ وخضرة الحقول تبدو برتقالية تقريباً ، فريدة في تدرج ألوانها . وهي سمة تمتاز بها بساتين غرناطة . وكانت الحساسين تغني . كل شيء كان يطفر بالسرور في تلك الاستراحة التي امتلأت في تلك الساعة الباكرة بالفلاحين المعيدين يوم الأحد . وكانت أجراس الكنيسة تدعو للصلاة . أما أنا فكنت مكتئباً . وكل كأس بدلاً من

أن يسري عني ، كان يغرقني في قنوط من اقترف خطأً لا يصلح . لقد أضعتُ كل شيء . كل شيء . أضعت الحُظوة السامية ، وأملاً ، وإن لم يتحقق ، لكنه كان لا يزال قائماً حتى ساعات قليلة خلت . كنت أقد أفرغت جرة من الخمر ، لما رأيت حاجباً يدخل . ولا بد أنه قتل حصانه جرياً حتى بلغ هذه القرية ، نظراً للعرق المتصبب منه ، والغبار الذي يعلو ثيابه . ولما رآني اتجه نحوي مباشرة : إن جلالتها أمرتني أن أدعوك على عجل ، وترجو ألا تتابع طريقك » . وقد صرت عند مليكتي بعيد الظهر وقد ابتردت جسماً وثياباً . فقالت لي :

ــ « إليك مليون مرابطية »

كانت قد طلبتها من سنتَنْخيل بأمرٍ لا يُرد وقولٍ أعرفه أنا جيداً . أعطاها القرض بضمانة مجوهرات قيمتها في الحقيقة ، أقل كثيراً . وقالت :

ــ سأستردها متى شئت ودون أن أعيد المليون »

ونظرت إلي نظرة ذات مغزى : « لقد طردنا اليهود ، وإن مليوناً تساوي عند سنتنخيل نعمة قدرته على البقاء في هذه المملكة التي له فيها مصالح هامة . والآن هيّا ، أنت إلى الرحيل ! وحظاً سعيداً ؛ واحصل على كل ما تقدر أن تحصل عليه من ذهب كي نتمكن من نقل الحرب إلى أفريقيا » .

وقلت ــ : « وحتى نسترد مدينة القدس ، كما استردت مملكة غرناطة » وقالت هي : ربما .

ــ ولكن ، يجب ألا يعلم أحد بسري الكبير » . قلت مذعوراً لما تخيّلت أن سنتنخيل قد يكون علم ...

فقالت : لست حمقاء . ففي هذا السر مجد لنا كلانا » .

وقلت وأنا أقبل يديها ــ يلهمك الروح القدس » .

فقالت : ــ ربما قيل هذا في كتب قادمة ، قد تُكتب فقط إن اكتشفت شيئاً .

ــ أوتشكين في ذلك ؟ »

ــ لم يعد ينفع الشك .

في الخارج كان يسمع نداء السقاء العربي الذي يلبس قبعة مضحكة وجلابية تغنيه عن لبس السروال ، وهو ينادي على برودة مشروب قربتيه المتدليتين من رقبته ، مستغرقاً في عمله بنقل ماء الينابيع كدأبه دائماً . وكأن مملكة غرناطة لم تبدل أسيادها .

انطلقنا يوم الثالث من آب ، من خَوْر سالتس . وقد أبحرنا بريح قوية حتى مغيب الشمس مجتازين سبعين ميلاً باتجاه الجنوب ، أي ما يعادل ١٥ فرسخاً ؛ ثم باتجاه الجنوب الشرقي ، ثم أبعد درجة واحدة باتجاه الجنوب . فصرنا في الطريق إلى جزر الكناري . لم يكن في رحلتنا إلا قليل من الإثارة حتى اليوم السادس من ايلول ، حيث ألقينا مراسينا في جزيرة لا غوميرا .

والآن ها هو المشروع الكبير قد بدأ . ولا بد من القول إني وإن كنت أظهر البشاشة للجميع ، مبدياً علامات السرور الكبير في كل لحظة ، ساعياً للسيطرة على نفسي ، فقد كنت لا أستطيع النوم نوماً هادئاً في ساعات الليل . فقد كنت ساعات الصباح تتربص بي نظراً للصعاب التي عليّ أن أقهرها في سفر صعب نحو فنلنديا البعيدة ــ أو نحو امتدادها الجنوبي ــ التي مثلتها لسيدتي مقاطعة متقدمة من مقاطعات مملكة يحكمها الخان الأكبر ، أو أمير آخر من أمراء الهند الذين زودتني برسائل لهم . ولعل وهمي يتجلى عن حقيقة أكيدة ، فاصطحبت معي رجلاً يدعى لويس توريس ، كان يهودياً (فعل « كان » يستخدم هذه الأيام بكثرة) ويدّعي أنه يعرف إضافة للعبرية ، الكلدانية وبعض العربية . ولكنّ طاقم الملاحين كان من طينة سيئة . فهم مسيحيون حديثو العهد ، وجانحون هاربون من القانون ، ومختونون مهددون بالطرد وصعاليك ومغامرون أكثر مما هم بحارة ورجال عمل . فكانت المناورات تنفّذ تنفيذاً سيئاً ، والأوامر تفهم بصورة رديئة . ولقد كنت هدفاً لكثير من الوساوس ، فإذا طالت الرحلة أمداً أبعد مما هو متوقع ــ وقد يحدث هذا حقاً ــ فإن هؤلاء القوم وقد رأوا أنفسهم يزدادون كل يوم بعداً عن القارة التي خلّفوها وراءهم ، ولمّا يلمحوا أي أرض (وكلهم يتطلع إلى اكتشافها . لأن الملكة قدمت مبلغ عشرة آلاف مرابطية لمن يعلن النبأ أولاً) ، هؤلاء قد يقعون بسهولة فريسة الملل والإحباط والقلق من أجل العودة . وكانت لا تزال جد حيةً في النفوس صور بحر الظلمات ، وصور بحار لا حدود لها ، وتيارات تجرف السفن إلى حيث تلتصق الأمواج بالسماء ، صور ترتبط منذ قرون بالأمواه التي نشق عبابها الآن . ولكنني بعد هذا الانتظار الطويل غاية الطول ، لن أسمح لهذه الصور أن تعود وترتسم

في الأذهان ، فتثني العزائم وتثير العصيان ؛ فصممت على اللجوء إلى الكذب وإلى الدجل ــ الدجل الدائم الذي يتعين عليّ أن أعيش به (وهذا ما سأقوله للكاهن الفرنسيسكاني الذي أنتظره) . فمنذ يوم الأحد التاسع من شهر أيلول ، عزمت على أن أعد كل يوم من الفراسخ أقل مما كنا نقطع ، كيلا أثير جزع البحارة فيما لو تبيّن أن الرحلة طويلة . وهكذا ، فقد اجتزنا يوم الإثنين ستين فرسخاً وقلت إننا تقدمنا ثمانية وأربعين فقط . وهكذا كان يوم الثلاثاء ــ وكان يوماً ضعيف الهبوب ــ فقطعنا عشرين فرسخاً وقلت ستة عشر . في البداية ، كنت أنقص ثلاثة أو أربعة فراسخ . ولكن كلما توغلنا في ذلك الشهر ، ولمحت أية بارقة قلق في الوجوه كنت أحذف رقماً أكبر من عدد الفراسخ الفعلية التي أبحرناها . ففي اليوم ١٨ فإن خمسة وخمسين صارت ثمانية وأربعين . ولما حل اليوم الأول من تشرين الأول كان حسابي الحقيقي سبعمائة وعشرين فرسخاً ، في حين أعلنت عن رقم كاذب ، وهو خمسمائة وأربعة وثمانون فرسخاً فقط . صحيح ، أنه كانت تردنا بالصدفة ، نباتات نادرة تشبه أغصان الصنوبر وكأنها نزعت من جزر تقع أمامنا ؛ ونباتات أخرى ذات لون أخضر مصفر كأنها عناقيد عنب طافية ، ولكنها أعناب أقرب شبهاً بثمار البطم . كذلك كانت تعبر فوق رؤوسنا طيور ، تبدو أنها من طيور البر ، شبيهة بطائر البطريق أو الصعو ، وأخرى بيض كالنوارس وأخرى من عائلة الفرقاطات . وكنت ازاءها أبالغ في إبداء سروري . ولكن كثيراً من البحارة كان يقول : إن هذا لا يعني شيئاً ، ففوق البحر المتوسط تحلق كل عام طيور اللقلق القادمة من الممالك الألمانية هرباً من الثلوج والعواصف في الشتاء ، وطلباً للدفء في المآذن العربية . فضلاً عن ذلك ، هناك طيور بمقدورها أن ترقد فوق الأمواج حتى أن طائر القرلّى يستطيع أن يبني عشه وسطها .

كانت كلها نمائم وإشاعات . وبمضي الأيام كان انعدام الثقة ينتشر من سفينة إلى سفينة . إنها تعليقات خسيسة تنشأ على متن هذا المركب فتنتقل إلى متن الآخر ، قافزة من جهة إلى أخرى بفعل عمل لئيم . ولست أشك أن من كان ينسج هذه الأقاويل هم الأعلم بين البحارة . فكفى حزناً أن يعترف المرء أن النقد المغرض والتقدير البائس وحتى الخسة ،

تزدهر مثل نبات بري لدى أناس قرأوا بعض الكتب فظنوا أنهم يعلمون شيئاً من شيء ، ويبتهجون أيما ابتهاج بشحذ أسنّة ألسنتهم في ظهور الآخرين خصوصاً إن كانوا مقودين لا قائدين .

إني أشتبه برودريغو دي خيريث الذي يدعي العلم ؛ وبالمسيحي الغر لويس دي تورّيس الذي يتخيل أنه يتكلم الكلدانية والعربية . وأشتبه أيضاً حتى بالأندلسي المهذار مارتن ألونسو الذي كان موضع ثقتي الكبيرة ، ولكنني صرت أمقته يوماً بعد يوم . فهؤلاء أشاعوا بأني لا أتقن استخدام الاسطرلاب اتقاناً تاماً ــ وربما كان هذا الأمر صحيحاً ، وعليّ أن أعترف به الآن ؛ فمنذ سنوات بعيدة أخطأت خطأً فادحاً في تحديد خط عرض مملكة مينا في أفريقيا ــ (ولكن هذا الأمر حدث منذ زمن بعيد ...) . ويحكون أيضاً حين يجتمعون في مجالس النميمة ، أن خارطة توسكانيلي التي أحتفظ بها في حجرتي ، لا تجديني فتيلاً ، لأنني لا أقدر على فهم رياضيات الأستاذ اللامع . وربما كان هذا صحيحاً أيضاً . ولكني كنت أعزّي النفس عنه ، متذكراً أن توسكانيلي الشديد الزهو بعلمه ، اعتبر غير صالحة رياضيات نيقولاس دي كوسا ، صديق البابا بيّو الثاني ، والذي يعد كتابه في التاريخ من كتبي المفضلة . (أما بالنسبة لي ، فإني أرى أن نيكولاس دي كوسا ، وإن لم يكن ضليعاً في الرياضيات كما يؤكد توسكانيلي المتحذلق ، فقد كان مدافعاً عما أسماه الجهل العليم . وهو جهل عليم يفتح الأبواب التي تقود إلى اللا نهاية ، ويناقض المنطق المدرسي الذي يكم الفم ويعصب العين ويسد أذن كل مقدام أو نبي أو حامل فكرة أي ذوي الرؤوس الحقيقية المتطلعين إلى اختراق المجهول . وهذا الأمر ما كان ليفهمه أنصاف المتعلمين من الإسبان المرافقين لي ، العارفين بالزفت والجلفاط والماء المملح وصيد التونة) .

ولم يكتفوا بالتشنيع عليّ لدى البحارة ، بتخرصاتهم السخيفة ، بل كان هؤلاء الأوغاد يوحون بأني أخلط في قياساتي بين الميل العربي وبين الميل الإيطالي المستخدم اليوم . ولكن هذه النقطة الأخيرة أخذت تتجلى لي صحيحة ، وهذا مخجل لي كثيراً ؛ فهي عدا التزوير المتعمد في حساب المسافات ، كانت تبين أني بخلطي بين الأميال كما يوحي أولئك

الإسبان الجبناء، قد قلصت امتداد العالم تقليصاً خطيراً ، حتى أن هذه الرحلة لا بد أن تبدو طويلة أكثر مما هو متوقع ، وهو أمر يثير جزع البحارة واضطرابهم .

في ليلة التاسع من تشرين الأول ، نمي إليّ أن مؤامرة تحاك ضدي على متن السفن . وفي اليوم التالي جاءني البحارة بلهجة متوسلة أولاً ، ثم أخذت النبرة تعلو ، وتعلو ، وتعلو إلى أن وصلت إلى السباب ... وقالوا لي إنهم لم يعودوا يطيقون هذه الرحلة الطويلة ، وإن القلق ينهش فيهم ، وإن البسكويت واللحم المقدد قد تعفنت . وإن الأمراض قد تفشّت فيهم وإن عزائمهم قد انحطت ولا همّة لهم بالسير قدماً ، وإن الوقت قد حان للتخلي عن هذا المشروع الغامض الذي لن يفضي إلى شيء البتة . فلجأت إلى كل ما أوتيت من عزيمة ، وما أملك من بلاغة كنت حاججت بها ذاتها حكاماً ولاهوتيين ورجال علم . ولوّحت بالمشنقة مهدداً أكثرهم وقاحة وإثارة للعصيان . (دون أن ألح على هذه المسألة) . ثم رسمت لوحة للثروات والمنافع التي لن تلبث أن تبرز في الأفق طالباً إمهالي ثلاثة أو أربعة أيام على الأكثر ، إلى أن تمكنت من إخماد عاصفة الأصوات التي تهب عليّ . جرى كل ذلك تحت نظرة مارتن ألونسو الساخرة ، الذي ما زال ينقص في عيني يوماً بعد يوم ، والذي قال : علقهم على المشنقة . علقهم . وهو يعلم أني إذا ما أمرت بشنق واحد منهم ، فلن يطيعني أحد ، ـــ خاصة أولئك الغاليسيون والباسكيون الخبثاء ، الذين يبحرون لسوء الحظ معي ـــ . لقد فقدت في الحال كل صلاحية وكل سلطة واحترام . (وهذا ما كان يريده مارتن ألونسو) . وعلى كل حال ، كنت أعلم أن أيام رحلتي صارت معدودة . فإن لم تحدث معجزة غداً أو بعد غد أو اليوم الذي يليه ، فعليّ أن أعود أدراجي إلى قشتالة ببؤس أحلام محطمة ؛ حتى أني لم أكن أجرؤ أن أتخيّل بأي وجه عابس ـــ وبحق ـــ ستلقاني سيدة مادريغال دي لاس آلتاس توريّس، التي متى تغضب ، تعبر عن ذلك بمفردات مفخّمة ، سوقية بذيئة تصل بها إلى الجيل الخامس من نسب المتهم لجهة الأم ، محاكية بذلك العرب في كل ما يقبح ويسيء .

ولكنّ المعجزة وقعت يوم الخميس في ١١ تشرين الأول ، بالتقاط رجالي عوداً مشغولاً بيد إنسان شغلاً غريباً . وعثر بحارة /لانينيا / على عصا طافية مغطاة بزهور برية . لقد وقفنا

جميعاً نترقب قلقين متلهفين ، وبعضهم كان يقول إن للنسيم رائحة البر . وفي الساعة العاشرة ليلاً بدا لي أني ألمح ضوءاً في البعيد . ولمزيد من الإطمئنان ناديت على الراصد رودريغو سانشيس وعلى مقدم حلويات الملك اللذين هما حسبما أرى ....

وفي الساعة الثانية من فجر الجمعة ، أطلق /رودريغو دي تريانا / صرخته : الأرض ! إنها الأرض !! ورنّت في آذان الجميع كأنها موسيقى صلاة الشكر . فطوينا الأشرعة كلها فوراً ، ما عدا واحداً منها ، وألقينا مراسينا بانتظار بزوغ النهار . والآن أضيفت إلى بهجتنا أسئلة طريفة ، لأننا ما كنا نعلم ماذا نعثر عليه : أهو جزيرة ؟ أم أرض قارية ؟ وهل بلغنا حقاً أراضي الهند ؟. فضلاً عن ذلك ، إن أي ملاح يعلم أن الهند ثلاث : كاتاي ، وسيبانغو ، والجزيرة الكبرى ـــ هل هي الجزيرة الذهبية عند الأقدمين ؟ـــ ناهيك عن الأراضي الصغيرة العديدة حيث تجلب منها التوابل . (أما من جهتي ، فكنت أفكر بالخطر الذي تنطوي عليه شراسة أقزام فنلنديا وعداوتهم) . ما كان أحد يقدر أن ينام ، وهو يحلم أننا ببلوغنا هذه الأرض ، فإن كثيراً من النعم وكثيراً من المصائب المحتومة ينتظرنا في الساحل حيث لا تزال بعضُ المواقد تتوهج . في تلك الأثناء ، جاءني /رودريغو دي تريانا / ليطلب بردة الحرير الموعود بها مَنْ يلمح الأرض أولاً . فأعطيتها له في الحال وبسرور كبير . ولكن الملاح ظل ثابتاً في مكانه كأنه ينتظر شيئاً آخر ؛ ثم ذكرني بعد صمت بجائزة العشرة آلاف مرابطية التي وهبها الملكان علاوة على البردة . فقلت له :

ـــ هذا ما ستحصل عليه حين نعود .

ـــ هل لي .....!

ـــ ماذا ؟

ـــ هل لي ، سيادة الأميرال ببعض النقود على الحساب ؟

ـــ ولأجل أي شيء ؟

ـــ كي أذهب إلى العاهرات .

ـــ ومن قال لك إنه توجد عاهرات هنا ؟

ــ إلى حيث يصل البحارة تكون عاهرات دائماً .

ــ النقود هنا لا قيمة لها . ففي هذه الأراضي ، حسبما علمت من حكايات ماركو بولو ، يُدفع ثمن كل شيء بقطع من الورق ، بحجم الكف ، مختومة بخاتم الخان الأكبر .

فانصرف رودريغو محزوناً ، ملقياً بردته على كتفيه ...

أما بالنسبة لجائزة العشرة آلاف مرابطية (وعلي أن أعترف به) فيمكنه أن يسلاها ــ وليحذرْ أن يطالب بالمزيد أو يتجاوز الحد في الصخب . لأني أعلم عنه أشياء لا يلائمه أن تعلم ــ؛ ولأنني وضعت يدي على هذه الجائزة لصالح بياتريس الحسناء الباسكية التي لي منها ولد ولما أعقد قراني عليها ؛ وهي تعاني منذ أمدٍ بعيد من هجري ونسياني لها ... وهما هجر ونسيان عائدان إلى البركة الملكية التي تدفّقت علي كتدفق نبع الخصب اليوناني ، فأغدقت عليّ ثروة قوامها ثلاث سفن مجهزة للإبحار ، على رغم أعدائي وغيظهم ، ونشوةٌ بسلوك طرق جديدة ، ومجدٌ نلته بوصولي إلى هنا هذه الليلة ، مترقباً طلوع شمس تبطيء ، تبطيء ــ اللعنة ــ ما أبطأها في الشروق ؛ وربما أيضاً خلودٌ في ذاكرة الناس ، لمنْ ، أتى من حيث أتى ويستطيع أن يشرئب إلى لقب موسع العالم .

كلا ! يا رودريغو ! لشد ما أخطأت ! سأحتفظ بجائزة العشرة آلاف مرابطية لي . أنا أيضاً كنت أستطيع أن أصرخ : الأرض ! لما رأيت القناديل ، ولم أفعل . كان بإمكاني أن أصرخ قبل أن تصرخ أنت ، ولم أقم به . لم أقم به لما لمحت الأرض ، وانحسرت عني الهموم ، لأن صوتي ما كان له أن يرتفع مثل صوت حارس بسيط ، كل همه أن ينال جائزة تبدو هزيلة أمام ثروتي الطارئة ، وإن بردة الحرير التي تلبسها ، يا رودريغو ، لم تعد تسع (مَنْ) كبُر في هذه اللحظة ، حتى صار بقامة أطلس الجبار . وهزيلة صارت جائزة العشرة آلاف مرابطية أمام ثروتي الطارفة .

وهي جائزة ستصب في يدي من أمتعتني ، يدي امرأة حملت وأنجبت في النهاية (ممن) اكتسب أبعاد : مبشر ، ونبي ، ومكتشف . أنا ، كائناً من كنت ، مثل إله

الحروب . فمنذ هذه اللحظة يجب أن أنادى بلقب الـ« دُوْن » . لأنني منذ هذه اللحظة ، وليعلم بذلك الجميع ويذيعوه : أنا أميرال البحر الأكبر ، ونائب الملك على جميع الجزر والأرض اليابسة التي اكتشفها أو تُكتشف تحت إمرتي ، وتوضع اليد عليها في البحر المحيط .

قضينا ساعات من الاضطراب الكبير والحيرة . وحسبت أن ليلي ليس بمنقض . ومع ذلك فها هو ينجلي بصبح طالما ترقبت بزوغه : فارتديت أبهى حللي ، وكذلك فعل الإسبان على متن السفن الأخرى . ورفعت من الخزانة الكبرى الراية الملكية ونصبتها في سارية . وكذلك رفعنا رايتي الصليب الأخضر اللتين يجب أن يحملهما قائدا السفينتين الأخريين ــ وهما ولدا قحبة كما تبين فيما بعد ــ وكانا يتبختران مزهوّين بتاجيهما المطرزين بالحرفين الأولين ف . أ[1]. وهذا الحرف الأخير عزيز على نفسي ؛ فلو ضمت إليه الأحرف الخمسة المكملة للإسم لكادت تتجسد أمامي صورة الشخص الذي أدين له باختياري ومنصبي . والآن ، يقوم الإسبان بنشاط كبير فوق السفن : أدوات من البرونز تتدحرج وتسحب ، وحدائد تصطك ببعضها . لأني قد أمرت أن تجهز المدافع والبنادق تحسباً لكل طارىء . ولقد نزلنا جميعاً إلى الأرض مسلحين . لأننا بعد انتظار ولّى فإن أي احتمال هو صحيح . يوجد ناس على مقربة منا . فحيث لا يوجد ناس لا توجد مواقد . ولقد اتضح لي استحالة تكوين فكرة عن طبيعة هؤلاء الناس . لقد قرأت ماركو بولو بإمعان . وسجّلت حكايات سفره بخط يدي . ولكنني قرأت أيضاً /خوان دي مونتي كوربينو / . ولكنني لم أذكره في أحاديثي لغاية في نفسي . وهو أيضاً قد انطلق من البندقية ووصل إلى مدينة كامبلوك الضخمة ، عاصمة الخان الأكبر ، حيث لم يكتفِ بإقامة كنيسة مسيحية بثلاثة أجراس ، وإنما عمل على تعميد ستة عشر ألف إنسان ، وترجم المزامير إلى اللغة التتارية ، حتى أنه أسس جوقة من الأطفال لترتل بأصواتها الفضة مدائح إلهية . وهناك التقى بأوديريكو دي بردونيني (وإني أعرف هذا الأخير جيداً) الذي نصب نفسه رئيس أساقفة . وأسس كنيسة تحوّلت إلى كاتدرائية ، وصار له مساعدون وأتباع تواقون إلى أن يرسل إليهم عدد كبير من المبشرين . لقد لقي في هذه البلاد ــ وقد سُر لذلك ــ تسامحاً فذاً من أناس يرضون أي دين لا يمس مصالح الدولة . وهو تسامح كان ملائماً بالتأكيد لانتشار الهرطقة النسطورية المغيظة التي نهد حينئذ حبر اشبيليا الجليل لدحض أوهامها البغيضة في اشتقاقاته . فيحتمل ، إذاً ، أن يكون

(1) فرناندو وإيزابيل .

التبشير الذي قام به /خوان دي مونتي كوربينو / قد امتد إلى هذه الأصقاع ، أو أنه انتشر فيها بجهود الفرنسيسكان ، هؤلاء الناس المشائين !!

فإذا كان الأمر هكذا ، فليس أمامك يا كريستوبال ، يا كريستوباليّو[1] ، يا من اخترعت لنفسك أثناء الرحلة ، اسم كريستوفوروس ، يا مروّج المسيح ، أيها المتاجر بالمسيح ، يا سان كريستوبال المستغرق في نصوص تافهة بعيدة عن الإيمان ، أيها المدّعي حمل رسالة ، هي رسالة رجل الأقدار ، أو الرجل الوحيد الفرد ، أنت يا من قدّمت مشروعك إلى خير مزايد ، وانتهيت ببيع نفسك بمليون مُرابطية ، ليس أمامك ، أيها الخادع المخدوع ، إلا أن ترفع أشرعتك من جديد ، وتطوي دروب العودة وتذهب إلى الجحيم أنت وسفنك : /نينيا ، /بينتا/ و /سانتا ماريا / وتموت خجلاً على قدمي سيدتك بنت لاس آلتاس توريّس .

اعلم أيها البحار التائه ، إن أسوأ ما يحدث ذلك في هذه الساعة البائسة ـــ الساعة الثالثة ـــ هو أن تعترض الأناجيل سبيلك . حقاً إنك ، مُنحت على عجل وبإرادة من سيدتك رُتباً دُنيا في الرهبانية الفرنسيسكانية ، وسُمِح لك أن تلبس المسوح دون قبعة المسكنة .

ولكن ، ماذا تقول ، أيها الكاهن البوّاب ، والقارىء الضحل ، أيها المعزّم والقندلفت ضئيل الشأن ، أمام شماس أو أسقف يقول لك رافعاً يده : « ارجع ، لا حاجة لنا بك ها هنا » . إني آمل ألا تكون الأناجيل قد أبحرت في الاتجاه الذي أبحرت فيه سفني . إنه صراع « الكلمة » مع الكلمة ، كلمة ترحل إلى الشرق ، ويطلع عليها الفجر وهي ميمّمة شطر الغرب ؛ كلمة فيها إصرار غير معقول ، يمكن أن يقتلني جسماً وعملاً . وإنها لمعركة غير متكافئة . لذلك لم أحمل أناجيل على متن سفني ، ولا رجلَ دين يمكن أن يتلوها على الأقل . ولكنت أمرت بإطلاق المدافع والبنادق على الأناجيل الماثلة أمامي ، لو أتيح لي ذلك . ولكن ، كلا ! فإنها قد تهزأ بالطلقات من تحت أغلفتها المذهبة والمرصعة بالأحجار الكريمة . فإذا لم تقدر روما على الصمود أمامها ، فأنت أقل قدرة ، أيها

---

(١) تصغير كريستوبال

البحار البائس ، الذي يترقب فجراً طالما انتظره بشوق ، لتكشف له أنوار السماء إن كان ما قام به باطلاً ، أو يشمخ به مجداً وخلوداً . فلو أنّ متّى ومرقص ، ولوقا ، ويوحنا كانوا بانتظاري في الشاطىء الأدنى لكنت إذاً ، من الخائبين . فأنا أتخلى أمام الأجيال ، عن أن أكون كريستوفوروس لأعود إلى حانة سافونا ، إذا لم أعثر على قدرٍ كبير من التوابل ، كبير جداً لترقص السيدة قرفة رقصة الثراء مع السيد كبش القرنفل . ولكنني قلت إن الخان الأكبر هو الحاكم هنا . وإن رعاياه ، وقد أفسدتهم التجارة معنا ، لا يقدمون الفلفل ولا العطور إلا إذا دُفع لقاءها ثمن غالٍ ، وهو ثمن أعلى من ثمن التوافه التي ابتعتها في الساعة الأخيرة ، وحملتها على سفني للمقايضة . أما من جهة الذهب واللآلىء ، فهم أقل بذلاً لها من الزنجبيل الذي أطنب /خوان دي مونتي كوربينو / في وصفه وشبهه بنبات ذنب الفرس ... أما الإسبان فقد صلوا شكراً لله ، وكانوا مضطربين ، فاقدي الصبر ، وإن كان ذلك لأسباب تختلف عن أسبابي .

لقد ختمت الآن مغامرة البحر ، وبدأت مغامرة البر . وها هو الفجر يشرق على حين غرة . فجر يطلّ من فوقنا ، ويصعد مسرعاً في نثر أنواره ، حتى أني لم أرَ أبداً ، أعجوبة ضوئية تشبهها في أية مملكة أعرفها . أخذت أنظر بحدّة . فلم تبد لعيني : أبنية ولا بيوت ولا قلاع ولا بروج ولا تحصينات . ولم يبرز صليب واحد من بين الأشجار . إذاً ، لا توجد كنائس كما يبدو . لا توجد كنائس ؛ وأنا لن أسمع ، إذاً ، صوت ناقوس مخيف مصنوع من برونز ... لا شيء إلا ضوضاء مجاذيفنا اللطيفة ، تحرك ماءً هادئاً وشفافاً شفافية عجيبة حتى أني أرى في قاعه الرملي قواقع كبيرة ذات أشكال جديدة . والآن تحوّل قلقي إلى حبور . إننا الآن على الأرض حيث تنبت أشجار من أصل نجهله ، ما عدا نخلات تشبه بعض الشبه النخيل في أفريقيا . أنجزنا فوراً شكليّات وضع اليد وأخذنا نثبته كتابة وإشهاداً . وهو أمر لم يتمه الكاتب /رودريغيث دي اسكوبيدا / من الذعر . فقد كانت ثمة ضوضاء أصوات بين الأعشاب . وأخذت الأوراق تتباعد ، وألفينا أنفسنا فجأة محاطين بجمع من الناس . وبعد أن زالت عنا عقدة الخوف الأولى ، انفجر كثير منا بالضحك ، لأن (ما) كان يقترب منا هم

أناس عراة ، لا يستر عوراتهم إلا ما يشبه منديلاً صغيراً أبيض . أما نحن ــ ما شاء الله ــ فقد لبسنا الدروع والزرد والخوذ ترقباً لمعركة يشنها علينا محاربون مخيفون ، شاكو السلاح . أما بشأن سلاحهم ، هم ، فلا يعدو أن يكون نبالاً تشبه مناخز الدواب . وخيل لي أنهم لا بد بؤساء ، بؤساء جداً بؤساء حتى الرعب ، ما داموا يسيرون (بالزلط) أو تقريباً هكذا ، كما ولدتهم أمهاتهم ، حتى فتاة منهم أخذ رجالنا يلتهمون ثدييها المنطلقين ، بأعينهم ، تواقين لمسهما بنهم ألهب غضبي ، ودفعني لإطلاق صيحات لا تتلاءم والسلوك السامي الذي يجب أن يتحلّى به حامل راية جلالتيهما . بعضهم كان يحمل ببغاءات خضراً ما كانت تنطق ، ربما بسبب الخوف ، وشللاً من القطن هو أقل جودة بالتأكيد مما يحصل عليه في أراضٍ أخرى من الهند . وكانوا يبادلون ذلك كله بخرزات من الزجاج ، وأجراس ــ وبخاصة أجراس يدنونها من آذانهم ليسمعوا رنينها على نحو أفضل ــ وخواتم من النحاس ؛ أشياء لا تساوي بصقة ، أنزلناها إلى الشاطىء أملاً بمبادلات متوقعة . ولم ننس القبعات الملوّنة العديدة التي ابتعتها من بازارات اشبيليا ، لما تذكرت عشية الإقلاع ، أن أقزام فنلنديا مولعون للغاية بالنسج والأقمشة الملونة ، فأعطونا لقاء هذه السخافات ببغاءاتهم وأقطانهم . وقد بدوا لنا أناساً وديعين خاملين على استعداد ليكونوا خدماً مطيعين وبسطاء . ليسوا سوداً ولا بيضاً ، ولكنهم أقرب إلى لون أهالي جزر الكناري ؛ شعورهم غير مجعّدة ولكنها مرسلة وخشنة كشعور الخيل . ولم نقم بعمل آخر ذلك اليوم ، منفعلين بالاكتشاف ووضع اليد على الجزيرة ، وراغبين في الراحة بعد ليلة لم يغمض لنا فيها جفن .

« إلى أين وصلنا سيدي الأميرال » . سألني مارتن ألونسو ، وهو ينضح بالسم المدفون تحت قناع وجهه الضاحك . فأجبته :

ــ « المسألة هي أننا وصلنا » .

ولما عدنا إلى متن سفينة القيادة رحت ، بدافع من شعوري بكبرياء مسوّغة ، أنظر بازدراء إلى هؤلاء السفلة الذين لليلتين خلتا ، رفعوا أصواتهم وحتى قبضاتهم وهم على أهبة التمرد . ولكن لا الأندلسيون المهذارون وكلهم تقريباً نجارون ، وصانعوا براميل وعمال

جلفطة ، ولا اليهود الذين بانضمامهم إليّ نجوا من الطرد ، ولا المسيحيّون الأغرار الذين ما زالوا يولون وجوههم شطر مكة عند مغيب كل شمس ، هؤلاء جميعاً لم يكونوا في خسة الباسكيين الملعونين العصاة ، يابسي الرؤوس والوقحين الملتفين حول /خوان دي لاكوسا / المحدود للغاية في معرفته بالخرائط الجغرافية ، ولكنه متبجّح بعلمه دائماً . (هذا ما علمته من نمّام آخر ، بيثنتي يانييس ، وهو تيس مثل مارتن ألونسو ، ولكنه ربان أفضل) ، إذ كان يؤكد أني بحار مغرور وطماع ، وأني ملاح غرف القصور ، وأني أكذب في خطوط العرض ، وأزوّر في الأميال البحرية ، وأني عاجز عن السير بمشروع كهذا حتى النهاية .

الآن ، ترن أجراس رنيناً هادئاً وسط رذاذ ناعم يبلل أسطح المدينة التي يحتمي فيها ظلي ، بطل غروب أيامي ذاتها . عبر الشارع يمر قطيع من الماشية . ورجل الدين لما يصل . وهذا الضوء الخريفي ، وإن كنا في أيار ، ينتشلني من ذكرياتي عن الجزر المتلألئة حيث كان الشيطان بانتظاري ليوقعني في حبائله . ـــ ربما لأنني لم أحمل رجل دين معي ، أو ربما لأنني لم أفكر أبداً بتحويل أحد إلى الإيمان ـــ وهذه الحبائل مثبتة هنا في دفاتر حكاياتي عن الأسفار ، التي أحتفظ بها تحت المخدة والتي أسحبها الآن بيد راعشة ـــ خائفة من نفسها ، لأعيد قراءة ما أراه في هذه اللحظات المتأخرة ، مجموعة موسعة من الأكاذيب ؛ وهذا ما سأعترف به لرجل الدين الذي شد ما أبطأ في القدوم .

مجموعة أكاذيب ، افتتحت في الثالث عشر من تشرين الأول بكلمة : /ذهب/ . لأني رجعت ذلك السبت إلى الجزيرة التي اكتشفناها البارحة ، عازماً على أن أرى ماذا يمكن أن نستخلص منها غير الببغاءات ، (ولم نعد نعرف ماذا نعمل بهذه الببغاءات التي تزرق حتى غطت خشب ظهر السفن بزرق أبيض ، أبيض كالحليب) ، وغير الأقطان ، لما لمحت بذعر مدهوش أن بعض الهنود (نُسميهم هنوداً ، لأننا كنا ، على الأرجح ، في طليعة أراضٍ طبيعية من أراضي الهند الغربية) يحملون شذرات من ذهب معلقة بأنوفهم . فصحت : ذهب !! وأحسست عند رؤية هذه الأعجوبة بهياج داخلي ، ونما في نفسي جشع لم يُعرف مثله أبداً . كانت يداي ترتعشان ، وفقدت لبي . ورحت ، وأنا أرتعد

وأتصبب عرقاً ، أقذف هؤلاء الناس بأسئلة لجوجة عن طريق الإشارات لأعرف من أين يُؤتى بهذا الذهب ، وكيف يحصلون عليه ، وأين يرقد ، وكيف يستخرجونه وكيف يستخلصونه ، لأنهم ، حسبما يبدو ، لا يملكون قوالب ولا يعرفون الحوجلات . ورحت أجس المعدن ، وأروزه وأعجمه[1] ، وأختبره وأجفف اللعاب عنه بمنديل ، لأعرضه للشمس وأفحصه في ضوء الشمس ، وأجعله يلمع في ضوء الشمس لمعان الذهب ، وأضعه في راحتي يدي لأتأكد من أنه ذهب ، ذهب تام ، ذهب حقيقي ، ذهب قانوني . أما هؤلاء الذين يحملونه فقد وقفوا مخبولين ، ممسكين بزينتهم ، كما يُمسك الثور من خيشومه ، وقد هزتهم لجاجتي وأثارتهم ، فأعلموني أني إذا سرت باتجاه الجنوب فسأجد جزيرة عليها ملك كبير لديه آنية ضخمة مليئة بالذهب ؛ وأنه لا يوجد ذهب في هذه المملكة فحسب ، وإنما أحجار كريمة أيضاً . وإن هذه الجزيرة بالوصف الذي سمعته ، لا بد أن تكون أشبه بسيبانغو أكثر منهــا بفنلنديا . ولكن روحاً شريرة اجتاحتني واستقرت في داخلي بغتة ، ودفعتني إلى الحركة . فمضيت إلى العنف ، وأمرت بأخذ سبعة من هؤلاء القوم أسرى ، وقد حشرناهم تحت قرع السياط في جوف السفينة ، دون مبالاة بصراخهم ونحيبهم ، أو باحتجاجات آخرين هددتهم بسيفي ـــ وقد لمسوا سيوفنا ، وعرفوا أنها باترة وأنها تفتح للدم مسارب ـــ . وامتطينا ظهر البحر من جديد يوم الأحد (يوم الله) ، دون أن تأخذنا شفقة بدموع الأسرى الذين ربطناهم في مقدمة السفينة ليكونوا أدلاء لنا في رحلتنا . فمنذ هذا اليوم ستُمسي كلمة /ذهب / هي الأكثر تكراراً في مذكراتي ورواياتي ورسائلي ، كأنما هي وسواس شيطاني . ولكن كان يوجد قليل منه في الجزيرة التي اكتشفناها ، ولكنها مأهولة دائماً برجال عراة وبنساء لا يلبسن شيئاً آخر ، كما كتبت لجلالتيهما ، إلا « حاجات صغيرة لا تكاد تستر عوراتهن » . وهي عورات كانت تتحراها عيناي أحياناً ، وإن يكن ذلك عرضاً ، كما تتحراها أعين الإسبان تحرياً دائباً حتى أني هددتهم بالعقاب إن تركوا لأنفسهم العنان لأي

---

(١) عجمه : عضه ليعرف صلابته .

دافع من دوافع الدعارة . (وإن انتفخت فتحات سراويلهم كما ينبغي لها) . فإن كنت أنا أمتنع ، فعليهم هم أيضاً أن يمتنعوا . فإننا لم نأت إلى هنا « للشرشحة » وإنما جئنا في طلب الذهب . الذهب الذي أخذ يظهر ويطل من كل جزيرة : الذهب الذي سيكون ، من الآن فصاعداً ، دليلنا ، والبوصلة الهادية لنا في تنقلاتنا ، لا سيما أننا صرنا في الطريق الصحيح نحو الذهب ، مثابرين على بيع القبعات الحمر ، وجريسات الطيور الجوارح ، وقذارات أخرى لا تساوي مرابطية واحدة ، حصلنا لقاءها على قدر طيب من شذور المعدن المعبود اللامع ؛ ولقد تبجحت بسرور أمام الملكين ، بشأن هذا التفاوت في المبادلات .

ولكنني ما كنت لأكتفي بالذهب المعلّق بالأنوف والآذان . فهم يحدثونني الآن عن أرض كوبلا الكبيرة ، أو أرض كوبا التي يبدو أنها تحوي ذهباً ولآلىء أيضاً ، وحتى توابل . وهي كانت قصدنا ولقد بلغناها يوم أحد ، يوم الله ، اليوم المقدس .

لقد كنت صادقاً لما كتبت إن تلك الأرض بدت أجمل ما وقعت عليه عين إنسان . فهي خصيبة ، مرتفعة ، متنوعة التضاريس ، متينة ، كأنها مقدودة بالعمق . وهي أغنى بالأخضر الأنضر ، وأوسع ، ونخيلها أبسق ، وجداولها أغزر ، ومرتفعاتها أعلى ووهادها أخفض مما أبصرناه حتى الآن في جزر ، هي ، حسبما أرى وأعترف به ، جزر مجنونة ، هائمة ، حالمة ، غريبة عن كل الخرائط والمعاني التي تعلمتها . كان لا بد من وصف هذه الجزيرة الجديدة . ولكن حين حاولت ذلك ألفيت نفسي في حيرة . حيرة من يتعيّن عليه تسمية أشياء تختلف اختلافاً تاماً عن كل الأشياء المعروفة . أشياء ينبغي أن يكون لها أسماء . لأن أي شيء لا إسم له لا يمكن تخيله . ولكنني أجهل هذه الأسماء ، وأنا لست آدم جديداً مختاراً من خالقه فأضع للأشياء أسماءها . كنت قادراً ، حقاً ، على اختراع كلمات . ولكن الكلمة وحدها لا تفصح عن الشيء ، إن لم يكن الشيء معروفاً من قبل . فلإدراك معنى منضدة ، إذا قيل : منضدة ، كان واجباً أن يكون لدى السامع فكرة ــ منضدة مع كل الصفات الناجمة عن التنضيد . ولكن في هذا المنظر الخلاب الذي أتأمله

هنا ، فإن كلمة /نخيل / هي وحدها لها قيمة تخيلية . ففي أفريقيا نخيل ، ويوجد نخيل في أماكن متفرقة وإن كان مختلفاً عن النخيل ها هنا .

ولذلك فإن كلمة نخيل تقترن بتصور معروف ، هو أوضح في أذهان من يعلمون بسبب من طقوس دينهم ، ما يعنيه أحد الشعانين ، لأننا يوم أحد بلغنا هذه الجزيرة . ولما حاولت الانتقال من أحرف كلمة (نخيل) الأربعة ، توقفت ريشة مذكراتي عن المتابعة . فلو كنت ذا بلاغة يتقن الإسبانية بطلاقة أفضل مما أتقنها ، أو كنت شاعراً يلجأ إلى الصور والإستعارات لمضيت إلى أبعد مما مضيت ، وأدركت وصف ما لم أقدر على وصفه : وصف هذه الأشجار الملتفة التي أجهل أصولها . فها هنا شجرة ذات أوراق لونها رمادي في القفا وأخضر في الوجه ، حين تسقط وتجف ، تنكمش على نفسها كأيد تبحث عن شيء تتشبث به . وهذي شجرة أخرى ضاربة إلى الحمرة ذات جذع تغطيه قشور شفّافة شفافية حراشف أفاعٍ منسلخة . وثمة دوحة منفردة في الجانب الأقصى ، تتوسط سهلاً صغيراً ؛ وهي ذات أفنان تمتد أفقياً كعقد يحيط بأعلى قمة جذع ثخين مليء بالأشواك ، له شكل عمود بوضع رأسي ... ثم الثمار . فهذي ثمار ذات لب بنفسجي وعروق مغلقة بخيوط منحنية من الجيلاتين . وتلك ثمار أخرى ، أكبر أو أصغر ، لا تشبه الواحدة منها أختها ، ذات أحشاء بيض ، عطرة ، طيبة المذاق ، طرية دائماً وريانة في أوج قيظ الظهيرة ... كل شيء هنا طريف ونادر ولطيف على ندرته ... ولكن لا شيء منها ذو فائدة عظيمة حتى الآن . فلا السيدة جوزة الطيب ، ولا السيد فلفل ، ولا السيدة قرفة ولا السيد حبهال ، أطلت علينا من أي مكان . أما بشأن الذهب فيقال إنه وافر بكميات غزيرة . كنت أعتقد أن الأوان قد آن كي يسطع المعدن الإلهي . فقد بدت بشائر تدل على وجوده في هذه الجزر ، لما برزت أمامي مشكلة جديدة : إن السفن الثلاث تعني ديناً يبلغ مليونين .لم أكن أبالي كثيراً بمليون المصرفي سنتنخيل . فالملوك يسددون ديونهم كيفما ومتى يقدرون . أما بشأن جواهر كولومبا فهي جواهر عائدة لأحد الصاغة . وقد كانت ذكية بما يكفي ، وسيدة كما ينبغي لها أن تكون ، فلم تستردها في هذه الأوقات وخاصة أيام رحيل اليهود . ولكن يبقى المليون الآخر .

المليون العائد إلى الجنويين في اشبيليا ، الذين لن يبقوا علي حياً إذا عدت من هنا صفر اليدين . الأفضل إفساح المجال للزمن : « إنها الأرض الأجمل التي وقعت عليها عين إنسان » . وهكذا تابعت اتقان أغنيتنا المرحة . أما المناظر الطبيعية فليس عليّ أن أصدع رأسي : أقول إن الجبال الزرق الصغيرة تتفرق في البعيد مثل جبال صقلية ، وإن كانت لا تشبه في شيء جبال صقلية . وأقول إن العشب هو كبير مثل أعشاب الأندلس في نيسان وأيار ، وإن كان لا يوجد شيء هنا يشبه نظيره في الأندلس . وأقول إن عنادل تغني ، حيث تصفّر عصافير صغيرة رمادية ذات منقار عريض أسود تشبه عصافير الدوري . وأتحدث عن حقول قشتالة حيث لا شيء هنا ، أجل لا شيء ، يذكرني بحقول قشتالة . لم أر أشجار توابل ، وإن كنت متفائلاً بأنه لا بد من وجودها . وأتكلم عن مناجم ذهب غير أني لا أعرف واحداً منها ، وأتكلم عن لآلىء ، لآلىء موفورة فقط لأنني رأيت بعض الأصداف فاعتبرتها أدلة على وجودها . ولكنني قلت شيئاً واحداً مؤكداً : إنّ الكلاب هنا لا تنبح أبداً . ولكنني بالكلاب ، وإن كانت لا تنبح ، لن أدفع المليون المدين بها إلى الجنويين الخبثاء في اشبيليا ، الذين لا يتورعون عن إرسال أمهاتهم إلى السجون من أجل خمسين مرابطية . والأسوأ من هذا كله ، هو أنني لا أملك أدنى تصور عن المكان الذي نوجد فيه . فأرض كولبا أو كوبا يمكن أن تكون في آن واحد جنوبي فنلنديا الأقصى أو ساحل سيبانغو الغربي . ولا ننسَ أن أراضي الهند ثلاث . وأنا أقول إنها قارة ، أرض يابسة لا حدود لاتساعها . أما خوان دي لاكوسا ، وهو على خلاف دائم معي ، فلا أقول شيئاً حتى ينقضه بشيء آخر ، فهو يؤكد أنها جزيرة . إني لا أعرف كيف أفكر . ولكنني أقول إنها قارة وكفى . ألست الأميرال ، وأعرف ما أقول ؟! يتكلم الآخر عن الاستدارة ، فأقول له ما دامت ليست جزيرة فليس هناك استدارة . اللعنة ! انتهينا ! وعدت فتناولت ريشتي وتابعت كتابة تقريري عن الأشياء الجديدة ، ومجموعة ملاحظاتي المهمة . وأؤكد ، أؤكد لنفسي أني قريباً جداً سأرى وجه الخان الأكبر . (ووجه الخان الأكبر ، له رنين الذهب : ذهب منشور ، ذهب مسبوك ، ذهب في صناديق ، ذهب في براميل . موسيقى الذهب المسكوك العذبة تسّاقط قافزة فوق منضدة الصيرفي : موسيقى سماوية) .

لقد اقتنعت بسرعة أنني لن أرى في هذه الجزيرة وجه الخان الأكبر الجامد والرائع . فأرسلت مبعوثين اثنين ، ماهرين لينظرا إن كانت توجد مدينة هنا أو تنتصب قلعة مهمة . (لويس دي توريّس الذي يتكلم — كما قلت العبرية والعربية والكلدانية ، ورودريغيث دي خيريس الذي يعرف كثيراً من لهجات أفريقيا ...) وقد عادا ليخبراني أنهما عثرا فقط على قرية من الأكواخ ، يقطنها هنود ، يشبهون في كل شيء من رأيناهم حتى الآن . ولم يجدوا أية علامات على توفر الذهب هنا . وعرضا عليهم نماذج صغيرة من القرفة وكبش القرنفل ولم يعرف أحد منهم هذه التوابل . إذاً ، كانت تبتعد عني مرة أخرى مملكة سيبانغو . ولكن لم يفتّ في عضدي إمكانية متابعة الإبحار على العمياء في خطوط غير معروفة . بل قوّى من عزمي أنّي خلّفت ورائي جزيرتين عمدتهما وسجلتهما في جغرافية العالم ، وأخرجتهما من ظلمة أبقتهما فيها لغات بربرية استمدتا اسميهما من مفرداتها . وتلقّت الأولى الاسم الجليل : سانتا ماريّا دي كونثبثيون . والأخرى أسماً محبباً ، جد محبب إليّ : إيزابيلا . وفكرت أن سيدتي قد تقرأ ذات مرة تقريري عن الرحلة ، فعنيتُ عناية فائقة أن أصف ، كما لم أصف بعدئذ أي مكانٍ آخر ، روعة الخمائل ، وخضرة النباتات التي تذكرني (.... وليفهم ذلك جيداً) بملذات شهر نيسان في الأندلس ، بعطوره الناعمة ، ورائحة ثماره (وليُفهم ذلك مرة أخرى) و« إن غناء العصافير هو آسر حتى أن المرء لا يرغب أبداً أن يبرح هذا المكان ... » . ولكني بعد أن تعرّفت بعض الشيء على ساحل كوبا هذه ، كان عليّ الآن أن أمضي قدماً ، بحثاً عن الذهب . وقد فرّ منا اثنان من الهنود السبعة الذين أسرناهم في الجزيرة . أما الباقون ، فكنت أخدعهم (وتستمر الأكاذيب) منكراً أن لدي نية في حملهم إلى إسبانيا لعرضهم في البلاط . وكنت أؤكد لهم أني سأعيدهم إلى أرضهم محمّلين بهدايا جمة ، قدر ما نعثر على كمية هامة من الذهب . على أن طعامنا كان يسبب لهم نفوراً .

فلم يرغبوا بتذوق اللحم المقدد أو الجبن أو البسكويت ، قانعين فقط ببعض الأسماك التي تصاد من البحر أمام أعينهم . حتى هذه ، لم يرغبوا بقليها بزيتنا الزنخ ، وإنما بتلويحها تلويحاً خفيفاً على النار . ولكنني عوّدتهم على شرب الخمر الذي كنا نحمله بوفرة . حتى أن

مزودينا بالمؤن ، دهشوا أيما دهشة لإلحاحي على خزن هذا المقدار الهائل من الدنان في العنابر .
ولقد أبدى الأسرى شكاً في أول الأمر ، لأنهم كانوا يحسبونه ، كما يبدو ، دماً . ولكنهم أولعوا بالخمر الأحمر سريعاً لما خبروا مفعوله . وها هم الآن يرفعون ، كل لحظة ، إبريقاً زوّدوا به ، طالبين المزيد والمزيد من الخمر . والحقيقة هي ، أني كنت أبقيهم سكارى ، ليلاً ونهاراً ، لأنهم بذلك يتخلون عن الأنين والنحيب مؤكدين لي ، حينما يحل الشراب عقدة لسانهم ، أننا صرنا قريبين جداً من الذهب ، وأننا سنصل عما قريب إلى الذهب . وليس إلى ذهب الرقائق أو قطع الزينة ، أو ذهب الصفائح المشغولة في التيجان والتماثيل ، بل إلى ذهب المنجم ، المنجم الكبير ، الماغنا منجم ، الذي يُخرج منه ذهب لا تكفي سفني الثلاث لتحميلها به . وكان خوان دي لاكوسا الذي عاد ليحيط نفسه بثلة من الباسكيين الذين لا أفقه لغتهم ، والغاليسيين اللئام والنمامين ، كان هذا (الخوان) يؤكد في جولاته الليلية (إذْ كان يوجد دائماً من ينقل إليّ أخباره) ، أن هؤلاء الهنود يخدعونني ، ويصفون لي سرابات من الذهب لتهدئة رغباتي ، فأغفل عن حراستهم ، ويجدوا فرصة سانحة للهرب ، كما فعل الاثنان الآخران . ولكننا كنا نمضي قدماً إلى الأمام ، إلى الأمام دائماً ، ونحن ندور الآن حول أرض هاييتي الرائعة ، التي أسميتها ، لجمالها ، اسبنيولا ، تقديراً مني فيما لو أسست مدينة فيها فسوف أدعوها ايزابيلا . ولكنني ، للمرة الثانية، لم ألقَ إلا خيبة الأمل . لأنه لا شيء مما رأيناه في الأرض المكتشفة الجديدة ، يدل على أننا كنا نقترب من اسيبانغو أو أية مقاطعة يحكمها أحد أتباع الخان الأكبر . ولكننا الآن لقينا ، أجل لقينا ملوكاً (ملوكاً يُسمونهم هنا كاثيكيس — شيوخ قبيلة) . ولكنهم كانوا ملوكاً عراة . (من يقدر على تصور شيء كهذا ؟!) تصحبهم ملكات حاسرات الأثداء ، ولا يضعن لستر ما تحرص كل امرأة على ستره إلا نسيجاً بحجم منديل صغير مطرز ، كالذي تستعمله القزمات اللاتي يُحتفظ بهن في القصور لتسلية بنات الملوك والنبلاء ورعايتهن . فيا لها من بلاطات ملوك عراة !! شيء لا يصدقه من توحي إليه كلمة (بلاط) برؤية القصور ، والنبلاء ، والتيجان والمخامل والأرجوان الذي يثير في النفس ....

كان نيرون دي طربيه ينظر
إلى روما كيف تحترق .

وأمام هؤلاء الملوك ــ إن كان ملكاً من يسير وعورته بارزة ــ أمامهم كنت أقوم بالاحتفالات المألوفة : أرفع راية ملكيّ المسيحيين ، وأقطع بعض الأغصان والأوراق بسيفي ، وأعلن ثلاث مرات أني أضع يدي على هذه الأرض باسم جلالتيهما ؛ وأضيف : إني مستعد أن أقاتل عنها بسيفي من ينازعني فيها ، وأشهد على ذلك وأثبته في وثيقة يحررها رودريغيث دي اسكوبيدا . ولكنّ الأمر المغيظ في الواقع ، هو أنه بعد ركوعي وإعلاني وتحدياتي المتبجحة ، فإن أي منازع ما كان يظهر في أي مكان . كل شيء كان يبقى كما كان من ذي قبل . فلوضع اليد على أية منطقة في الدنيا ، يجب قهر عدو أو إذلال حاكم ، أو إخضاع شعب أو تلقي مفاتيح مدينة ، وقبول قسم بالطاعة . ولكن لم يجر شيء من هذا القبيل هنا . لا شيء كان يتبدل ، ولا أحد كان يقاتل ، ولا يبدو أن أحداً كان يحفل باحتفالاتنا ولا بإعلاناتنا ولا بأعمالنا . ويبدو أنهم كانوا يقولون لبعضهم بعضاً ، وأحياناً بابتسامة تثير الحنق : « أي نعم ! أي نعم ! من جهتنا لا توجد عقبة ... فليتابعوا » كانوا يقدمون ببغاءات ، وقد سئمنا كثرة هذه الببغاءات الخضر الصغيرة ذات العيون الخزر التي لم تتعلم كلمة واحدة من لغتنا ، ويحملون كميات من جزز الصوف حتى لم نعد نعرف أين نحفظها ، وأباريق ذات أشكال فجة للغاية . ثم يلبسون لقاءها قبعاتنا الحمر ويدقون الأجراس . كل ذلك ، كان يبدو لهم آية في اللطف . وينفجرون في قهقهات وهم يضربون بأيديهم على كروشهم . وصرت مالكاً لأراضيهم ، دون أن يدروا من الأمر شيئاً ، وخاصة أن الامتلاك باسم الخ .. الخ . (كالعادة دائماً) ، لم يجلب لي منافع كبيرة . وأعود إلى سفينتي بقارب يتهادى فوق شعب المرجان التي تبدو لي تحت هذه الشمس المتبدلة سراباً مغموراً ، حيث كل شيء له مظهر شيء مغاير . ويمكن للمرء أن يعتقد ، إذا ما رأى الألعاب اللونية هذه ، أن فيها لمعان زمرد الهند السحري ، وماسها وعقيقها ، وبريق مرمر بلاد فارس ، حتى وهج الليِنكور الذي ينشأ كما هو معروف من بول الوشق ، والدراغونيت الذي يخرج من رأس التنين .

ولكن « يمكن للمرء أن يعتقد » فقط ، لأنك لو غمست يدك وأمسكت بشيء ، فإن أصابعك تدمى دون فائدة ترجى ، إلا أن تنتشل شيئاً حين يجف يصير شبيهاً بقطعة من غصن متعفن .

قدم خمسة ، بل ستة بل سبعة من ملوك هذه الجزيرة لتحيتي . (هذا على الأقل ما فهمته أنا ، وإن كان خوان دي لاكوسا يقول إنهم جاؤوا ليتفرّجوا على شكلي) . ملوك ممّن ألِفناهم دائماً . ملوك بدلاً من أن يلبسوا الأرجوان الملكي ، كانوا يرتدون حلية واحدة هي غطاء بسيط يحجب خصيّهم . وإن هذا العرض من « الجلالات » العارية جعلني أدرك أننا ما زلنا بعيدين جداً عن سيبانغو الأسطورية ، كما جاءت في الحوليات الإيطالية . لأن هذه قصورها مسقوفة بالذهب ، وأن السفراء المسيحيين يُستقبلون فيها في بلاطات تتلألأ بالذهب والأحجار الكريمة ، ويلقون فيها أسياداً مصفحين بالذهب ، يحيط بهم وزراء ومستشارون يرتدون حللاً ذهبية . ومآدبهم تقدم على أغطية ذهبية ، يؤتى خلالها بطواويس ترقص رقصاً إيطالياً على أنغام الموسيقى ، وبأسود وديعة ـــ مثل الأسد الذي كان يصحب سان خيرونيمو ـــ تحييهم بانخناعة تؤدى بطريقة لطيفة ؛ وبقرود مهرجة وطيور مغردة ، كانت تغرد بأوامر من أسيادها ، في حين كانت كؤوس الخمر تطير كالحمائم من أيدي رؤساء السقاة وتستقر على المائدة دون أن تندلق منها قطرة واحدة . وهذي أعجوبة وصفها ماركو بولو وأدوديريكو دي بَرْدونوني ـــ ويفترض أنها كانت كؤوساً من ذهب . من ذهب ، لأن كل شيء من ذهب ، في بلاد العجائب التي أبحث عنها بشعور مخفق بأني أبتعد عنها في كل خطوة . فربما عثرنا عليها لو أبحرنا بعيداً باتجاه الجنوب ، أو بعيداً شمالي جزيرة ايزابيلا ....

والآن ، فإن هؤلاء التيوس من الهنود لا يعملون شيئاً آخر سوى تضليلي : فهنود جزيرة اسبنيولا ربما يسعون لإبعادي عن مناجم الذهب ، فيقولون لي دائماً إنها هناك ، وإنها لا تزال بعيدة ، بعيدة ولكن ليس بعداً كبيراً ، وإننا على وشك أن نصل ، ملحّين عليّ أن أتابع السير . أما الهنود الذين حملناهم أسرى ، فكانوا على العكس من ذلك ، يقولون لي

من المؤكد كيلا يبتعدوا كثيراً عن ديارهم) إني إذا اتّبعت هذه النصائح فقد نصل إلى رض يقطنها أُكلة لحوم البشر الذين لهم رؤوس كلاب فيها عين واحدة ، مسوخ تتغذى على دم الإنسان ولحمه . ولكني ، مع ذلك ، لم أتوصل إلى معرفة مقر الكنز الهائل الذي أسعى وراءه . ولئن كانت جزيرة اسبنيولا أغنى بالذهب من جزيرة كوبا ، إذا حكمنا على ذلك من زينة ملوكها ومن القطع التي أهديت لنا ، فإنّ عِرْقَ المعدن ، العرقَ الأُم ، المنجم ، المنجم الكبير ، ماغنامينا الذي ذكره ، وردد ذكره الرحّالة البنادقة ــ هذا المنجم لن يظهر في أي مكان. وإن هذا المنجم، المنجم الكبير، الماغنامينا قد تحوّل عندي إلى وسواس شيطاني.

ففي هذه اللحظات التي يغشاني الموت فيها بانتظار رجل الدين الذي تأخر عن المجيء كثيراً، أقرأ في أوراق صفر لا تزال مفعمة بروائح مراسي بعيدة؛ إنها أوراق تقريري عن رحلتي الأولى. وإني لأنتفض رعباً وندامة وخجلاً حين أرى كلمة /ذهــب / تتكرر فيها مرات لا تحصى ، خاصة أني أتأهب للقاء المنيّة ، فلبست مسوح الفرنسيسكان الفقراء ، فقراء لأنهم أقاموا رهبانيتهم على الفقر . ولا محيد من أن يكونوا فقراء لما تزوجوا ، مثلما القديس دي آسيس « سيدة الفقر » ... وكأن هذا المخطوط قد أصابه مسّ من سحر أسود ، أو هبّ عليه نفس جهنمي فدنّسه ، حتى ليبدو أنه يصف هاثاً وراء أرض العجل الذهبي أكثر مما يصف البحث عن أرض الميعاد من أجل إنقاذ أرواح ملايين البشر الغارقة في ظلمات الوثنية الآثمة . ولقد صرت أخجل من نفسي حين أرى أنني قمت ، مثلاً ، يوم ٢٤ كانون الأول بطبع كلمة ذهب خمس مرات في عشرة أسطر تبدو كأنها منسوخة من كتاب سحري سيميائي ، في وقت كان يتعيّن عليّ فيه أن أتأمل كما يفعل كل فرنسيسكاني مغزى حدث الميلاد الإلهي . وبعد يومين من ذلك حلّ عيد سان اسطفان . أول شهداء العقيدة ، الذي نرفع صليبه فوق أشرعتنا . فعوضاً عن أن أمعن النظر بميتته الطوباوية ــ رجماً بحجارة وحصي هي أغلى من كل ذهب ــ طبعت كلمة /ذ هـ ـب / اثنتي عشرة مرة في تقرير لم يُذكر فيه اسم الله إلا تتمة لعبارة لغوية روتينية . لأن /عبارة لغوية روتينية / صارت واقعاً . فقد ذكر اسم الله القدير أربع عشرة مرة في تقرير عام ، في حين وردت كلمة ذ هـ ـب أكثر من مئتي مرة . وإني لأعترف الآن بذعر أن كلمة « الله » استخدمت تقريباً ، على سبيل المجاملة مقترنة باسمي جلالتيهما خلال عرض متملق ، فيه نوع من الضراعة المنافقة مثل : بعون لله ، أو بفضل الله ، إن لم أقل تحت ستار من التقوى الزائفة النتنة كرائحة الكبريت أو رائحة ظلف الشيطان : « لعل الرب يقود خطاي إلى حيث يتوفر الذهب » . ولكنني ، مع هذا كله ، طبعت في مخطوطي يوم ١٢ كانون الأول طبعاً متقناً اسم « يسوع المسيح » .

وكان ذلك مرة واحدة فقط . وبخلاف هذا اليوم ، يندر أن أتذكر أني مسيحي . وحين أفعل فإني أضرع إلى الله والسيد المسيح بطريقة تكشف الأساس الحقيقي لذهن تغذى من العهد القديم أكثر مما غذته الأناجيل وهو أقرب إلى غضبات رب الحروب وغفرانه ، أكثر من قربه إلى الرموز السامرية . وإن شئتم الحقيقة ، لم يكن معنا في رحلتنا لا متّى ولا مرقص ولا لوقا ولا يوحنا . لقد تُركت الكتب المقدسة في اسبانيا . فلم تعبر البحر المحيط ولم تُلق مراسيها في هذا الأراضي الجديدة ، لأنّ النية لم تكن متوفّرة لتعميد أحد ولا لإنقاذ أرواح هالكة ببؤس ، جهلاً منها بمعنى صليب صنعه النجارون من خشبتين متصالبتين ومربوطتين إلى بعضهما ، ثم نصبه الإسبان في أماكن شتى من السواحل المكتشفة . وتكراراً ، فقد بقيت الأناجيل في البيت ، ولم تطلق في جيوش من السور المقدسة على ديانات قائمة ها هنا ، كنت أتحاشى الحديث عنها ، وألمح وجودها في تماثيل منحوتة من الحجر على هيئة البشر . ولأنها حجر منحوت بسيط، فقد تركتها حيث هي دون أن ألح في السؤال .. ولقد تكلمت هنا ، في هذه الأوراق ، عن إله يمكن أن يكون رب إبراهيم ويعقوب ، الذي كلّم موسى من شجيرة العليق المشتعلة ، عن إله سابق على تجسده الذاتي ؛ وقد أغفلت إغفالاً تاماً روح القدس الذي غاب عن كتاباتي ، غياب اسم محمد . وإني أرتجف رعباً لما تنبّهت إلى ذلك في هذه الساعة التي تطغى فيها وشوشة المطر الناعم على دوس الجياد التي تجر براميل الزيت والخل في الشارع .

أقلب صفحات دفتري ، وأنا أبحث ، أبحث ، أبحث . ولكن كلا ، كلا ، كلا ، لم يكن كل ذلك إغفالاً تاماً للتجسد في هذه الصفحات . لأنني بعد أن أسميت الجزيرة الأولى التي اكتشفتها في ١٥ تشرين الأول /سانتا ماريّا دي كونثبثيون / وبعد أن احتفلت يوم ١٨ كانون الأول بعيد سانتا ماريا المنقذة آمراً بإطلاق المدافع ، فإنني أبديت يوم ١٤ شباط وأنا في طريق العودة ، أمارات عن اعترافي بقدرة العذراء الإلهية التي يجلها البحارة المسيحيون في شتى أنحاء الدنيا . وإني لأهاب تذكر تلك الليلة التي هاجت فيها الريح ، وتلاطمت الأمواج المرعبة التي « كانت تعترض السفينة وتحاصرها حتى لا تستطيع التقدم أو الخروج من وسطها » .

وقد ضاعت منا ، في أوج العاصفة ، سفينة /مارتن ألونسو / ، ولم يسبب لي هذا الأمر ضيقاً في تلك اللحظة . وإني أعترف بذلك وعليّ أن أعترف به . لأن هذا الملاح النابه دأب منذ زمن بعيد يشنّع عليّ ويعصي أوامري في تفكّك من السلطة ؛ حتى أنه ، قبيل العاصفة ، تاه عني بضعة أيام وهو يجوب سواحل /اسبنيولا/ باحثاً عن الذهب لحسابه . بتواطؤ مع سفلة آخرين من زمرته المتمردة النمامة التي يحرّضها دائماً خوان دي لاكوسا، والكسول الآخر الخبيث /إيّانيس / . (آهٍ من هؤلاء الإسبان ، الاسبان ، الاسبان !! كم مرة أغاظوني بميلهم إلى التشرذم والتفرّق ، وتشكيل تكتلات هي في خلاف دائم !! » . فهكذا ، كانت تطوقنا تلك الليلة عاصفة رهيبة حتى حسبت السفن سيبتلعها اليم . فعزوت تلك المصيبة ــ وأقولها الآن ــ « إلى رقّة إيماني ، وضعف ثقتي بالعناية الإلهية » ، وحينئذ ــ وفقط حينئذ ــ لجأت إلى حمى العذراء المنيع التي في أحشائها ــ كما قال سان أغسطين ــ « صار الله ابناًبصورة بشر » . وسمّيت دون تمييز من سيقوم بزيارة مقاماتها . فنذرت لسانتا ماريّا في غوادلوب شمعة كبيرة تزن خمس ليبرات . ونذرت واحدة أخرى مشابهة إلى سانتا ماريا في لوريتو ، في مقاطعة أنكونا قرب مقر البابا . ونذرت إلى سانتا ماريّا في موغير أن أسهر ليلة كاملة وأقيم قداساً . وصحنا جميعاً بصوت واحد إننا ما أن نطأ أرضاً يابسة حتى ننطلق في موكب تطهيري لنصلي في إحدى الكنائس التابعة لسيدتنا العذراء . وبعدئذ كتبت رسالة موجزة إلى جلالتيهما ووضعتها داخل برميل ، وأمرت بإلقائها في البحر حالما تبدأ السفن بالغرق . وزاد في اضطرابي ونفوري أن بعض السفلة جاؤوا وسط العاصفة المرعبة وقالوا لي : إذا غرقنا ، فذلك لجهلي بأمور البحر وغفلتي عن إثقال السفن بالصهاريج على نحو ملائم. ولم أدر أن العنابر قد فرغت من حمولاتها من اللحم المقدد والمملح والطحين والخمور التي استهلكت وشُربت منذ زمن بعيد ، في طريق الذهاب . ولأن هذا الأمر الأخير كان صحيحاً فقد رضيت الإذلال بالقبول به عقاباً أوقع بي لضعف إيماني . ومع ذلك كنت مسروراً بخبث ، لأن التيس مارتن ألونسو قد أضاع طريقه ، تلك الليلة المخيفة ؛ فلن يستطيع أن يشهد عليّ إن نجونا من غضب العناصر المرعب .... (مارتن

ألونسو كانت جرفته الرياح وألقت به على شواطىء غاليسيا . وكتب من هناك إلى الملكين رسالة مليئة بالتمائم ، ولكنني أحمد الله أن يكون قد قضى نحبه ، فلا تثقل عليّ وشاياته حين أتوجه إلى البلاط الملكي !!ولتصلّ روحه الفاجرة نيران جهنم) . أما من جهتي فقد أضيف عبء جديد يضغط على ضميري في ساعة المحنة الأخيرة هذه . فأنا لا أتذكر ، لا أتذكر — ربما لضلال في ذاكرتي الضعيفة — أني وفيت بالنذور التي نذرتها لسانتا ماريا في غوادلوب . لأن مشاغل ومهامٌ ومفاجآت حرفت خطاي وبددت عزمي عن الوفاء . وأنا أعتقد اليوم أنّ الآلام المختلفة التي عانيت منها في المستقبل كانت لا محالة بسبب هذه الغلطة التي لا تغتفر .

بابتهاج وسرور وأعلام ، وقرع أجراس وتحيات وهتافات إعجاب من الشرفات وبموسيقى الأرغن والأبواق وبمواكب وبضوضاء المزامير من كل نوع : المجوز والقصب والشبابة ، استقبلتني اشبيلية المتألقة في روعة أضوائها في نيسان . وفي ختام البهجة والأعياد والمآدب والرقص وصلتني خير جائزة هي رسالة من جلالتيهما تدعواني إلى البلاط الملكي في برشلونة ، وتكافئني ـــ وهو أهم شيء عندي ـــ بإعداد رحلة جديدة منذ الآن ، إلى الأراضي التي اكتشفتها . وشعرت بزهو لم يشعر به قيصر ذاته لما دخل روما راكباً عربة النصر . خلف كل ذلك كنت أشتمّ رضا وغبطة (مَنْ) تنظر إليّ على أنني بطل من أبطال الفرسان الجوّالين ، وتعتبر نجاحي بشكل ما راية نصر يلقيها الفارس الوفيّ على قدميّ سيدته ... كنت توّاقاً لرؤيتها من جديد . لذلك سلكت الطريق نحوها ، ترافقني صناديق كنوزي وما بقي من الببغاءات حيّاً ، وقد اتّسخت قليلاً ، وفقد ريشها لمعانه بسبب السفر الطويل ـــ وتصحبني بخاصة ، فرقتي الهندية الصغيرة . ولكن لا بدّ من القول ، إن هؤلاء بالحقد الذي شُحنت به عيونهم ، كانوا السحابة الوحيدة ـــ السحابة المزعجة ـــ التي تلقي ظلاً قاتماً في السماء العريضة التي فُتحت أمامي من جديد ، وبصورة مؤكدة باتجاه الغرب . لأن ثلاثة من الأسرى العشرة الذين جلبتهم كانوا في النزع الأخير دون أن يقدر الأطباء هنا أن يجدوا علاجاً يخفف عن أناس تجعلهم نزلة برد ممّا نعالجه نحن بالأشربة ، والحقن والنباتات و«كاسات الهوا»، طريحي الفراش على وشك الموت ، يقضون بقية حياتهم بين القشعريرة والحمّى . وبعد أن انتهى دور الصيدلي ، كان بديهياً أن تدق لهؤلاء ساعة النجار المشؤومة .

أما الآخرون فكان يبدو أنهم يسلكون الطريق ذاته ، وإن كانت وجوههم لا تزال تشرق بالبشر بعض الإشراق كلما حملت إليهم جرة الخمر ـــ وهذا أمر كنت أعنى به صباح مساء . ولا تقولوا لي إن كنت أسقيهم لأبقيهم سكارى ـــ وكانوا بذلك يحتملون على نحو أفضل عذابات محتومة فرضها عليهم اقتلاعهم بل لأن إطعامهم أمسى مشكلة شائكة . أولاً ، كانوا يرون في حليب الماعز والبقر أسوأ شراب مقزز ، يمكن أن يذوقه المرء . ويدهشون لأننا نتجرع عصير حيوانات يصلح فقط لتربية صغارها ، فضلاً عن أنه يثير فيهم خوفاً بل

قل رعباً من بهائم ذات قرون وأظلاف لم يروا مثلها في جزيرتهم أبداً لأنها تخلو من قطعان الماشية . كانوا يرفضون اللحم المقدد والسمك المملح . وينفرون من فاكهتنا ويلفظون الكرنب واللفت على أنها غير صالحة للأكل ، وينبذون أفخر أطعمتنا . كانوا يغتذون بالحمص فقط ، لأنه يشبه بعض الشبه وإن كان من بعيد — كما يقول ديبفيتو الوحيد بينهم من استطاع أن يتعلم بعضاً من كلماتنا — يشبه تلك — المائيس[1] — التي تنبت في أراضيهم . وقد جلبت منها أكياساً مليئة ولكنني ازدريتها ناظراً إليها على أنها طعام لا يليق بأناس متحضرين ، وهي إن صلحت لشيء فلربما تصلح طعاماً للخنازير والحمير . ولهذه الأسباب كلها رأيت أن الخمر ، وقد أدمنوا عليه هذا الإدمان — يمكن أن يصلح من صيامهم العنيد ، ويمدهم بالقوة اللازمة لسفر جديد هم مقدمون عليه اليوم . ولكن بقيت معلقة مسألة الثياب التي سيمثلون بها أمام الملكين . فساق لي القدر خياطاً يهودياً تعرفت عليه قديماً قرب بوابة اليهود في لشبونة التي كان له مكتب فيها ، وهو يقيم الآن في اشبيلية بعد أن ترك اليهودية — مثل آخرين — وصار جنوياً . فنصحني بإلباسهم سراويل قصيرة حمراً مخيطة بخيوط من ذهب (فصحت : مرحى ! مرحى !) ، وقمصاناً فضفاضة مفتوحة بعض الشيء فوق صدورهم الملس والخالية من الشعر ، وتوضع على رؤوسهم أشياء تشبه تيجاناً ، مطعمة بخيوط الذهب أيضاً (قلت : أجل ! أجل ! وليبرق الذهب) تغرز فيها ريشة لماعة، وإن لم تكن من ريش طيور تلك الجزر — تبدو صاعدة من قفا الرأس وتتدلّى بلطف فوق ذوائبهم السود التي ازدادت طولاً خلال السفر ، وكان لا بد من غسلها وحسها كما تحس شعور الخيل ، صباح يوم تقديمهم إلى البلاط . وقد حل ذلك اليوم . كان يوم مهرجان في برشلونة كلها . ودخلت القصر حيث كنت أنتظر ، مثل تاجر يدخل قلعة جالباً معه معرضاً كبيراً ، تتبعني فرقتي العظيمة : « فرقة مسرح عجائب الهند » — أول عرض من نوعه يمثل على مسرح العالم الكبير — . وهي فرقة شكلتها منذ بضعة أيام حسب نظام معين ، وقد أدرت بنفسي التجارب ، وحددت دور الأشخاص . دخلت المقر السامي

---

(١) الذرة .

حيث يتربع جلالة الملكين يصحبني أعيان ومستشارون . فسرت على مهل وبجلال وبخطو منتصر دون أن أفقد رزانتي ، أو أبهت أمام هذا الترف من الزينات والتصفيق الذي حييت به ـــ وكان بين المصفقين ، بصورة خاصة ، أولئك التائبون هذه اللحظة عن موقفهم المعادي لي ذات مرة ـــ ولكن بوصلتي ومنارتي في هذا السير على البساط القرمزي الذي يؤدي مباشرة إلى المنصة الملكية ، كان وجه مليكتي الذي أضاءته تلك اللحظة ، ابتسامة تفوق الوصف . وبعد أن قبّلت الأيادي الملكية أجلست ـــ أنا الجنوي الغريب ذا الأصول المجهولة والأنساب التي أعرفها وحدي ـــ أجلست بين قشتالة وآراغون ، وفتح من جديد على مصراعيه باب الدخول الكبير ، وأحضرت الكنوز محمولة في صوانٍ واسعة من الفضة ـــ جد واسعة كي تبدو العينات فيها عديدة ـــ وأحضر الـ(ذهب) : ذهب في قطع خام ، بحجم الكف تقريباً ، ذهب في رقائق دقيقة ، ذهب في تماثيل منمنمة ، تتعلق دون شك بوثنية ما ، ـــ وقد كنت حريصاً أن أسكت الآن ـــ ذهب في صفائح رقيقة ؛ في الواقع ليس ذهباً كثيراً ، كما كنت أرغب ـــ . ذهب بدا لي فجأة أنه هزيل ، هزيل للغاية ، إذا قورن بالحلي ، والشعارات والمطرزات التي تحيط بي ؛ أو إذا وضع إلى جانب الأجواخ المذهبة أو الصولجانات أو السرادقات الموشاة بالذهب ، وبالإجمال كان ذهباً ضئيلاً . ولكنه ذهب الدفقة الأولى ، الذي يشير إلى أن وراءه فائضاً من الذهب ومزيداً من الذهب ، أجل ، مزيداً من الذهب .

والآن ، أخذ الهنود يفدون ، وقد نادى عليهم الحارس ـــ المدرب الذي كان يخدمني بإصدار الأوامر لهم أن يفعلوا هذا أو ذاك ـــ دخلوا وهم يحملون على أيديهم وعلى أكتفاهم وسواعدهم ، البغاءات التي ما تزال حية ، وكانت أكثر من عشرين ببغاء . وقد أثيرت إثارة نكراء بسبب حركة الحاضرين وجلبتهم ، خاصة أنني زققتها ـــ قبل خروج موكب ما وراء البحار ـــ بكثير من الفتات المنقوع بالخمر القوي ، حتى كانت بسببه تثير ضوضاء خشيت معها أن تندفع فجأة بالكلام مرددة الكلمات القبيحة التي سمعتها بالتأكيد على متن السفن وفي اشبيلية أثناء إقامتي فيها . خرّ الهنود راكعين أمام جلالتيهما ، باكين منتحبين ،

مرتجفين، خائفين، طالبين أن يُفك أسرهم الذي أبقيتهم فيه مهانين، وأن يُعادوا إلى ديارهم. (ولقد رحت أترجم أنهم قد تأثروا بشدة ، وأنهم يرتجفون من السعادة بركوعهم أمام عرش اسبانيا) . حينئذ دخل بعض بحارتي حاملين معهم جلود أفاع وزواحف ذات أحجام غير معروفة هنا ، إضافة إلى أغصان وأوراق جافة ونباتات ذابلة عرضتها كلها نماذج من توابل قيّمة ، وإن لم يُلق أحد نظرة عليها ، لأن أبصار الجميع كانت معلقة على الهنود الراكعين الذين ما زالوا يبكون ويئنون . وعلى ببغاءاتهم الخضر التي شرعت تتقيأ فوق البساط القرمزي ، الأفيون الذي زققتها به. ولما رأيت أن المشهد سينقلب عليّ ، أمرت بإخراج الهنود وطيورهم ، والملاحين ونباتاتهم ، ثم انتصبت واقفاً : وجهي إلى الملكين ، ونصف جانبي إلى الحضور البارزين الذين يملؤون قاعة تسود فيها حرارة خانقة ، زادها حموضة العرق الراشح من الخمائل والحرائر والطيالس . وأخذت أتكلم . بدأت خطابي متمهلاً ، وأنا أقص خبر مخاطر الرحلة وبلوغي أراضي الهند ولقائي مع سكانها . ورحت أصف المناطق المكتشفة وأقارنها بجمال أبهى مناطق اسبانيا ، وعذوبة حقول قرطبة (وأنا أعلم لماذا) ، وإن كنت قد بالغت حقاً لما وصفت جبال اسبنيولا بأنها مثل قمم التيدي . ورويت كيف رأيت ثلاثاً من حوريات البحر يوم ٩ كانون الثاني في مكان يغص بالسلاحف ــ وهي ، إن شئتم الحقيقة ، حوريات قبيحات لها وجه بشر . ولم تكن ذات حسن وأنغام وبهجة مثل حوريات أخريات ، كنت قد تأملتها عن قرب في سواحل ملاطية ، مثلما فعل أوليس . (ما أشنع هذه الكذبة !) . المهم أني بدأت الكلام ، واسترسلت به رويداً رويداً . ثم زدت من حركاتي ، وتراجعت إلى الوراء مفسحاً مدى أبعد لكلماتي الرنانة . فقد اشتعل اللفظ على لساني ، كأني مدفوع بطاقة شيطانية داخلية . وهكذا فإن جزيرة اسبنيولا قد تحوّلت بفعل موسيقاي الداخلية ، ولم تعد تشبه قشتالة ولا الأندلس ، وإنما قد نمت وتضخمت حتى فاقت قمم ترسيس الأسطورية وأوفير وعفار . وصارت هي نهاية حدود مملكة سيبانغو العجيبة . وهناك ، هناك بالتحديد ، يقوم المنجم الهائل الذي عرفه ماركو بولو ، وجئت أنا ، أخبر عنه هذه المملكة وجميع الممالك المسيحية. لقد بلغنا كولكيدا الذهب، ولكن ليس في أسطورة

وثنية هذه المرة ، وإنما في واقع صحيح . وإن الذهب لنبيل ، وإن الذهب لجيّد : « فيا أيها الجنويون والبنادقة ، ويا أيها الناس جميعاً ممن يملكون اللآلىء والحجارة الكريمة وأشياء أخرى ذات قيمة ، احملوها كلها وامضوا بها إلى نهاية العالم لمبادلتها وتحويلها إلى ذهب . وإن الذهب لممتاز جداً ، وإنه ليكنز ، وبه يستطيع من يملكه أن يصنع مايشاء في الدنيا ، ويفتح السبيل أمامه إلى الجنة » ففي رحلتي هذه ، رحلتي العجيبة ، تجسدت نبوءة سينيكا واقعاً ملموساً :

ستأتي في سني الكون الأخيرة ..
أزمنة يخلخل فيها المحيط
الروابط بين الأشياء ...

ولم أكمل بيت الشعر ، فقد خامرني شعور مزعج (وقد أكون مخطئاً في حدسي) أن كولومبا تنظر إليّ وهي ترف بجفنيها رفيفاً سريعاً ، كأنها تطلب إليّ : « كفى يا كريستوفوروس » ... لذلك انتقلت إلى سجل أرفع مفخماً لهجتي : لقد صرت بفضل رعاية جلالتيهما فاتح آفاق مضمونة وراءها . وقد تمّ بذلك تكوير عالم هو كسفرجلة أو ثدي امرأة بالحلمة التي تعلوه ــ وقد التقت عيناي بعيني مليكتي سريعاً . عالم كان رآه /بيدرو أليا كو / الأستاذ اللامع في جامعتي السوربون ونوتردام أنه مدوّر تقريباً ، كروي إلى حد ما ، باسطاً جسراً بيني وبين أرسطو . ومن خلالي تأكد ما سُطّر في كتاب نبوءات أشعيّا : فقد صارت حقيقة « البلاد المليئة بالفضة والذهب والكنوز الضخمة المنتشرة في ضفاف أنهار عريضة تجري فيها مراكب ذات مجاذيف وأشرعة». وتراءت لي «ساعة توزيع الغنيمة الكبرى في بلاد برئت شعوبها من جميع خطاياها » .هكذا تكلم أشعيّا .ولكن بأي فم ، يُسمع الآن ، صوت أشعيا ؟ ولما فرغت من خطابي ، ركعت بحركة نبيلة درستها العشية بعناية ، وركع الملكان وركع الحاضرون جميعاً ، وقد خنقتهم العبرات ، بينما انطلق المرتلون وفرق الكورس والمنشدون في الكنيسة الملكية بإنشاد أسمى صلاة شكر سُمعت تحت هذه السماء . ولما عادت الأصوات السماوية إلى الأرض. رُتِّب أمر تعليم الهنود السبعة

الديانة المسيحية حتى إذا حصلوا على معلومات كافية بودر إلى تعميدهم . وقالت الملكة : « لا تتخذهم رقيقاً . وليعادوا إلى ديارهم على أول سفينة تبحر إلى هناك ... » . تلك الليلة ، رجعت لأقابل مليكتي في صميم مقراتها الخاصة ، حيث تمتعنا بملذات اللقاء بعد غياب طويل ومحفوف بالخطر ــ واللعنة عليّ إن عدت أفكر خلال ساعات سفني أو جزر الهند » .

ولكنني قبيل الفجر ، في اللحظة التي اعتاد فيها المحبون المرتوون الذين قضوا ليلهم ساهرين ، أن يتحدثوا فيما بينهم عن أمورهم الخاصة ، لمحت أن كولومبا وقد أعادت تقويم الأحداث ، ورجع إليها حسها بالوقائع كما عهد بها ، لم تكن متأثرة كثيراً بكلمات خطابي ، كما كنت أحسب . أثنت على بلاغتي وعلى المناسبات التي استشهدت بها ، وعلى مهارتي في التلاعب بالصور . ولكني وجدتها تتملص وتتهرب وتتردد في إصدار حكم صريح وجيد حول جدوى مشروعي .

ــ ولكن ، باختصار ، ماذا يقال اليوم عن هذا الحدث ؟

سألتها وأنا أستدرجها لتتكلم .

ــ « إن شئت الصراحة ، يقال ، يقال ، إن الأمر لا يستحق عناء صرف مليون مرابطية بهدف إحضار سبعة رجال باكين ، موجعين ، ومرضى . أو جلب أوراق وأغصان لا تصلح لشيء حتى لتبخير المجذومين ، أو حمل ذهب يضيع في فجوة ضرس » .

وصرخت : « ولكن ماذا عن الشهرة التي جلبتها لتاجيكما ؟ » .

ــ لدينا من الشهرة ما يكفي : فقد طردنا اليهود واستردنا مملكة غرناطة . إنها شهرة رفيعة ومرموقة تبدو فيما يرى ، وفيما يُلمس وفيما يصدر من قوانين لها صدى حتى في روما ، وفي انتصارات حربية دخلت التاريخ الكبير ... أما ما قمت به ، أنت ، إن كان سيمدنا بالشهرة ، فسيكون ذلك على أجل طويل . فلم يرد إلينا أي شيء عما حدث في أراض ما زلنا غير قادرين على تخيلها . فلم تُكْسَبْ فيها معركة ولا أحرِز نصر مؤزر ... وكل

شيء كان بهدف تعليل عميان وكأنه كذبة تتضخم حسب رغبة السامع ، كما حدث في معارك شارلمان الذي يحكى أنه دخل سرقسطة منتصراً لما أهان ملك بابيلونيا . في حين أن الحقيقة هي أنه بعد حصار لا غناء ولا مجد فيه عاد إلى فرنسا مهزوماً تاركاً مؤخرة جيشه بقيادة البطل رولان الذي ــ حسنٌ ! ــ أنت تعرف كيف انتهى الأمر ... » .

فصحت : ــ ولكنني جلبت ذهباً . هناك ، يوجد منجم ، منجم هائل ... »

ــ لو كان المنجم بهذا الحجم لكان بحارتك قد حملوا منه سبائك وليس تفاهات لا تساوي ــ كما قال لي صوّاغي ــ مئات من المرابطيات . فحدثتها عن استحالة القيام بالاستخراج الحقيقي في زمن قصير كالزمن الذي قضيناه ، وعن الضرورة الملحة في عودتنا المبكرة « لنقل خبر الاكتشاف » . وقالت هي : « لقد عرضت النباتات المجلوبة على خبير بالعطور، فلم يجد فيها قرفة ولا جوز الطيب ، ولا فلفلاً ولا كبش القرنفل . أنت لم تصل إذاً إلى الهند . أنت كاذب كعادتك دائماً » .

ــ إلى أين وصلت إذاً ؟

ــ إلى مكان لا يشبه في شيء أراضي الهند .

ــ في هذا المشروع خاطرت بشرفي وغامرت بحياتي .

ــ ليس كثيراً ، ليس كثيراً . فلو لم تلق ذاك المعلم جاكوب في جزيرة الجليد ما كنت أبحرت مطمئناً . كنت تعلم ، على كل حال ، أنك ستبلغ أرضاً ، كانت ما كانت .

ــ أرض كنوز أسطورية .

ــ فيما عرضته ، لا تبدو كذلك .

ــ بحق أي شيطان كتبتم لي ، إذاً ، أن أعد رحلة أخرى ؟

فقالت وهي تقضم قطعة من اللوزينا الطليطلية :

ــ لإحباط مسعى البرتغال . فإن لم نثبت أقدامنا . فسيسبقنا الآخرون ، أولئك

الذين أوشكت مرّتين أن تبيعهم مشروعك دون مبالاة بتاجيّ قشتالة وأراغون . وقد أرسلوا مبعوثين إلى الباب ليعلنوا وضع يدهم على أراضي لم تقع عليها عيون بحارتهم » .

ــ إذاً فإن رحلتي لم تفد شيئاً .

ــ لن أقول ذلك . ولكن ــ اللعنة ــ كم تعقّد علينا حياتنا !! والآن ، لم يعد في اليد حيلة إلا أن نستأجر سفناً ونحصل على المال ونؤجل الحرب في أفريقيا ، كي ننصب رايتنا في أراض لا أرى أنها أوفير ولا عفار ولا سيبانغو ... حاول أن تجلب من الذهب ومن اللآلىء والأحجار الكريمة ومن التوابل أكثر مما جلبت . حينئذ سأصدق أشياء جمّة ، ما زلت أشم فيها رائحة أكاذيبك » .

وأعترف أني غادرت الحجرات الملكية محنقاً ، فقد تأذت أذناي من بعض الكلمات . ولكن نفوري لم يكن نفور الأيام الخوالي ، حيث لم يكن يوجد شيء يحبذ مشروعي . وهكذا ، ستكتحل عيناي برؤية المحيط مرة أخرى . فبعد أشهر معدودات سنعود إلى تذوق بهجة الأشرعة المشرعة ، في حملة بحرية أكمل وأسلم من ذي قبل . سيكون لدي سفن كافية . وها هو السافل مارتن ألونسو قد انتهى . وإني سأطلب ملاحين حقيقيين ، وسأحمل رتبة أميرال ، وأعين نائباً للملك وأخاطب بلقب : (دُوْن) .

عدت إلى المرفأ ، فوجدت الهنود يرتعدون تحت أغطيتهم الصوفية؛ والببغاءات كانت قد أفرغت ما في أحشائها من الخمر ؛ وكانت عيونها الزجاجية مثل عيون سمك يوشك أن يتعفن . كانت خائرة وراقدة على ظهورها وريشها منفوش كأنّما ضرب بالمكنسة ... وقد نفقت كلها بعد زمن قليل . وخلال أيام معدودات مات ستة من الهنود الذين عرضوا في البلاط ، بعد تعميدهم — بعضهم بذات الصدر ، وبعضهم الآخر بالحصبة أو بالإسهال ... وقد علمت من دييغيتو ، وهو الوحيد الباقي منهم ، أن هؤلاء القوم لم يحبونا قط ولم يعجبهم شيء فينا : فقد رأوا أننا أنذال وكذابون ، وعنيفون وحمقى وقساة وقذرون وأشرار . وقد دهشوا من أننا لا نكاد نغتسل أبداً . أما هم فيغتسلون مرات عديدة في اليوم ، وينعشون أجسامهم في جداول أراضيهم وسواقيها وشلالاتها . يقولون إن بيوتنا موبوءة بزنخ الدهن ، وشوارعنا العريضة برائحة الغائط ، وإن أنظف السادة بيننا ينضح برائحة العرق . ولئن كانت نساؤنا يرتدين هذه الفساتين والصديريات ويفرطن في زينتهن ويتبرّجن ، فذلك ، يقيناً ، لأنهن يرغبن بإخفاء تشوّهات وقروح تظهرهن منفرات ؛ أو أنهن يخجلن من ضخامة أثدائهن ، التي تبدو أنها تكاد تندلق خارج البنائق . وكانوا يعطسون كلما استنشقوا عطورنا وروائحنا — حتى رائحة البخور — ؛ ويختنقون في شققنا الضيقة ؛ ويتصورون كنائسنا أماكن للتنكيل وإثارة الخوف بالنظر إلى هذا الحشد من المقعدين والعجزة والمُقملين والأقزام والمشوهين الذين يحشرون في داخلها كحبات الصنوبر . وما كانوا يفهمون لماذا يحمل كثير من الخلق سلاحاً مع أنهم ليسوا محاربين ، أو لماذا يقف هؤلاء السادة المترفين المتأنقين فوق مطاياهم المطهمة ، وهم يتأملون دونما خجل هذا العرض المستمر للأنين والبؤس والمصائب والأعضاء المبتورة والأسمال . وقد أخفقت محاولاتنا لتلقينهم بعض مبادىء

الدين قبل أن يتلقوا مياه الطهر . لا أقول إنهم عزفوا عن الفهم بإرادة سيئة منهم : بل أقول ببساطة ، إنهم لم يكونوا يفهمون . فإن كان الله قد خلق العالم والنباتات والكائنات التي تعمره ، وجعل كل ذلك خيراً ، فهم لا يرون أن آدم وحواء ، وهما من مخلوقات الله ، قد ارتكبا إثماً لما أكلا ثماراً طيبة من شجرة طيبة . وهم لا يعتقدون أن العري التام فيه شيء مناف للحشمة . وإذا كان الرجال في أراضيهم ، يضعون أغطية على عوراتهم ، فذلك لأن أعضاء الجنس هشة وحساسة ، وتسبب بعض الضيق لتدليها ، فكان لا بد من حمايتها من الشجيرات الشائكة والأعشاب الملتفّة والوخزات والضربات أو عضات الحيوانات السامة . أما بالنسبة للنساء ، فالأفضل أن يسترن أعضاءهن كيلا يعرضن حين يحضْن ، وسخاً غير مستحب . وهم لم يدركوا معاني بعض لوحات العهد القديم مما عرضته عليهم : فهم لا يفهمون لماذا يتجسد الشر بالأفعى ما دامت أفاعي جزرهم ليست مؤذية . ولقد انقلبوا على قفاهم من الضحك لما رأوا الأفعى التي تحمل تفاحة في فمها . لأن الأفعى — كما شرح لي دييغيتو — « لا تأكل فاكهة » ...

وها أنا عما قريب سأرفع مراسي من جديد . ومن جديد سأنطلق إلى طلائع سيبانغو التي اكتشفتها ، وإن كانت كولومبا التي صارت لا تطاق هذه الأيام — ربما بسبب انقطاع دورتها — قالت مئة مرة إن تلك الأرض لا علاقة لها بسيبانغو . أما بشأن تعليم الهنود الدين . فهذه مهمة سيضطلع بها أناس أكفأ مني على تأدية هذه الرسالة العظيمة . كَسْبُ أرواح لم تكن مهنتي ؛ ولا تطلبوا ممن يملك شجاعة مصرفي أن يكون رسول دعوة . وإن ما يُطلب مني اليوم ، وبإلحاح ، أن أجد ذهباً ، فيضاً من الذهب ، أكبر قدر ممكن من الذهب .

فهنا أيضاً، صارت بفضلي، جبال الذهب وجزر الذهب تتراقص في سماء هذي البلاد .

جزر ، جزر ، جزر ... بعضها كبير ، وبعضها صغير ؛ بعضها وعر ، وبعضها سهل . جزيرة جرداء ، وجزيرة مكسوة . جزيرة ذات رمل رمادي وطحالب ميتة ، وجزيرة ذات حصى مدور ينخفض ويرتفع على إيقاع الموج. جزيرة متكسرة على هيئة سلسلة، وجزيرة بطينة كأنها حبلى . جزيرة مدببة ، وجزيرة البركان الراقد . جزيرة تحوّلت إلى قوس قزح من الأسماك والببغاوات ، وجزيرة الكبش العابس والمحار المسنن وغابات المانغلي(١) ذات الألف مخلب . جزيرة يوشيها زبد الأمواج كما توشي المطرزات ثوب بنت السلطان . جزيرة فيها موسيقى صنوج، وجزيرة فيها خوار أشداق. جزيرة رملية تشحط فيها السفن، وجزيرة صخرية تتحطم عليها السفن. جزيرة بدون اسم ولا تاريخ. جزيرة تغني فيها الريح خلال تجاويف القواقع الضخمة . جزيرة المرجان الطافي على وجه الماء ، وجزيرة البركان الخامد . جزيرة خضراء طحلبية ، وجزيرة رمادية شهباء وجزيرة بلون الملح الأبيض . جزر تزدحم في شريط منحنٍ مغمور بالشمس ، عددت منها حتى مائة وأربعاً ــ وأسميتها ، وأنا أفكر بمن أفكر ، حديقة الملكة ... جزر ، جزر ، جزر ...

أكثر من خمسة آلاف جزيرة تحيط ، حسب حوليات البنادقة ، بمملكة سيبانغو الكبرى ، فأنا ، إذاً في تخوم هذه المملكة العظيمة ... ومع ذلك فأنا أرى لون الذهب يبتعد عني كل يوم . ولئن كان المعدن لا يزال يبرز هنا وهناك تحت أشكال من الزينة ، والصور المنمنمة ، أو الحبّات أو القطع التي لا تصل أبداً إلى حجم كف جنويّ أصيل ، فهو لا يعدو أن يكون فتاتاً وسقط متاع أو شذيرات من المنجم الذي لما يسفرْ عن وجهه قط . حتى في جزيرة اسبنيولا لم نعثر عليه كما كنا نظن ، وكما زيّن لي وهمي وجود ثروة كبيرة فيها . لذلك بدأت أحس ، في رحلتي التاريخية الثانية ، بالحاجة إلى تبرئة نفسي . فأرسلت أقول لجلالتيهما إني كنت أرغب أن أبعث إليهما كمية كبيرة من الذهب ولكنني لم أستطع ؛ بسبب الأمراض المتفشية بين بحارتي . وأؤكد أن ما أرسِل ليس إلا عينات فقط . لأنه يوجد المزيد منه ، بالتأكيد يوجد فيض منه . وتابعت طريقي قدماً ، باحثاً آملاً ، قلقاً مستطلعاً . ولكني كنت ، كل مرة ، أشد إخفاقاً وعجزاً عن أن أهتدي إلى المنجم الأصل ، إلى أم

(١) شجر استوائي له جذور هوائية .

الذهب ، إلى العرق الكبير ، إلى الخير الأسمى الذي يختفي في هذه الأرض ذات التوابل بدون توابل ... وإنني الآن ، ما زلت أتصفح دفاتر مذكراتي ورسائلي في هذي الغرفة التي تظلم قبل حلول الظلام ، بانتظار رجل الدين الذي كان يجب أن يحضر ، لأن المسافة قصيرة من هنا إلى حيث ذهبوا في طلبه . وإني ، إذ أنظر إلى الوراء وأراقب نفسي من خلال ما كُتب لسنوات خلت ، ألاحظ كيف حدث ذلك الإنقلاب الشيطاني في نفسي وأخذ يعمل عمله فيها . فقد أغاظني هؤلاء الهنود الذين لا يسلّمون أسرارهم ، ويخفون نساءهم عنا حين ندنو من قراهم لأنهم يرون فينا أناساً فاسقين لا شرف لهم . ومن جهتي ، لم أعد أرى هؤلاء المرتابين المتجرئين الذين صاروا يطلقون السهام علينا من حين لآخر (في الحقيقة دون أن نصاب بأذى) لم أعد أراهم أناساً بريئين ، طيبين ، لا حول لهم ، عاجزين عن فعل الشر عجزهم عن رؤية العري شيئاً لا يليق ، كما وصفتهم وصفاً شعرياً إلى أسيادي إثر رحلتي الأولى . والآن صرت أطلق عليهم كل مرة بتعميم أشمل أسم /أكلة لحوم البشر / وإنْ لم أرهم أبداً يغتذون بلحم بشري . وها هي /هند التوابل / قد تحوّلت لديّ إلى /هند أكلة البشر / . أكلة بشر خطرهم ضئيل ــ وألح على ذلك ــ ولكن لا يمكن أن يظلوا على جهل بديننا المقدس . أكلة بشر يجب إنقاذ أرواحهم ــ (وقد هبط عليّ هذا الاهتمام فجأة) ــ كما أنقذت أرواح ملايين الرجال والنساء في العالم الوثني بكلمة رسل المسيح . ولكننا لا نملك وسيلة لتعليمهم الدين ، لأننا نجهل لغاتهم التي تبدو جد متعددة ، وجد مختلفة . ووجدت حل هذه المشكلة ، التي لا يمكن إبقاء الكنيسة بعيدة عنها ، في نقلهم إلى اسبانيا بصفتهم رقيقاً . قلت : رقيقاً . أجل : وإني وأنا على عتبات الموت ، لترعبني هذه الكلمة التي أعيد قراءتها الآن . ثم أطلب إذناً من أجل الإتجار بالرقيق . وأؤكد أن أكلة البشر في هذه الجزر خير من أي رقيق آخر ، مشيراً إلى أنهم يغتذون بأي شيء ويأكلون أقل كثيراً من الزنوج الذين يكثرون في لشبونة واشبيلية . (فإذا كنت لم أعثر على الذهب أخيراً ، فأفكر أن الذهب يمكن أن يستبدل بطاقة الجسم البشري التي لا بديل لها وبقوة العمل التي تتفوّق تفوقاً كبيراً بما تنتجه . معطية منافع أفضل من منافع المعدن المخادع الذي يدخل هذي اليد ،

ليخرج من اليد الأخرى ...) . وقد أعطيت وزناً لاقتراحي بإرسال سفينة محمّلة ببعض من أكلة البشر ، وقد انتقيتهم من بين الأشداء ، ترافقهم نساؤهم وأطفالهم ، لنرى كيف يمكن أن ينموا ويتكاثروا في اسبانيا كما حصل مع الأسرى المجلوبين من غينيا . وأبيّن كيف يمكن أن ترسل إلينا ، بإذن ملكي بعض السفن كل عام لاختيار حمولات جيدة من هؤلاء الذين نحصل عليهم بالقدر المطلوب ، وذلك بمطاردة سكان هذه الجزر وتجميعهم في معسكرات مطوّقة بانتظار شحنهم . وإذا اعتُرض عليّ أنني بهذا العمل أفرغ الأرض من اليد العاملة اللازمة ، فإني أقترح أن يرسل لي بضع آلاف من الرجال مع مئات من الأحصنة للعمل في حراثة الأرض وأقلمة القمح والعنب وتربية الحيوان . ويُعين لهؤلاء الناس أجر ربما تؤتي تلك الجزر أُكلها . ولكن أتتني فكرة عبقرية لم أخجل من الزهو بها حينئذ هي أن الأجر لا ينبغي أن يدفع نقداً ؛ وإنما تقيم المزرعة الملكية مخازن للأنسجة لتأمين الملبس : قمصان مشتركة ، وجلابيب وأثواب وأنسجة كتانية وجوارب وأحذية بالإضافة إلى الأدوية ومواد السمانة والمعلبات ، ومنتجات قشتالية يتلقاها الناس مع قبولهم حسم أثمانها من أجورهم . (وهذا يعني أن الناس يقبضون أجورهم بضائع ، وفي ذلك فائدة لنا . فلأنهم لن يروا سنتيماً واحداً ، ولأن النقود لن تفيدهم هنا إلا قليلاً ، فسيبذلون غاية جهدهم ويوقعون إيصالات بما اشتروه) .

ومع ذلك لا يفوتني أن مطاردة أكلة البشر ، لا بد أن تثير مقاومتهم ، فأطلب — ورجل يقظ يساوي رجلين اثنين — إرسال مئتي رمح ومئة بندقية ومئة قوس مع كل ما يلزمها .

وأنهي هذه السلسلة من الاقتراحات المخجلة التي أعددتها في مدينة أزابيلا في يوم ٣٠ كانون الثاني من عام ١٤٩٦ راجياً من الله أن يسعفنا « بضربة حظ » ذهبية ، وكأنني لم أبؤ بسخط من الله هذا اليوم حين أقمت تجارة للرقيق . (فبدلاً من أن تطلب المغفرة لنفسك وتتوب ، تسأله ، أيها الشقي ، « ضربة حظ ذهبية » ، كما تطلب العاهرة عشية كل ليلة ، أن يسعدها القدر بفاسق عابر مبذر ، ذي يد سخية) .

كنت أكذب لما كتبت لجلالتيهما عارضاً مقترحات عجولة وأولية ، وإن كانت قد اختمرت في ذهني . (لذلك أرسلت بعضاً من الأسرى مع نسائهم وأطفالهم على أنهم عينة وتمهيد ...) وإني ادخر تلك المقترحات ، في الواقع ، إلى حين عودتي وإتاحة الفرصة لي لتقديمها أو الإحجام عنها حسبما أقرأ في وجوه محدثي . ولكن الأحداث تجاوزتني بصورة بشعة . فاصطدمت بأمر كان الآخرون يفكرون به كما كنت أفكر . وقد صار حقيقةً واقعةً ما كنت أتأمله ببرود منتظراً الموافقة الملكية لأبدأ به فيُنسي الناس إخفاقات حملتي العديدة . فقمت بمناورة مرتجلة للغاية ، وبذلت أقصى الجهد في مواجهة العاصفة التي هبّت عليّ . وهي عاصفة لو طارت فوق المحيط لأطاحت بتمثالي الذي طالما سعيت لصنعه في مصاهر برشلونة . (لم ينته العمل منه بعدُ ، ولا يزال يتأرجح على قاعدته) .

والخلاصة هي أني ، بعد عودتي من اكتشاف بعض الجزر القريبة ، وجدت الإسبان في حالة تمرد ، ملقين بالأوامر وراء ظهورهم ، ومندفعين في أعمال قاسية أملاها الجشع . كانوا جميعاً مرضى بالذهب وأصابتهم عدوى الذهب . ولكن ، إن كان مرضهم شبيهاً بمرضي ـــ لأنهم ببحثهم المحموم عن الذهب كانوا يقتدون بي ـــ فإن أسباب هذه الحمى لم تكن متشابهة . أنا ما كنت أريد الذهب لذاته (على الأقل في الوقت الحاضر ...) بل كنت أحتاجه في المقام الأول للحفاظ على سمعتي في البلاط ، ولتبرير جدارتي بالألقاب التي أغدقت عليّ . ما كنت أرضى أن يظل الناس يتقوّلون إن مشروعي مكلف للغاية ، ولم يجلب من المنافع إلى العرش الملكي سوى « ذهب يضيع في فجوة ضرس » . مرضي كان مرض (أميرال كبير) . أما مرض هؤلاء الإسبان القذرين ، فهو على العكس ، مرض سفلة يريدون الذهب لذاته ، لخزنه ، وتكديسه وإخفائه ومن ثم مغادرة هذه الأراضي على قدر ما يستطيعون من العجلة ، بعد أن يحصلوا على الثروة ليشبعوا بها ، في اسبانيا ، مفاسدهم وفسقهم وشهوتهم إلى التملك . ففي غيابي تجاهلوا تعليماتي ، وازدروا أخي برتلومي ، وهو في حسابهم غريب مثلي ، فانطلقوا في مطاردة الذهب عبر أرجاء الجزيرة كلها ، يضربون الهنود ويحرقون قراهم ، ويجرحون ويقتلون ويعذبون ويغتصبون مئات النساء والفتيات ، كيما يعلموا أين ، أين ، أين يوجد المعدن اللعين اللا منظور الذي أنقب عنه ، أنا نفسي .

ثم أخذت مقاومة السكان تنتظم بشكل خطير ، فصار واجباً علي معها أن أرسل كتائب إلى الداخل . والهنود وإن لم يكن لديهم أسلحة كالتي معنا ، إلا أنهم يعرفون المكان جيداً . جمع الإسبان في منطقة كنا ندعوها « حقل الملكة » ، خمسمائة من الأسرى وحبسوهم في فسحة مسوّرة تشبه السجن . لها فتحات لإطلاق النار على المتمردين . وما كنت أعلم ماذا أصنع بهم . فما كنت بقادر على إطلاق سراحهم . لأنهم قد يحملون صوت التمرد إلى القبائل الأخرى . ولم يكن لدينا من القوت ما يكفي لإطعامهم . أما إعدامهم ـــ وهذا ما كان يريده البعض ـــ فقد بدا لي حلاً مسرفاً في غلوائه . وقد يثير نقمة من أنعم عليّ بالألقاب . وإني أعرف ما يكفي من اندفاعات كولومبا حين تدين أحداً .

ولكنني أمام هذا الأمر الواقع ، وضرورة التخلص من هؤلاء الأسرى الخمسمائة (لا يوجد علاج آخر) ، قررت بالإتفاق مع أخي برتلومي أن أستغلّ الوضع المتفاقم ، فأقوم بتلطيف وتزيين وتبرير أمرٍ لم يكن شيئاً آخر غير تأسيس تجارة للرق في هذه الجزر . وقد بيّنت الفوائد الجمة الناجمة عن هذه المؤسسة . وأخيراً لجأت إلى الأناجيل . وبهذا العون الذي قدمته لي الأناجيل ـــ إذ لما يأذن لي الملكان بممارسة هذه التجارة ـــ أقدمت على حمل الهنود في سفينتين ، دُفعوا إليهما دفعاً ، ورفساً وضرباً بالعصا . لأني لم أجد وسيلة أخرى خيراً من ذلك ، لحل النزاع على السلطات الذي فرض عليّ . فضلاً عن ذلك ، فإن هؤلاء الرقيق (وهذه كذبة أخرى) ليسوا أرقاء عاديين (كالذين يؤتى بهم من أفريقيا) . وإنما هم متمردون على التاجين الملكيين ، فصاروا أسرى وتعساء ، وإنهم ضحية محتومة لحرب عادلة وضرورية (كذا) . وسنربح من كل واحد منهم روحاً تُنقذ ، حسبما جاء فيما لا أدري من الأناجيل ، من وثنية طاغية وشيطانية ، مثل كل الوثنيات التي أخذت أتحدث عنها أكثر فأكثر في كل رسالة وتقرير من تقاريري ، مؤكداً أن بعض الأقنعة الصغيرة التزيينية التي شاهدتها في تيجان بعض رؤساء القبائل تشبه شبهاً خطيراً قناع الشيطان .

(ولما كانت الخطوة الأولى هي الأخطر ، فسأرسل سريعاً تعليمات إلى برتلومي ليحمّل ثلاث سفن أخرى من هذه الغنيمة البشرية التي ستحل مؤقتاً محل الذهب الذي لم يطلع علينا من أي مكان) .

في صباح عودتي الثانية ، كانت تطغى جلبة الملاحين وحركة نقل البضائع مصحوبة برقص السامبا البهيج والواثق ، يضاف إليها ضوضاء شاربي الخمور وأصوات العواهر الكثر . وكنت أتزيا بأبهى حلة يرتديها أميرال كبير ، لما لمحت بسرور مضاعف المعلم جاكوب أمامي . وبعد عناق قال لي : إنه مر بهذا المرفأ لينقل حمولة قوية من الخمور الأندلسية مرسلة إلى أهالي سان باتريثيو الذين يزدادون سكراً يوماً بعد يوم . ــ يقول لي ذلك ويلقي يداً إلى زجاجة خمر كنت أفرغت نصفها .

ــ « لقد علمت أنك كنت في فنلنديا » .

وأقول دون تأكيد أو نفي : « أرض فنلنديا طيبة . ولكن أبعد إلى الجنوب توجد أراض هي خير منها » .

وعانقته مرة أخرى لأنني كنت مسروراً برؤيته من جديد ، بعد كل هذه التقلبات . وقد عددت وجوده المفاجيء فألاً حسناً . أكرر ، كنت مسروراً ، ولكن سروري انقلب غماً ومرارة لما علمت أنه بعد أن تمت في اشبيلية صفقات بيع جد مربحة ، لقسم من الهنود المأسورين في جزيرة اسبنيولا ، ورد أمر ملكي صارم وغاضب يحرّم التجارة المزدهرة التي نصحت بها وأقمتها . يبدو أن جلالتيهما قد تناوشتهما الشكوك ، فعقدا مجلساً لرجال اللاهوت والقانون الكنسي ليعلما إن كانت تلك التجارة مشروعة أم لا . وإن هؤلاء الذين كانوا أعدائي باستمرار ، قد نطقوا كالعادة بحكم يناقض مصالحي . وهكذا فإن المال الذي حصلت عليه في يومين من بيع مئتي عبد ونيّف قد تبخر . وصار خاضعاً للإعادة . ومن أخذ هنوداً بالدين ، عليه أن يعيد البضاعة البشرية ، ويعفى من الدين . ومن الآن فصاعداً ، حرّم عليّ بصرامة أن أنقل أسرى جدداً إلى إسبانيا . وبذلك كان عليّ أن أغلق معسكرات التجميع وأفك أسر الرجال والنساء ــ وهي عملية أسر كانت قد بدأت بداية رائعة . وانخرطت في البكاء من غضب شديد ، ودفنت رأسي في كتف المعلم جاكوب . لقد أحبطت البضاعة الوحيدة المثمرة التي حصلت عليها تعويضاً عن الذهب والتوابل . ففي هذه العودة الثانية التي كنت أتوقعها مجيدة ، وجدت نفسي محطماً منبوذاً ومزدرى ومغضوباً عليّ من جلالتيهما ، حتى الشعب الذي كان يهتف لي بالأمس سماني: غشاشاً ؛ ناهيك عن موقف البحارة الذين كانوا بانتظاري للنزول من السفن في عرض ظافر وجميل ... وفي طرفة

عين ، بدت لي بائسة ، كئيبة ، ومضحكة بزتي الأميرالية وجواربي وقبعتي الجوخية المذهبة وشارات رتبة الأميرال الكبير ...

وانبثق في داخلي ، كما حدث مرات عديدة ، نظراً لافتقاري إلى حيلة أخرى ، ذاك الممثل الفاجر الذي يختبىء تحت جلدي بقناع متجهم ومتألم كقناع الشهيد في التمثيليات الدينية ، أضعه متى كان الأمر ملائماً

واختفيت عن الأنظار بسرعة. وبسرعة تدثرت بمسوح رهبانية سان فرنسيسكو الصغرى . واضعاً زناراً على الخصر ، ماشياً حافي القدمين ، أشعث الشعر ، عيناي تغشاهما سحابة من حزن ... وسرت كسيرَ الخاطر . أكاد أبكي محني الظهر ، مهيض الجناح ، أتقدم بحارتي للنزول إلى الأرض بموكب يشبه كل الشبه عذاب موكب التائبين أثناء الأسبوع المقدس ... رحمتك يا رب .. وازدحم الناس قرب السفن ليشهدوا عودتي . وتعرفت في الصف الأول منهم على وجه /رودريغو دي تريانا / تعلوه مسحة ساخرة فيها إدانة .

رودريغو دي تريانا الذي حرمته جائزة العشرة آلاف الملكية ، لأهبها إلى بياتريس حبيبتي المزدراة . فتجنبت نظرة تتهمني تهمة كبرى . وقد لاحظت أن البحار ما زال يرتدي إمعاناً في السخرية ، الجلباب الحريري الذي أعطيته له تلك المرة . وهو الآن بالٍ ومرقوع ولكنه مازال زاهياً بلونه الأحمر ، لون الشيطان . وسألت نفسي مذعوراً ، إن لم يكن حضور /رودريغو / هذا اليوم في هذا المكان ، هو حضور (مَنْ) أخذ منذ الآن ، يطلب مني كشف حساب ويتربّص بي جاهداً ليجرّني إلى مملكة ظلماته . ولكنني لم أوقع ميثاقاً معه[1]. ولكن توجد مواثيق لا حاجة معها لرق يوقع بالدم . إذاً ، ميثاقك يكتب بعبارات لا لبس فيها، حينما تتمتع أنت ، إن بالأكاذيب أم بالخداع الذي يوسوس به سلطان الشر ، بأشياء عجيبة لا يحظى بها سائر الفانين . وعلى الرغم من المسوح الفرنسيسكاني الذي ألتفُّ به فإن جسدي هو مثل جسد سيبريانو القرطاجي الهرطقي الدجال الذي باع روحه ليسترد شباباً ضائعاً ويعبث بخسة ، ببراءة فتاة عذراء ، كما كانت عذراء وبعيدة عن مرض الذهب الأرضُ التي افتتحتها لجشع الناس ها هنا وفجورهم .

رحمتك يا رب .

---

(١) يقصد الشيطان .

رحلة أخرى ، ثم رحلة تلتها ، أتذكرهما هنا ساعة البدء برحلة لا يرجع المرء منها أبداً ، في هذا الغسق البلد وليدي[1] ، الذي بددت ظلمته شمعتان جلبتهما خادمة لا يُسمع خطوها صوت ، وتمضي فلا تسألني شيئاً حين تراني مهموماً ، غارقاً في قراءة أوراقي الصفر المبعثرة فوق ملاءة هذا السرير المبللة بالعرق ؛ مرفقاي المحمومان يجذبان مسوح رهبانيتي الصغرى الحريري ، الذي أردت أن يُلف به جسمي الناحل ؛ ولربما ما كنت جديراً بهذه النعمة ...

رحلة أخرى ، ثم تتلوها رحلة ، ولما تأت « ضربة الحظ الذهبية » . (ما أجملها لغة مصرفية ، وما أجملها لغة مصرفي لومباردي !) . ضربة طالما سألت بشأنها الله الذي قطعت أمامه عهداً على نفسي أن أسلك حياة الفقر خضوعاً لنظام يخرق في هذا القرن إلى حدٍّ كافٍ . وهو عهد ، في الحقيقة ، جاء خاتمة احتفال أذعنت له نزولاً عند إرادة مليكتي ... فلا ضربة حظ من ذهب ، ولا ضربة حظ من لؤلؤ ، ولا ضربة حظ من توابل ، ولا ضربة حظ حصلت عليها في سوق النخاسة في اشبيلية . ولقد حاولت إبدال ذهب الهند بلحم الهنود ؛ ولكن ، لما رأيت أني لا ذهباً لقيت ، ولا لحماً استطعت أن أبيع ، أخذت ، مثل تلميذ ساحر عجيب ، أستبدل الذهب واللحم (بالكلمات) . كلمات كبيرة ، حُفَّلٌ ، ندية ، ثرّة تشرق متلألئة في موكب الحكماء والعلماء والأنبياء والفلاسفة . وإذْ لم أعثر على المنجم

---

(١) نسبة إلى بلد الوليد ، وهي مدينة في إسبانيا .

المأمول والمشهور ، فقد تحاشيت الموضوع السحري ، وأقنعت جلالتيهما أن ليس كل ما يلمع ذهباً . فعرش البرتغال قد أنفق أموالاً طائلة في رحلة بحرية دون منفعة مادية مهمة ، وإنما لإعلاء صيته أمام العالم . وإني أعلم أن رحلاتي كلفت غالياً ، وعادت علينا بالقليل . ولكنني أذكر أن ملايين الأرواح ستنقذ بسببها إن أرسل إلى تلك الأصقاع وعّاظ ممتازون كأولئك الذين ساعدوا خوان دي مونتي كوربينو في أبرشية كامبلوك . فإن لم يُجلب ما يكفي من الذهب ، فقد عُمل الكثير من أجل الأمور الروحية والزمنية . (وهذا ليس بالشأن الضئيل) . وإن واجب الملوك والحكام تشجيع أشباه هذه المشروعات . ولنتذكر أن سليمان جهز سفناً لمدة ثلاثة أعوام بهدف واحد هو رؤية جبل سوبورا . وأن الإسكندر أوفد مبعوثين إلى جزيرة تربوبانا ، في أرض هندية أخرى ، ليحصل على معرفة أفضل بها . ونيرو سيزار بذل جهوداً عظيمة ليعرف أين تكمن منابع النيل . (ولماذا خطر لي أن أذكر هذا الأخير ، مضطهد المسيحيين البغيض ؟) . وهذه أمور عملها من شأن الملوك . حسن ...! أنا لم أعثر على هند التوابل ، ولكنني عثرت على هند أكلة البشر . ولكن ، اللعنة ! عثرت في الأقل على الفردوس الأرضي . هذا أقل ما يقال فيه . أجل ! فليعلم وليُسمَعْ ولينتشر الخبر السعيد في أوساط المسيحية كلها : إن الفردوس الأرضي هو مقابل الجزيرة التي أسميتها : ترينيداد ، في فم مصب نهر /دراغو / حيث المياه العذبة الواردة من السماء تصطرع مع الأمواه المالحة فتصبح مُرّة بكميات الطين الغزيرة فيها . لقد شاهدت الفردوس على حقيقته لا كما يراه رسامو الخرائط الخادعون والمخدوعون ويتصورونه بآدم وحواء يطوفان فيه ، وبالشجرة بينهما ، وبالأفعى النمامة ، وبسور دون فجوات وبحيوانات أليفة ووحوش وديعة جميلة ، وهكذا ، كل واحد وما يملي عليه هواه . لقد رأيته . رأيت ما لم يره أحد . رأيت الجبل على شكل ثدي امرأة أو بالأحرى ، مثل كمثرى تعلوها حلمة ــ أوه ! بمن تفكر أنت ؟ ــ وقد حددت فردوس سفر التكوين هناك وليس في مكان آخر . لأن الكثيرين تحدثوا عنه دون أن يقولوا لنا أين هو ، وإني لم أجد « أية كتابة لاتينية ولا إغريقية تحدثت حديثاً موثوقاً عن مكان لهذا الفردوس الأرضي ، في أية رقعة ، ولم أره في أية خارطة للعالم إلا ما

كان منها تخميناً » . بعضهم وضعه حيث منابع النيل في أثيوبيا ، ولكنّ رجالاً آخرين جابوا جميع هذه الأراضي ولم يجدوا فيها تطابقاً معه . ولكن سان ايسيدرو ، وبيدا ، وسترابون وأستاذ التاريخ المدرسي وسان أمبروزيو ، وإيسكوتو وجميع اللاهوتيين أجمعوا على أنّ الفردوس الأرضي يوجد في (الشرق) الخ ... (هو في الشرق) أكرر . ولا ننس الخ ... لأن إلى آخره تعني أي شيء . إذاً ، عُيّن في الشرق هذا الفردوس . ولم يك بد من أن يكون في الشرق ، ما دام الناس يظنون أنه يوجد شرق واحد ممكن فقط ... ولكنني ببلوغي الشرق وأنا أبحر باتجاه الغرب ، أؤكد أن أصحاب تلك الأقوال مخطئون بخرائطهم الوهمية ومخدوعون بآرائهم وأساطيرهم . لأنني بما رأته عيناي ، عثرت على براهين تثبت أنني لقيت الفردوس الأرضي الوحيد ، الحقيقي والصحيح كما يمكن أن يتصوره كائن بشري من خلال الكتاب المقدس . مكان تنمو فيه أصناف لا تحصى من الأشجار ، جميل منظرها ، طيب مذاق ثمارها . وينحدر منه نهر هائل ، مياهه تطوّق منطقة غنية بالذهب . وأكرر وأجزم ، إن الذهب يرقد هناك بوفرة وافرة ، وإن لم أحظ بتلك « الضربة » التي طالما انتظرتها . ضارب مضروب ، لأني لم أوفّق بضربة حظ واحدة . وإني إذ استشهد بإيسيدرو ، وأمبروزيو ، وإيسكوتو فذلك لأزري بهؤلاء اللاهوتيين الإسبان القميئين المعاصرين المظهرين لي البغضاء دائماً . وإني ألجأ بعد هؤلاء إلى علم بيلينيو وأرسطو ، ومرة أخرى ، إلى رؤيا سينيكا لأعزّز موقفي بسلطة الأقدمين الراسخة ، معتمداً ــ كما فيرجيل المبشر بأزمنة جديدة ــ على نفوذ الكنيسة ذاتها .

وإذ أروي قصة رحلتي الرابعة التي جبت فيها أرضاً ليست جزيرة ولكنها أرض يابسة ، جد يابسة فيها جبال شاهقة تخفي أسراراً مؤكدة ، ومدناً محتملة ، وثروات لا تقدر بثمن ــ يعود فيشتعل فيّ روح الجشع وأجد في نفسي طاقات جديدة . وأعترف أمام هذا الواقع الماثل أنني كنت حتى الآن عجولاً للغاية ــ إن لم أك كذاباً ــ بنشر أخبار ظافرة . « لما اكتشفت أراضي الهند قلت إنها أعظم ممالك الدنيا . وتحدثت عن الذهب واللؤلؤ ، والأحجار الكريمة والتوابل والتجارة والأسواق . ولما لم يظهر ذلك سريعاً ، فقد صرت هُزأة .

وهذا العقاب يدفعني ألا أقول ـــ ... سوى إنني لمحت خلال يومين من إقامتي في أرض بيراغوا أمارات على وجود الذهب أكثر مما رأيت في جزيرة اسبنيولا خلال أربعة أعوام . وإنها أرض لا أجمل ولا أحلى ، يقطنها أناس لا أجبن ... وإن لجلالتيكما السيادة عليها كما على شيريش وطليطلة ، وإن سفنكم حين تبحر إليها فهي تبحر إلى وطنها ... » .

والآن ، ما العمل بهذه الثروات ؟ ببساطة ، إشباع أعظم رغبات المسيحية . وهي رغبات أُحبطت في ثماني حملات صليبية . فما لم يحصل عليه بطرس الراهب أو غودفروا وسان برنار ، وفيديريك بربروس أو ريتشارد قلب الأسد أو سان لويس الفرنسي ، كان محتماً أن يحصل عليه ابن حانة سافونا بفضل إصراره العنيد الذي كان يلقى مقاومة مستمرة . وفضلاً عن ذلك قد قيل :

« إن القدس وجبل صهيون يعاد بناؤهما بأيد مسيحية » ، وإن الأب خواكين كالابريس قال : « إن هذا الأمر لا بد من أن ينطلق من إسبانيا » ؛ ولم يقل ينبغي أن يكون اسبانيا . أما بالنسبة لي ، فيمكنني أن أقول ، كما قال موسى وهو في بلاد مدين : « أنا مهاجر في أرض غريبة » . ولكن هؤلاء الأغراب قد وجدوا أرض الميعاد . إذاً ، أنا هو ذلك « الشخص المعني » ، « الشخص المختار » . ومع ذلك ، فقد كان الطريق أمامي طويلاً وشاقاً . فقد مكثت سبعة أعوام في البلاط الملكي ، وأنا أعمل من أجل مشروعي الذي كلما ذكر كان يقال عنه إنه أضحوكة . واليوم فإنه حتى الخياطين أنفسهم يتطلعون من أجل الاكتشاف . ولكنني حين كنت في أرض جامايكا بائساً بؤساً شديداً ، ومنهكاً غاية الإنهاك ، فكرت أنني بتبجحاتي المستمرة قد أفرطت في تقديري لذاتي ، ساقطاً في خطيئة الغرور ، فوجهت رسالة إلى مليكي في ٧ تموز من عام ١٥٠٣ مبدياً التواضع في ذيلها قائلاً : « إني لم أُقدم على هذه الرحلة البحرية طمعاً في مجد أو شرف . وهذا أمر مؤكد ، لأن كل أملي فيهما قد خبا . ولكن توجهت إلى جلالتيكما بنية سليمة وود صادق ، وإني لا أكذب » لا أكذب . أقول إني لا أكذب ... وأحسب أني لم أكذب في هذا اليوم ... ولكنني حين ألتفت فأمعن النظر في هذه الأوراق الصفر التي ترقد مبعثرة فوق الغطاء الذي يغطيني حتى منتصف صدري ....

وإني ، إذ أطلّ على متاهة ماضيّ في هذه الساعة الأخيرة ، أدهش من ميلي الطبيعي إلى الرياء والمظاهر الكرنفالية وإثارة الأوهام على طريقة المشعوذين في إيطاليا الذين يتنقلون من سوق إلى سوق ، وكانوا يترددون على سافونا حاملين معهم هزلياتهم التي تمثل بالإيماء أو بالأقنعة . فقد كنت معلقاً مسرحياً وأنا أطوف بعرش بعد عرش ، بمسرحي العجائبي . ولعبت دور البطل في تمثيليات دينية حينما رحت أمثل أمام الإسبان ، المسرحية الكبرى في (وضع اليد على الجزر) التي ما كانت تعلم من الأمر شيئاً . وكنت المنظم المبدع (لعرض برشلونة الكبير) وهو أول مشهد من الهند الغربية برجال وحيوانات حقيقية منها ، يُمثل أمام جماهير أوروبا . وبعد ذلك ، حين رأيت خلال رحلتي الثالثة أن هنود إحدى الجزر كانوا يتجنبون الاقتراب منا ، ارتجلت على متن السفينة منصة دفعت بعض الإسبان ليرقصوا فوقها بصخب على صوت الطبول والصناجات كي يروا أننا أناس مرحون وذوو طبيعة مسالمة . (ولكن هذا الأمر انقلب ، في الحقيقة ، علينا لأن أكلة البشر لم يحسوا بمتعة رقصنا ولا خبطات أحذيتنا ، وأخذوا يرشقوننا بكل ما في قواربهم من سهام ...) ثم بدلت القناع ، فصرت فلكياً وصانع معجزات في ذلك الشاطىء من جامايكا ، حيث كنا في ضنك عظيم ، دون طعام ومرضى ومحاطين (زيادة في السوء) بسكان معادين ومتأهبين للإنقضاض علينا . وصَدَف أني كنت أطالع في الصباح الباكر في كتاب « يوميات ابراهيم زاكوتو » الذي اصطحبه دائماً ، فتيقنت من حدوث خسوف للقمر في تلك الليلة من شهر شباط . فطلبت فوراً إلى أعدائنا أن يمكثوا هادئين قليلاً ، فيشهدوا معجزة كبيرة مذهلة . ولما حان الحين ، وقفت منتصباً باسطاً ذراعي كدولاب طاحونة هوائية ، وقمت بحركات وإشارات سحرية وصحت بتعزيمات زائفة ، وأمرت القمر أن يختفي ... فاختفى القمر . وأسرعت حالاً إلى حجرتي ، منتظراً أن تعد الساعة الرملية الزمن اللازم لانقضاء المعجزة ــــ كما هو مشار إليه في الكتاب ــــ فبرزتُ من جديد لأكلة البشر المأخوذين رعباً آمراً القمر أن يتجلّى

فتجلّى دون إبطاء ، مستجيباً لندائي . (وربما ، بفضل هذه الحيلة ، بقيت حياً حتى اليوم) .

وذات يوم لا أريد تذكره ، صرت رئيس محكمة تفتيش أهدد وأوعد ، سائلاً بحارتي لما كنّا على سواحل كوبا ، إن كان يخامرهم أدنى شك ، بأن هذه الأرض الكبيرة بر ، وأرض قارية ومقاطعة متقدمة من مقاطعات الهند ، يُنتظر مني في اسبانيا أن أقدمها هدية لمليكيّ . (هدية متواضعة) . وأعلنت بلسان الكاتب أن من يشك بأن هذه الأرض الكوبية الكبيرة قارة يدفع غرامة قدرها عشرة آلاف مرابطية ، ويقطع لسانه . يقطع لسانه . ولا شيء أقل من ذلك . ولكن الأنا ــ المفتش قد نال ما كان يبغيه . فأقسم الإسبان والغاليسيون والباسك ــ (كنت أراهم أناساً مختلفين) ــ أقسموا جميعاً على ذلك ؛ وأعادوا القسم مرة أخرى متذكرين أنهم بذلك قد صانوا ما كان يعتبره إلسوب خيرَ وشرّ ما في الدنيا . كنت بحاجة إلى أن تكون كوبا قارة ، واندفع مائة صوت تصيح : إن كوبا قارة ...

ولكن العقاب يحل سريعاً بمن يلجأ إلى الدجل والخداع والتهديد والعنف لينال بعيته . وبالنسبة لي فإن العقاب أخذ ينزل فيّ ها هنا ، في عالمنا السفلي دونما انتظار إلى العالم الآخر . لأن كل شيء في رحلتي الأخيرة صار إلى نقمة وخيبة وتكفير عن ذنوب . رحلة كانت فيها سفني تصعد أمواجاً كالجبال ، وتهوي إلى هاويات مزمجرة ، ثم تُرفع وتُبتلع وتتحطم ، ويقذفُ بها إلى البحر مرة أخرى ، نهرُ /بيراغوا/ الذي فاض بالأمطار المفاجئة ، فكان يدفع بنا إلى الخارج كأنه يأبى أن يمنحنا ملجأ .

أما تلك الأيام التي جدد الشقاء فيها سعي أخير ومخفق وراء الذهب في أرض قارية ، فقد ختمت ببؤس تجلّى في سفن منخورة وجراح متعفنة ، وحمى خبيثة وجوع وحزن لا ينجلي . وهناك ، حين كنت على حافة الهلاك سمعت صوت من قال لي : « أوه ! أيها الأحمق ، ناقص الإيمان ، المقصر في خدمة ربه رب العالمين » . فانتشلني من ظلمة ليل يأسي بكلمات مشجعة ، فقطعت عهداً على نفسي أن أسير حتى روما بأسمال ناسك إن خرجت من هذه المحنة سالماً . (ولكني لم أفِ بعهدي ، كما لم أفِ بعهود أخرى كثيرة)

وعدت إلى نقطة البداية منبوذاً من العالم المكتشف متذكراً كما لو كنت في كابوس ، أقزام سيبانغو ، وقد أشرت إليهم في وصيتي التي وضعتها بالأمس. فهؤلاء لم يروا في نهاية الأمر أن وضعهم قد صار أفضل ، معتبرين ظهوري على شواطئهم كارثة رهيبة ؛ وأن كريستوفوروس الذي لم يذكر آية واحدة من الأناجيل فيما كتب من رسائل وتقارير هو في الواقع سيد من سادة الاضطرابات والدم والدموع والمصائب . إنه فارس من فرسان الجحيم .

أما ما يتعلق بضميري وصورتي التي تنتصب الآن عند قدم هذا السرير كأنها منظورة في مرآة ، فقد كنت مكتشفاً ، مُكتشَفاً ، مكشوفاً . فأنا مكشوف أمام ملكيّ الساميّيْن بالرسائل والتقارير المرسلة إليهما . وإني مكشوف أمام الله ، حين أتخيل الصفقات القبيحة التي اقترحتها عليهما ، علىْ تعارضها مع تعاليم الدين . مكشوف أمام رجالي الذين أخذوا يتخلون عن احترامهم لي يوماً بعد يوم ، ملحقين بي إذلالاً عظيماً لما حبست في غرفة طباخ ــ أنا ، الدون ، الأميرال نائب الملك ــ .

مكشوف ، لأن طريقي إلى الهند أو فنلنديا الجنوبية أو سيبانغو أوكاتاي ــ التي يمكن أن تكون مقاطعة بانغي فيها هي ما عرفته باسم كوبا ــ طريقي التي فتحتها بسهولة بالغة لمعرفتي بملاحم رجال الشمال ، هذه الطريق يسلكها اليوم مئات المغامرين بدءاً من خياطين ، قلت ، إنهم تخلوا عن الإبرة والمقص واستعاضوا عنهما بالمجذاف ، إلى نبلاء مفلسين ، وأتباع بدون أسياد ، وكتبة دون مكاتب ، وسائقين دون عربات ، وجنود دون عمل ، وصعاليك محتالين ورعاة خنازير من كاسيريس ، وبؤساء مغرورين ، ومفسدين من بادخوس ، ومتآمرين مندسين وسكارى من كل لون ، ومسيحيين جدد ، ومعمدين يسعون خبط عشواء ؛ وهي كلها حثالة تعمل قدر ما تستطيع للحط من شأني ولمحو إسمي من سجلات التاريخ .

والآن ، قد أُنجز الجانب الأعظم من المشروع ، فربما لا يتذكرني هؤلاء إن اجتازوا الحدود الجغرافية لما قمت به ، مطلقين أسماء على مدن ــ ويسمونها مدناً ! ــ منثورة في عشر جونات مليئة بزرق الطيور .

كنت المكتشِفَ ــ المكتشَف ، المكشوف ؛ وأنا الغازي المغزو ، لأنني أخذت أوجد بالنسبة لنفسي وللآخرين ، يوم بلغت تلك الأرض . ومنذئذ فإن تلك الأراضي هي التي تحدني وتنحت تمثالي وتنصبني في الهواء الذي يحيط بي ، وتمنحني ، كما أشعر ، بعداً ملحمياً يأباه عليّ الجميع ، خاصة ، بعد وفاة كولومبا التي اقترنت بي بملحمة مليئة بقدر صالح من العجائب حتى تنشأ منها قصيدة ملحمية . ولكنها قصيدة ملحمية محتها ، قبل أن تُكتب ، مواضيع الأشعار الجديدة التي تُغنّى تحيةً لجشع الناس .

ويقال إن مشروعي أقل خطراً مما قام به فاسكو دي غاما الذي لم يحجم عن خوض غمار طريق اختفت فيه أساطين عديدة دون أن تترك أثراً . وهو أقل شأناً من مغامرة ابن البندقية الكبير الذي ظل خمسة وعشرين عاماً غائباً حتى ظُن ميتاً .

هذا ما يقوله الإسبان ، الذين نظروا إليك دائماً على أنك غريب . لأنك كنت ، أيها البحار ، بلا وطن ، فرحت تبحث عنه بعيداً في اتجاه الغرب حيث لم تظفر بشيء حدد لك معاني وطن حقيقي ، في يوم يكون نهاراً حين يكون هنا ليل . وفي ليلة تكون ليلاً حين يكون هنا نهار،متأرجحا مثل أبسالون المعلق من شعره،بينم الحلم والحياة،دون أن تعرف أن يبدأ الحلم وأين تنتهي الحياة.وإذ تدخل الآن عالم حلم كبير لا أنتهاء له،حيث يُنفخ في أبواق لا يمكن تصورها ، فإنك تفكر أن وطنك الوحيد الممكن الذي قد يدخلك عالم الأسطورة ــ إن تنشأ عنك اسطورة ــ هو وطن ما زال بدون اسم ؛ وطن لما يتجسد في صورة كلمة من الكلمات . وطن لما يصبح فكرة ، ولما يمس مفهوماً . وليس له حد يحده ولا مضمون ولا شكل . وإن أي قزم من أقزام تلك الأراضي بسبب من وجوده في أرض محددة لديه ومعروفة هو على وعي خير من وعيك ، أيها الملاح ، رغم عصور العلم واللاهوت التي تستند إليها .

وإنك إذ تلاحق بلداً لم تعثر عليه ، وكان يتبخر من بين يديك كقصر مسحور ، كلما حسبت أنك قد ظفرت به ، فقد كنت جوّاب ضباب ، ترى أشياء لا يمكن فهمها ولا تفسيرها بلغة الأوديسة ولا لغة سفر التكوين . لقد طفت بعالم أفقدك رشدك لما حسبت أنك قد غزوته . ولكنه في الحقيقة لفظك من محيطه ، وودعك دون هنا ودون هناك . فيا أيها السابح بين مائين ، والغريق بين عالمين ، ستموت اليوم ، أو هذه الليلة ، أو غداً ، مثل بطل وهمي ، ومثل يونس وقد لفظه الحوت ومثل نائم ايفيسو ، ومثل يهودي تائه وربان سفينة أشباح ... ولكن يومَ تؤتى حسابك حيث لا لجوء إلى استئناف ولا نقض ، فإنّ شيئاً واحداً ينبغي ألا تنساه أبداً ، هو أنك بأسلحتك التي تتفوّق ثلاثين قرناً على أسلحة من وقف بوجهك ، وبالأمراض التي أهديتها لهم ، قد حملت على سفنك الجشع والفسق والنهم إلى الثروات والسيف والترس والقيد والفخ والمطرقة التي كان ينبغي أن تقرع في ليل المناجم الداجي ، حيث نظر إليك على أنك قادم من السماء ــ هكذا قلت للملكيك ــ متشحاً بالأزرق بدلاً من الأصفر ، حاملاً ، ربما رسالة سعادة .

وتذكر أيها الملاح ، أشعيا الذي طالما ورد على لسانك خلال أعوام طوال لتوثق كلماتك المغالية دائماً ، ووعودك المنكوثة دائماً :

« بؤساً لمن يحسب نفسه حكيماً
ويعتقد أنه أصفى من الزجاج » .

وتذكر الآن كتاب التوراة الذي طالما قرأته :

« من يحب الذهب يحمل ثقل خطيئته .
ومن يسع وراء الغنم يصبح فريسة الغنم .
ومحتم خراب من يقع فريسة الذهب » .

وإن إشعيّا ليصيح بك مرة أخرى ، صيحة من الأعماق تمتزج مع هذا الرعد الهادر فوق أسطح المدينة المبللة صيحة تشل أعصابك :

« يمكن أن تكثر من التضرعات التي لا أسمعها
لأن يديك مصبوغتان بلون الدم » .

إني أسمع وقع خطوات في السلم ، هي خطوات الطالب دي ميروبنيا ، وغاسبار ميزركوورديا . لقد جاءا برجل الدين . أخفي أوراقي تحت السرير وأعود للاستلقاء بعد أن أشد حزام الجلباب . يداي مضمومتان وجسدي متصلب كميت في قبر ملكي .

جاءت ساعة الكلام العليا . سأتكلم كثيراً . لا زالت لدي قوة لأتكلم بإفاضة . سأقول كل شيء . وسأطبل به .

ولكنني ، لماصرت تحت ضغط الكلمات المحتوم ، وجاءت ساعة الحقيقة ، وضعت قناع من أردت أن أكون ولم أكن . قناعاً لا بد أن يتحد بالقناع الذي سيضعه الموت على وجهي . وهو آخر قناع من أقنعة لا تحصى وضعتها خلال وجودي الذي لا يعرف تاريخ بدايته . جئت من السر وإني أدنو الآن ـــ بعد أربع رحلات بطولية بحرية ، ورحلة أخرى بائسة ـــ من اللحظة المفزعة التي أسلم فيها أسلحتي وأبهتي وأسمالي .

ويراد مني أن أتكلم . ولكن الكلمات تختنق هذه الساعة في حلقي . فإن شئتم أن أقول كل شيء ، وأروي كل شيء ، فإنّ من يقاضيني الديون ـــ إذا تكلمنا بلغة تجارية بحتة ـــ ينبغي أن يكون رجل دين يوحي لي بقدر من العظمة والكفاءة .

ولأن الأمر لم يكن كذلك ، فإني أستطيع أن أطلق على نفسي ـــ أنا من أنكر شريعة آبائه بسبب طمعه ـــ العبارات القاسية التي أمليت على موسى قبيل موته ، فهو مثلي لا يُعرف تاريخ اليوم الذي ولد فيه ؛ وهو مثلي أيضاً مبشر بأرض ميعاد : « لقد بذرت كثيراً كي تحصد قليلاً ، وزرعت الكرمة وعنيت بها كيلا تشرب من خمرها . وصار لديك زيتون ولم تستطع أن تدهن بزيته ، لأن زيتونك قد حل به الخراب » .

وقال يافيه أيضاً إلى متأمل الممالك البعيدة :
« ها هي الأرض التي جعلتك تراها . ولكن إليها لن تعبر » .

ما يزال يوجد متسع من الوقت للجم الكلمة . وليقتصر اعترافي على ما أريد أن أكشف عنه . وليقل جاسون ــ كما جاء في مأساة ميديا ــ ما يلائمه أن يقول عن قصته بلغة شعرية درامية ، رفيعة ، لغة حارة وقوية :

« كثير من الأنّات من أجل مزيد من المغفرة . ولا شيء غير ذلك » .

وإني أجد نفسي ضائعاً في متاهة ماضي . لقد أردت أن أطوّق (الأرض) ولكن (الأرض) ظلت كبيرة عليّ . وهي ستكشف للآخرين عن قدر صالح من أسرارها المتعالية التي لا تزال تحتفظ بها احتياطاً ، وراء باب رأس على ساحل كوبا أسميته ألفا ــ أوميغا للدلالة على أن هناك ، كما أرى ، كانت تنتهي امبراطورية وتبدأ أخرى ، ويختتم عصر ويبدأ عصر جديد .

وأخذ رجل الدين يبحث عن وجهي في غور الوسائد الراشحة بعرق الحمى ، وهو ينظر في عيني . أسدلت الستارة على الحل الأخير . إنها ساعة الحقيقة ، ساعة الحساب ، ولكن لن يكون حساب . سأقول عن نفسي فقط ما يمكن أن يخلدني على الزمن ومن فمي يخرج صوت آخر يعيش فيّ طويلاً . هو سيعلم ما يقول :

« ولترحمني السماء الآن ، ولتبك عليّ الأرض » .

III

الفصل الثالث

الظـــل

« أنت ، ألم تسأل
أية أرواح تلك التي رأيت ؟ »

دانتي الجحيم ــ ٤

الطيف لا ثقل له ولا بعد ولا ظل وإنما هو شفافية تائهة ، ضاعت عنده معاني كلمات شائعة مثل البرد أو الحر ، النهار أو الليل ، الخير أو الشر . ولقد ظل ساعات عديدة يتسكع بين أذرع الأعمدة الرباعية في كنيسة برنيني ، إلى أن فتحت أبواب كنيسة القديس بطرس . فمن أبحر زمناً طويلاً دون خرائط لا يستطع إلا أن ينظر ساخراً إلى جمهور السياح الذي كان يطلب مشورة أدلائه قبل أن يتغلغل داخل الكنيسة العظيمة ، ويتجه مباشرة إلى أغلى درر ذلك القصر المليء بالعجائب الذي سيتحول اليوم عند الطيف إلى قصر عدالة .

هو متهم غائب ، وشكل مُتخيل ، ورجل من ورق ، وصوت تحول إلى فم الآخرين للدفاع عنه أو إدانته . ولكنه سيبقى على بُعْد أربعة قرون تقريباً ممّن يفحصون

أدقّ التفاصيل في حياته المعروفة ، مقررين إن كان يمكن اعتباره بطلاً رفيع الشأن ، كما يراه مؤيدوه ، أو كائناً بشرياً عادياً خاضعاً لكل نواحي ضعفه البشري ، كما يصوره بعض المؤرخين العقلانيين الذين قد يعجزون عن إدراك /شاعرية أفعال/ تقع وراء أسوار وثائقهم ومؤرخاتهم وبطاقاتهم . لقد أزفت اللحظة التي سيعرف فيها إن كان منذ الآن فصاعداً سيحظى عن جدارة بتماثيل مرفوقة بلوحات تقريظية ، أو بشيء آخر أعم وأسمى من تمثال برونزي أو حجري أو رخامي ينصب وسط ساحة عامة . وسار مبتعداً عن المقر الذي سيصدر منه الحكم النهائي في المقصورة السادسة ، لأنه ما كان يحفل به بعد ؛ فأمّ سمته بثقة إلى قاعات مجمع المخلفات ، المغلق أمام الجمهور الزائر .

محافظ المجمع عالم يسوعي ؛ وهو بالضرورة على قدر من العلم بالعظام والأسنان والتشريح . وكان مكبّاً كعادته دائماً ، على فحص ودراسة وتصنيف ما لا يحصى من العظام والأسنان والأظافر والشعور وأمور أخرى خلّفها القديسون ، محفوظة في الجفنات والعلب .

ولئن كان الموتى لا يأبهون في الغالب ، لمصير عظام جسمهم ، فإن الطيف كان يرغب أن يعلم إن كان قد أبقي في هذا المكان زاوية للعظام القليلة الباقية منه ، وذلك من أجل القضية التي ... .

ـــ « يبدو أن أمامنا مَهمةً ذات شأن كبير » .

قال المحافظ للطالب الشاب ، أحد التلاميذ الذين يتدربون لديه على إتقان مناهج تصنيف المخلّفات .

وقال الشاب ـــ « لأن قضية اليوم ليست قضية عادية » .

ـــ كل قضية تطويب ليست قضية عادية » .

علّق المحافظ بلهجة غاضبة اعتاد عليها ، وإن كانت لم تثن التلميذ .

ـــ بالتأكيد . ولكن شخص هذه القضية معروف على مستوى الكرة الأرضية ، والترشيح قد أدرجه باباوان : الأول بيو التاسع ، والآخر قداسة ليون الثالث عشر .

ـــ بيو التاسع توفي قبل أن تنقضي السنوات العشر التي يطلبها مجمع الطقوس المقدس للعمل على فحص الوثائق وشهادات الشهود التي تبرر ذلك .

ـــ لم تدرج قضية كريستوبال كولون بعد ، حتى طلب الكونت روسلي دي لورغ تطويب شخصين آخرين ، الأول جان دارك والآخر لويس الخامس عشر .

ـــ انظر : إن كان تطويب جان دارك يبدو لي ممكناً ، فإن احتمال تطويب لويس الخامس عشر هو مثل احتمال تطويب العاهرة جدته.

ـــ شكراً . .

ـــ فضلاً عن ذلك ، يجب وضع حد لهذه الترشيحات . نحن لسنا مجرد ورشة لصنع الصور الدينية .

ساد صمت . دخلت أثناءه بعض الذبابات في طيران استكشافي ، كأنها تبحث عن شيء لم تعثر عليه في النهاية . وسأل التلميذ : .

ـــ « كيف ترى قضية كولون » ؟ .

ـــ سيئة . في المراهنات التي يقوم بها الحرس السويسري المرافق لقداسته ، فإن الرهان في هذا الصباح ، كان واحداً لصالح كولون مقابل خمسة .

وقال الشاب :

ـــ أشعر أنها سترفض .

ـــ لماذا راهنت عليه ؟ .

ـــ لأننا نفتقر إلى قديس واحد كان بحاراً . فلقد بحثت في كتاب الأسطورة الذهبية ، وأعمال القديسين لجان بولاندو ، وحتى في كتاب التيجان لبرودنسيو ، فلم

أعثر على واحد منهم . إن رجال البحر ليس لهم شفيع واحد من مهنتهم . أما صيادو الأسماك فلديهم كثير منهم بَدْءاً من صيادي بحيرة طبريا .

وقال المحافظ وهو يقلِّبُ في ذهنه تقاريره ومجموعاته وسجلات وارداته : .

ـــ بالتأكيد . لأن القديس سان كريستوبال ما كان يأبه بأمور رجال البحر . وإن كريستو فوروس كان قائد مركب نهري كما نعلم . ولكن بانتقاله من الملاحة النهرية إلى الملاحة البحرية ، حاملاً فوق كتفه /مَن[1]/ لا يخشى أن تجرفه المياه الهوج ، فقد غرس خشبته في أرض مطمئنة فنمت واخضرّت كأنها نخلة بلح .

ـــ إنه[1] شفيع المسافرين سواء سافروا بالسفن أم على الحمار أم بالقطار أم بالمنطاد .

أخذ الرجلان كلاهما يراجعان بطاقات وأوراقاً . ولقد رأى الطيف وهو ينظر من فوق كتفيهما أسماء تترى ؛ ثم تتالت أسماء القديسين الذين يضرع إليهم رجال البحر في عواصفهم ونكباتهم وعثراتهم . (وبعض هذه الأسماء كان يجهله الطيف جهلاً عميقاً) .

سان بِسنْتي ، قس وشهيد . لأن جسده قد طفا ذات مرة بمعجزة ، فوق الأمواج الهادرة ، بالرغم من أنه قد ربط إلى حجر ضخم . (وعلق التلميذ : غير أن الملاحة لم تكن مهنته) . سان كوزمي وسان داميان قديسان عربيان ـــ إذ كانا يقولان : وطننا هو الجزيرة العربية ـــ ، لأن القنصل الأول ليسيا ألقى بهما إلى البحر مقيَّدَيْن . سان كليمنتي قد أُلقي به أيضاً إلى البحر ، وعثر على جثته في جزيرة قريبة من كرْسِنيْسو ، وقد نشبت بإحدى المراسي . (وقال الشاب : حتى هؤلاء لم يكونوا بحارة) . ثم سان كَسْتروز لأنه تحدّى إعصاراً وهو على ظهر مركب منكوب كان قد حمل عليه مرغماً . ثم سان ليون لأنه عُذب بيد القراصنة . (ولم يكن بسبب ذلك بحاراً) . ثم سان بدرو غونثالث

---

(١) يقصد سان كريستوبال ، شفيع الملاحين النهريين .

المشهور بسان تيلمو . (إذ هدى عدداً كبيراً من البحارة إلى الإيمان ، وأشعل نيران سان تيلمو التي تتراقص ألسنتها الناعمة في أعلى السواري . ولكنه كان من رجال البر الداخلي ومن مواطني مقاطعة استورغا ، التي لأجبانها شهرة عريضة في جميع أنحاء إسبانيا) .

فقال المحافظ :

ــ لا تشطّ بنا عن الموضوع . لا تشط عنه .

وتابع العد سان كوتبرتو شفيع البحارة السكسون . (وإني أشم هنا رائحة ملحمة شمالية ... ولكن بحاراً من فادش ومرسيليا لن يضرع إلى واحد من الفيكينغ ...) . وسان رفائيل آركانخيل . وقل لي ياسيدي : أنّى لرئيس ملائكة[1] أن يضع على رأسه قبعة بحّار ؟! ونيكولاس أسقف ميرا الذي سوّى وضع سفينة منكوبة ، واستلم دفة القيادة وقادها إلى بر الأمان دون أن يراه أحد . (ولكنني أراه اليوم يقود زحافة ويوزع ألعاباً أكثر مما أراه يسير فوق المياه ...) .

وقال محافظ المخلفات الفاتيكانية :

ــ إذاً ، نحن في خيبة من أمرنا . فلا سانتودومينغو ، ولا سان باليرمو ، ولا سان أنتونيو ، ولا سان ستيتوتو ، ولا سان رامون ، ولا سان بودوك شفعاء البحارة كان واحد منهم بحّاراً . والنتيجة هي أن بيو التاسع كان على صواب . إننا بحاجة إلى سان كريستوبال كولون .

ــ كان ينبغي إعداد علبة كبيرة لحفظ مخلفاته .

ــ السيء في الناس البحارة والرحالة أنهم لا يتركون آثاراً .

---

(١) أركانخيل : تعني رئيس ملائكة .

— أو لم يبق منه حتى قطعة من عظم الفخذ أو اليد أو الرضفة أو الإصبع ؟ .

— هذه مشكلة أخرى ، مشكلة لن تحل . فلا توجد عظام نقلت أو رُحّلت أو خلطت أو كانت مثاراً للجدل مثلما كانت عظامه .

وبعد أن لخّص العالم اليسوعي نتائج الأبحاث الحديثة التي دفع إليها الترشيح الحالي ، بيّن لتلميذه أن كولون توفي في بلد الوليد ودفن في دير سان فرنسيسكو في تلك البلدة . ولكن رفاته نقل في عام ١٥١٣ إلى دير لاس كويباس في اشبيلية . ثم نبش منه بعد ثلاث وثلاثين سنة لينقل إلى سان دومينغو حيث رقد حتى ١٧٩٥ . ولكن هل تدري أن الزنوج قد انتفضوا بعيد ذلك في الشريط الفرنسي لتلك الجزيرة وأشعلوا حرائق مهولة وأحرقوا المزارع وذبحو أسيادهم ؛ فخشيت السلطات الإسبانية أن يمتد لهيب التمرد ، فأرسلوا رفات الأميرال الكبير إلى هافانا !! إذ كان ينبغي أن يبقى في كاتدرائيتها انتظاراً لإعادته إلى سانتو دومينغو حيث كان يخطط لإشادة بانتيون بتماثيل وصور إلخ ... شيء ما جدير بمقام المتوفي الكبير . ولكن في أثناء ذلك جرت تطورات مفاجئة روكامبولية تقريباً ، إن صح ذكر روكامبول[1] في أوساط الفاتيكان .

— لا تبالِ يا سيدي . فالكل هنا قد قرأ ، قليلاً أو كثيراً ، مغامرات روكامبول .

— وفي كنيسة سانتو دومينغو لم يكن كريستوبال كولون وحده . لأن تابوته كان مجاوراً لتابوت ابنه البكر دييغو ، ولتابوت دون لويس كولون ابن هذا الأخير،وهو الدوق الأول لبيراغوا ، ولتابوت دون كريستوبال الثاني ، وهو أخ دون دييغو كولون . وهل تدري أن مهندساً مكلفاً بأعمال إصلاح في الكاتدرائية قد اكتشف في ١٠ أيلول ١٨٧٧ علبة معدنية عليه نقش مرموز : م . أ /أ . أ . ك . ك . أ/ ويمكن فكه على النحو التالي : مكتشف أمريكا . أميرال أول . كريستوبال كولون الأميرال . إذاً فإن البقايا التي نُقلت إلى هافانا لم تكن بقايا من نسعى لتطويبه » .

(١) شخصية بونسون دوتيراي التي تمر بمغامرات شتى .

وتمتم المساعد : « إن حدث ذلك » .

ـــ ولكن ، وهنا تكمن المأساة ، كان مكتوباً داخل العلبة المعدنية بأحرف غوطية ألمانية : السيد المحترم والبارز دون كريستوبال كولون ، دون لقب الأميرال . وشرع مثيرو المتاعب دائماً يتساءلون عما إذا كانت هذه ليست عظام كولون الأول ، وانما عظام كولون الثاني . أو عما إذا كانت عظام كولون الأول لا تزال في كوبا ، حتى أن خورياً فنزويلياً نشر منشوراً شهيراً زاد في تعقيد النقاش .

النتيجة : لم نتوصل إلى معرفة إن كانت عظام كولون الأول ليست عظام كولون الثاني ، أو إن كانت عظام هذا الأخير ليست عظام كولون الأول .

ولا يطلبنّ أحد مني معرفة ذلك . وإن هذا الأمر يحله مجمع الطقوس المقدس ، وهو من أجله سيعقد . فلا يأتينني أحد بعظم واحد من عظام كولون ، ولا عظم ترقوة ، ولا كعبرة ولا زند ، إن لم يكن قد جرى التحقق من صحته بدقة .

هذا هو مجمع مخلفات جدي ، ولا يمكن أن تقبل فيه فقرات أي كان ، ولا عظام قحفه ، ولا قذاله ولا كعبه . لأن في كل شيء طبقات . أما بالنسبة لي ، فلن أقف بين تابوتين وألعب لعبة : حزورة فزّورة .

وعقب التلميذ :

ـــ « حتى بالذهب لا يُدخل هنا بعد الموت . وإن كان كولون قد قال ـــ كما أورد ماركس ـــ : إن الذهب شيء مدهش . وإن من يملك الذهب يحصل على ما يرغب . وبالذهب يمكن أن تُفتح حتى أبواب الجنان .

ـــ صحيح أن كولون قال ذلك . ولكن لا تذكر كولون عبر ماركس . هذا الإسم ينبغي ألا يُلفظ به حيث للجدران آذان . انظر ، بعد إعلان المنشور البابوي صارت بعض الكتب مكروهة هنا .

ــ ومع ذلك يبدو ، ياسيدي ، أنك تعرف ماركس جيداً ، كما تعرف أيضاً روكامبول .

ــ لا خيار لي في ذلك ، أنا عضو في لجنة الفهرس .

ــ أرى أن المرء لا يمل العمل في الفهرس . ولقد فهمت الآن لماذا صارت مدموازيل موبان ونانا في الفهرس .

ــ بدلاً من أن تقول ترهات ، ينبغي أن تفكر كيف تسير عملية تطويب الأميرال الكبير .

قال العالم اليسوعي غاضباً ، وهو يقذف فِردة حذائه برفسة أخطأت الهدف .

وغمغم الطيف : « أحسنت ! أحسنت ! » . ثم انصرف فجأة على عجل وهو مغموم ، سالكاً أروقة وصاعداً سلالم باتجاه القاعة التي ستمثل فيها على نداء البوابين التمثيلية الدينية الرفيعة ، وهو سيكون بطلها الغائب/الحاضر .

★ ★ ★

من الباب الأيمن ومن الباب الأيسر شرعت تدخل شخصيات التمثيلية الهامة ، محتلة مقاعدها بنظام ، حسب الرتبة والمقام والوظيفة ، خلف منضدة جد طويلة ، مغطاة بجوخ أحمر ، وقد اكتسب كل واحد منهم هيئة رجال الفاتيكان القروسطية ، سواء كان ذلك بالحركات أم بالمواقف التي تذكرنا بالاحتفالات الموغلة في القدم .

في الوسط جلس الرئيس والقاضيان الذين يشكلون هيئة محكمة جماعية ؛ وفي أحد طرفي المنضدة جلس وكيل الكنيسة وهو النائب العام في القضية ، ومحامي الشيطان ؛ وفي الطرف المقابل المرشح أو متولي الدفاع ، الذي لم يكن روسلي دي لورغ المتوفّى منذ أعوام مضت ، وانما جنوي ، عالم بالتجارة ، يدعى خوسيه بالدي . وهو خبير بالماس وله اعتبار عالٍ ومقام أثير في الوسط الفاتيكاني بسبب أعماله الخيرية المتعددة .

أما كاتب مجمع الطقوس المدني فقد جلس ومساعده في أمكنة متوسطة . أخرجت أوراق وملفات من الحقائب والمحافظ . وبعد الضراعة إلى روح القدس أن يلهمهم آراء سديدة وأحكاماً صائبة ، أعلن عن افتتاح الدعوى .

وجلس الطيف وقد امتدت أذناه وانتصبتا كأذني ذئب يترقب الخطر ، مولياً انتباهه إلى كل ما يقال في تلك المحكمة المنعقدة بعد انتظار طويل لفحص مسألة تطويبه التي ضمت خلال أعوام ، لا أصوات ستمائة أسقف ونيف وقّعوا الترشيح الأول ، وإنما أصوات ثمانمائة وسبعين أسقفاً وضعوا توقيعهم اليوم أسفل الترشيح الثالث الذي يجب أن يكون على الأرجح ، الترشيح الحاسم . طلب الرئيس من الدفاع أن يقسم يميناً بأن يتجنب الخداع في كل لحظة ، وبأن يعرب عن الدوافع التي تحركه للدفاع عن القضية استناداً إلى حقائق يعتقد روحاً وضميراً أنها بصدقٍ ، كذلك .

شرع خوسيه بالدي بدلي ببيان موزون ، آخذاً نفساً بين الجملة والجملة ، مركزاً على النعوت ، رافعاً صوته في نهاية كل فقرة . فقدّم خلاصة بليغة لما كان قد عرضه الكونت روسلي دي لورغ ، في كتاب زاخر بالملاحق والوثاق الداعمة ، كان قد كلّفه بكتابته البابا بيو التاسع . وكان الطيف يترنّح من النشوة كلما مضى الخطاب مفعماً بالإثارة والتقريظ . إذ ، كيف يمكن لحكامه أن يترددوا وهم إزاء هذه اللوحة من الفعال والفضائل والتقوى والأريحية ونكران الذات ، والعظمة الداخلية ؟ وأنّى لهم أن يترددوا إزاء لوحة من العجائب قام بها بتواضع راهب فرنسيسكاني وخشوعه ؟ وكيف يترددون أمام برهان بأنه كانت لديه قوى فوق ــ طبيعية لم يعرف هو نفسه أدنى فكرة عنها ؟ . فهو مثل سان كليمنتي قد أخمد العواصف ، وهو مثل سان لويس بلتران الأمريكي الزائر الرسولي لكولومبيا وباناما والأنتيل ، قد انتزع ألوفاً وألوفاً من الهنود من ظلمات وثنيتهم . ويضيف بالدي ، كذلك ، هو نظير سان باتريشيو « رسول ايرلندا الخضراء الذي كان يسمع صراخ الأجنّة تدعوه من بطون أمهاتها إلى ايسلندا . أما كربستوبال كولون الذي

كان أنفق ثمانية عشر عاماً في أعمال لا غناء فيها ، فكان يحمل في روحه الصرخة الهائلة لنصف الجنس البشري » .

لقد وضعت القضية في مسار رائع . وبلغ حماس الدفاع مدى جعل الطيف يعجب بنفسه من نفسه : فها هو يكتشف الآن أن ما كان يعزوه إلى أثر إيمان فعّال خارج عنه ، انما كان نابعاً من صميم ذاته ، وكان من صنع يديه وإرادته المختارة ، ومن قدرته على الطلب والاستجابة . وإن أعجب ما في الأمر ، حسب رأي بلون بلوي ، الذي يذكره بالدي بإفاضة في دفاعه ، هو أن معجزاته ، إن نظر إليها بإمعان ، تفوق بمدى بعيد المعجزات الشائعة والمحدودة التي تتجلّى في شفاء المرضى ، وإبراء المقعدين والمجذومين ، وإحياء الموتى . كلا ! . ويقول بالدي : « أنا أفكر بموسى . أفكر بموسى لأن كولون كشف عن الكون ، وقسّم العالم بين ملوك الأرض ، وكلّم الله في أوج العاصفة ؛ وإن حصيلة أعماله الطيبة هي ملك للجنس البشري كله » .

وهنا ، صاح محامي الشيطان وهو يصفق مثل مشجع في مسرح فلامنكي :

— « مرحى لك ! مرحى ومرحى ! » .

ولكن صوته طغى عليه صوت الدفاع : « ما كان الكونت روسلي دي لورغ ليحجم عن أن يضع الأميرال الكبير خليفة لنوح وإبراهيم وموسى ويوحنا والقديس بطرس ، مطلقاً عليه اللقب الأسمى ، لقب : سفير الله » .

(بخ ، بخ لك ، يا كريستوفوروس الكبير ، الكبير ، الكبير ، لقد ربحت الجولة . وإن مسألة تطويبك صارت قاب قوسين أو أدنى . وسيعقد البابا مجلساً دينياً ، وستقام لك مذابح في كل ناحية ، وستكون بقامة أطلس الجبار الذي يحمل كتفاه القويان ، إلى الأبد ، عالماً جعلته أنت مدوراً . فبك صارت مدورةً أرض كانت مسطحة محددة ، ومحدودة ، لها تخوم تطل على هاويات فلك لا قرارة لها ؛ وهو فلك سفلي مطابق للعلوي ،

وشبيه به ، دون أن يعرف أحد على وجه اليقين أن ما هو أعلى أسفل وأن ما هو أسفل أعلى ...) .

وقد بلغ حماس الطيف ذروته لما احتتم بالذي خطابه ، فاغرورقت عيناه اللامنظورتان بدموع عرفان جميل غير منظورة . ورأى ، كما يُرى في الضباب ، ظلال الشهود التي دفع بها الدفاع لتدلي بشهادتها ، رغم بسمة محامي الشيطان المرتابة (ولِمَ هي مرتابة دائماً ؟) الذي لا يستطيع أن يرسم على جهه الشيطاني إلا بسمات تبعث على قدر من القلق . وقد سأل هذا الأخير مستفهماً :

ــ ألا يوجد هنا أسقف ، أو على الأقل ، مندوب كنسي ؟ .

ورد عليه الرئيس بجفاء :

ــ سؤال فارغ . من المؤكد أنه في حالة تطويب عادية ، يمكن أن يساعدنا أسقف أو شخصية كنسية ، تتمتع بتشريع أسقفي في المكان الذي ولد فيه الشخص الذي تدرس حالته ، أو في المكان الذي أجرى فيه معجزاته » .

وحدد محامي الشيطان :

ــ هذا ما يسمى بأسقف المكان .

ورد الرئيس بجفاء أيضاً :

ــ لا تعلمنا ما نعمله عن سعة . ولكننا في هذه النقطة يمكننا أن نلجأ مرة أخرى إلى سلطان الكونت روسلي دي لورغ ، الذي يقول لنا :

ــ لا أسقف ولادة كريستوبال كولون ولا أسقف مكان وفاته يمكنهما أن يقدما لنا أي عون .

ــ أعتقد أن ذلك صعب عليهما .. .

وتابع الرئيس :

ـــ إن الملاح الشهير انطلق من حنوة في الرابعة عشرة من عمره . وتوفي حين كان بالمصادفة في بلد الوليد . وإن رفاته نقل إلى مكان آخر . وإقامته المدنية كانت في قرطبة التي لم يقم فيها أبداً . وإقامته الرسمية كانت في سانتو دومينغو التي كان يغيب عنها باستمرار . وهكذا فإن أي أسقف لا يقدر على أن يزودنا بأية معلومات .

ـــ هذا صحيح . لأننا نعلم أن لا أحد يعيش اربعمائة عام .

وقال الكاتب الذي بدا أنه أفاق بغتة من حلم :

ـــ يبدو لي أنه هنا يتجلى صدق الكتاب المقدس . فقد . فقد ... جاء في الفصل الخامس من سفر التكوين أن شيئاً عاش تسعمائة وأثني عشر عاماً ، وأن أنوخ عاش ثمانمائة وخمسة وعشرين عاماً . وأن كنعان بلغ تسعمائة وعشرة أعوام ثم (مات) .

ـــ « صح النوم » !!

صاح محامي الشيطان مثيراً ضحكات لم يفلح في كبتها مساعد الكاتب ولا القاضيان المساعدان . وقال الرئيس :

ـــ نظام ! نظام !

وقال محامي الشيطان : كل ما أطلبه أن نمضي إلى عصر الطوفان لنسير بالقضية على نحو أسرع ..

ـــ هذه النكتة ألقاها قبلك الشاعر الفرنسي راسين .

وحدد الكاتب :

ـــ في كوميديا : المشاكسون .

وقال محامي الشيطان ساخراً كعادته :

ـــ أرى أنك تعرف الكلاسيكيين يا سيدي . ولكن لنعد إلى كولون : إن كان قد مات في بلد الوليد ، فكيف لم يترك لنا أسقف تلك المدينة شهادة مكتوبة نستطيع أن نعتمد عليها ؟ .

فقال بالدي :

ــ إن أسقف بلد الوليد حتى لم يعلم بوفاة الغريب المسكين الذي لجأ إلى حمى هذه المدينة منهكاً مريضاً .

ــ أولم تبق شهادة من « أسقف المكان » الذي أجرى فيه معجزاته ؟

وأجاب بالدي :

ــ لقد سئمت من التكرار أن معجزات كولون كانت من طبيعة تختلف عن سائر المعجزات . لنقلْ إنها لم تكن محدودة في مكان معين ، بل هي شاملة .

فقال محامي الشيطان بلهجة جافة :

ــ لذلك فهمت لماذا أدرج القرار الفاتيكاني « بطريقة استثنائية » .

ــ أخرس .

صاح واحد من خلف الطيف . ولما التفت هذا الأخير ، رأى رجلاً غزير الشعر ، وجهه يكاد يختفي في خيوط لحيته المتشابكة ، تفوح منه رائحة حامزة ، وكان يقلّب عينيه الملتهبتين من الغضب تحت حاجبيه الكثين، وهو يقول : اخرس ! اخرس ! .

في هذه اللحظة كان محامي الشيطان ينهمك في جدال مع خوسيه بالدي :

ــ إن الدفاع يعتمد في دفاعه فقط على كتاب روسلي دي لورغ الذي أراه عملاً ، ربما كان شريفاً في أهدافه ، ولكنه عاطفي وتنقصه الدقة التاريخية . وخير برهان على ذلك ، أن جائزة قدرها (٣٠٠٠٠) ثلاثون ألف بيزيتا قد أُحدثت منذ زمن قريب تمنح لأفضل كتاب موثّق توثيقاً متيناً وأميناً وعصرياً ، من خلال مسابقة افتتحت بمناسبة الذكرى المئوية الرابعة لاكتشاف أمريكا التي سيحتفل بها قريباً . ولكن أتعرفون يا سادتي من أنشأ هذه الجائزة مردرياً كتاب روسلي دي لورغ ؟ لم يكن شخصاً آخر غير معالي السيد دون ببراغوا ، وماركيز جامايكا ، وحاكم جزر الهند وعضو مجلس الشيوخ ، وعظيم إسبانيا ثلاث مرات ، الوحيد المنحدر مباشرة من سلالة كريستوبال كولون ؟ .

وعوى الرجل الأشعر ، وقد اثيرت حفيظته فقفز من فوق صفوف المقاعد ليسقط إلى جانب الطيف :

ـــ حقير ! أنت مثل مربي ثيران في ليديا ليشجع ألعاب السيرك . ولأنه يفتقر إلى شجاعة مصارع ثيران ، فهو يفضل أن يراها من مخبأ في ساحة الصراع . لأنه يربي حيوانات شرسة لتقتل الآخرين .

وتابع محامي الشيطان :

ـــ إن جائزة الثلاثين ألف بيزيتا ..

ـــ إنها فضيات يهوذا الثلاثون .

صرخ ليون بلوي الغاضب الأبدي الذي استطاع الطيف أن يتحقق من هويته الآن .

وصاح الرئيس :

ـــ سكوت ، أو أدعو الحرس السويسري .

وتابع الدفاع :

ـــ كيفما كانت القصة التي تكتب عن كولون اليوم ، فهي لا تمس عظمة العالم الفلكي العجيب وقداسته الواضحة . لقد قال عنه شيلر : تقدّم دون خوف ياكرستوبال ، فلو كان ما تبحث عنه لم يخلق بعد ، فإن الله سينشئه من عالم العدم كي يبرر إقدامك .

وقال المحامي الشيطاني :

ـــ لم يكن عالماً فلكياً عجيباً بهذا القدر . وإلا فليقلْ ذلك فيكتور هوغو . وبدا للطيف أن فيكتور هوغو يمتثل فوراً أمام قوس المحكمة ويقول :

ـــ لو كان كريستوبال كولون عالماً فلكياً جيداً ، لما اكتشف العالم الجديد أبداً .

(وغمغم الطيف : ولكن كان لديّ حاسة شم بحار تساوي جميع العلوم الفكية الممكنة) .

وجأر ليون بلوي في غابة لحيته :

ــ فليأت فيكتور هوغو ، ويكلمنا عن أمور بحرية ، وهو لم يبحر أبعد من جزيرة غرينزي : والآن هاهو جول فيرن يتقدم بحركة مسرحية من القوس ، وله هيئة ومظهر روبور الفاتح . وصاح من عليه ، بطبيعته ، أن يحتج :

ــ ما كان ينقص إلا هذا . إنه مشعوذ . ولماذا لم يدعوا مرة واحدة ، فيليس فو غ أو أبناء الكابتن غرانت ؟! .

وقال جول فيرن معتزاً :

ــ يكفي أن يأتي أب أبناء الكابتن غرانت ــ وتابع ــ : الحقيقة هي أنه في عصر كولون تكدست جملة من الوقائع والمناهج والمذاهب . وكان الأمر مهيئاً أن تأتي عبقرية واحدة فتجمعها وتتمثلها . وكل هذه الأفكار المبعثرة انتهت وتجمعت في رأس رجل واحد ، كان له بقدر كبير عبقرية الاصرار والشجاعة .

وسأل ليون بلوي :

ــ والعناية الإلهية ؟! كيف يتخلى هذا البائس عن ذكر العناية الإلهية ؟ .

ولكن لم يبد على الروائي أنه يسمعه :

ــ كولون كان في ايسلندا[1] ... وربما في غرئنلاند .

(وتمتم الطيف : ايسلندا : نعم ولكنني لم أصل إلى غرئنلاند) . وكان الأميرال حريصاً خلال رحلته أن يخفي عن رفاقه المسافة الحقيقية التي يقطعونها كل يوم . (وغمغم بلوي : وما الضرر في ذلك ، إن جاء بفائدة) . إلى أن دوّت صرخة : الأرض !! وإن مجد كولون لا يكمن في أنه وصل وانما في أنه أبحر » . .

---

(١) وجوده في ايسلندا يشكل جزءاً من « القليل المؤكد » الذي نعرفه عنه حسبما قال منيندس بيدال . (المؤلف) .

وجأر بلوي : أحمق !! .

ولكن خطاب فيرن صار الآن جافاً ومحدداً مثل خطاب أستاذ في الرياضيات :

ـــ « بالنسبة لهذه الرحلة ، فإن العالم القديم كان يتحمل مسؤولية تربية العالم الجديد خلقياً وسياسياً . ولكن هل كان على مستوى هذه المهمة بالأفكار الضيقة التي يحملها ، وبدوافعه شبه البربرية ، وبأحقاده الدينية ؟ إذ ما لبث كولون أن شرع يقبض على عدد من الهنود بهدف بيعهم في إسبانيا » .

وصاح محامي الشيطان ظافراً :

ـــ ألفت انتباه المحكمة إلى أنّ كولون أسس نظام العبودية في العالم الجديد (أحس الطيف أن جسمه اللامنظور يرتجف من البرد ، كما كان يرتجف جسم الطالب فيدريرا في كل الفصول) .

ـــ « لقد أكد أن هؤلاء الهنود كانوا من أكلة لحوم البشر . ولكن لا في بيراغوا ولا في أي مكان آخر لقي الملاح أكلة بشر » .

وقال مندوب أبليس بلهجة قوية للغاية :

ـــ إلى هذه النقطة نريد أن نصل . وإني أطلب إذن المحكمة باستدعاء الراهب /برتلومي دي لاس كاساس/ للمثول كشاهد اثبات .

(وراح الطيف يئن : لقد خزيت . أجل قد خزيت) .

ودخل الدومنيكاني الأصلع المهزول ، مقطب الجبين ، عليه كل سمات راهب لوحة زُرْبران ، يمسح المحكمة بنظرة قاسية وقاتمة . وأخذ ليون بلوي يصرخ وهو في سورة عارمة من الغضب :

ـــ سوداوي ! حقود ! كذاب

وفي اللحظة ذاتها ارتفعت جوقة سباب الذين دخلوا القاعة للتو صاخبين :

ـــ انتهازي ، مراءٍ! موسوس ! واش ! حاقد ! أفعى تمشي .

وصفّر أحدهم بصوت كأنه صوت بوق :

ـــ لقد قبضت ثمن شهادتك !!

وصاح الآخرون :

ـــ غدار ! خائن ! يهوذا الأسخريوطي ! قمامة الدنيا ! .

وسأل الرئيس ـــ من هم هؤلاء الأوباش ؟ .

فأجابه الكاتب :

ـــ إنهم معارضو اسطورة الغزو الإسباني السوداء . لقد ازداد عددهم في هذه الأيام .

وقال الرئيس :

ـــ سكوت أو آمر بطرد المشاغبين .

ولما ساد الهدوء من جديد . أخذ الراهب ابرتلومي يتكلم :

ـــ ما وجه الصحة في أن الهنود أكلة بشر ؟ قبل كل شيء سأقول : إن هؤلاء الهنود ينتمون إلى عرق أرفع جمالاً وذكاء وعبقرية ... إنهم يوفون وفاء تاماً بالشروط الستة التي اشترطها أرسطو لتأسيس جمهورية فاضلة تكفي نفسها بنفسها .

(وصاح ليون بلوي : سيتبين عما قليل أنهم أقاموا البنتيون وأنشؤوا الحقوق الرومانية) .

وسأل الرئيس :

ـــ ولكن هل يأكلون أم لا يأكلون لحماً بشرياً ؟

ــ ليس في جميع المناطق ، وإن صار مؤكداً أنه عثر في المكسيك على بعض الحالات ؛ ولكن ذلك كان بدافع من طقس ديني ، أكثر منه لأي سبب آخر . فضلاً عن هذا ، فإن هيرودوت ، وبومبونيو ميلا ، وسان خيرونيمو ، يقولون لنا إنه كان يوجد أكلة بشر بين الإيسيين ، والماسجيين ، والايسكوتيين .

وصاح ليوم بلوي ومعارضوا الأسطورة السوداء بصوت واحد :

ــ يعيش آكلو لحوم البشر ! يعيش آكلو لحوم البشر !!

وعلق محامي الشيطان بلهجة واثقة :

ــ لو كان بين الهنود أكلة بشر لكان كولون ملزماً بعدم نقلهم إلى إسبانيا لسبب هام ، هو أن أكلة البشر كانوا قد شكلوا خطراً دائماً على الأطفال الذين يلعبون في الحدائق . وربما دفع القَرَم[1] أحدهم إلى نهش خاصرتي فتاة جميلة » .

فقال الدفاع : ــ ألفت انتباه المحكمة إلى استهزاء السيد محامي الشيطان .

فقال الرئيس مقطب الجبين :

ــ ليسحب الكاتب : « خاصرتي فتاة جميلة » .

وقال محامي الشيطان :

ــ إني أسحب الخاصرتين . ولكن الفتاة الجميلة ستبقى معروقة العظم .

وقال الرئيس :

ــ لنرَ الآن ، إن كان شاهد الإثبات يستطيع أن يقدم لنا البراهين الكافية على أن المرشح أسس عن قصد تجارة الرقيق بين الهنود الأمريكيين » .

ــ حسبي أن أقول أن الملكة إيزابيل ، عطر الله ذكراها ، حين علمت أن بحارة كولون يبيعون رقيقاً أمريكيين في سوق أشبيلية ، تملكها غضب شديد وسألت : « بأي حق يقوم

---

(١) الرغبة الشديدة بأكل اللحم .

أميرالي ببيع رعاياي إلى أي كان » . وأمرت بأن يُنادى في غرناطة وأشبيلية أن كلّ من أخذ هنوداً إلى قشتالة من أولئك الذين باعهم كولون ، عليه أن يعيدهم فوراً ، تحت طائلة عقوبة الموت ، إلى موطنهم الأصلي على أوائل السفن المبحرة إلى هناك » .

وطلب خوسيه بالدي الكلام الآن ، وشرع يتكلم بصوت حلو ، ميال للمصالحة :

ــ « إن الفيلسوف الفرنسي المشهور سان بونّيه (كان أستاذي ــ غمغم بلوي) كتب في بحث له عن الألم في نهاية الفصل التاسع والعشرين ، هذه الكلمات التي أضعها بين أيديكم : كانت العبودية مدرسة لتعلم الصبر والأناة والإيثار . وإن الغرور وحده يمنع « البركة الإلهية » من النفود إلى الروح ، وإن التواضع بإزالته هذه العقبة يفسح الطريق أمام هذه البركة . لذلك فإن الإنسان القديم ، بحكمته ، كان يرى في العبودية أمراً ما شبيهاً بمدرسة للصبر والتسليم والرضا تقرّ به من الزهد في الدنيا . وهو فضيلة روحية وغاية أخلاقية للمسيحية » .

وصرخ محامي الشيطان :

ــ عاش دعاة السقوط ! .

ــ إني أستأذن رئيس المحكمة في أن أذكره أننا لا نعيش في أيام فرناندو السابع ملك إسبانيا . وإنما القضية تجري في عصر الملكين الكاثوليكيين » . قال الكاتب ذلك ، وقد أفاق لتوه من حلم عميق ما لبث أن عاد إليه من جديد .

ــ مادامته القضية هي في عصر الملكين الكاثوليكيين ، فلدينا سبب أعظم لنتذكر أن الملكة ايزابيل رجت في وصية مشهورة لها عام ١٥٠٤ ، زوجها وأبناءها وطلبت إليهم ألا يُضار هنود الجزر الغربية أو ما يجاورها لا في أشخاصهم ولا في ممتلكاتهم . بل ينبغي أن يُعاملوا بالعدل والحسنى » . وتوجه خوسيه بالدي إلى المنصة على عجل وقال :

ـــ لحظة ، لحظة ... من المهم أن أبيّن أن الملكة الكاثوليكية « أمرت زوجها وأبناءها » ، ولم تأمر الأميرال الذي لم تزوده بمعلومات حول ... .

فصاح محامي الشيطان :

ـــ عبقري ... عبقري فذ ! عبقرية فيها شيء من بيضة كولون » .

(وغمغم الطيف : ولكن هذه كانت ناجعة) ، ورفع خوسيه بالدي يديه بحزن متكلف :

ـــ هذه أساطير طفولية ، وحماقات . وإن كولون بسموّه الإنساني المتفـوّق ، لم يقم بشيء من هذه الأمور القبيحة . وفولتير نفسه . (وتمتم الطيف متوجعاً : آي .. سأشعر بالضيق إن أشرك فولتير في هذه القضية) ، فولتير نفسه أوضح قبل واشنطون ايرفينغ أن بيضة كولون « المشهورة لم تكن ، في الواقع ، سوى بيضة بُرنّيسكو » . (والآن يبدو أنه صار لدينا بيضتان) . وبهذه الطرفة التي تصلح لتكون موضوع دردشة بعد الطعام ، أراد المهندس النابغة أن يشرح كيف كان يتصور تشييد قبة كنيسة سانتا ماريا دي فلوريس . (هذا أقل سوءاً) . « وكان ينبغي أن نرى ... » .

وهنا قال الرئيس مقاطعاً :

ـــ لن نختصم من أجل بيضة تكون بهذا الشكل أو ذاك . ولنعد من فضلكم إلى مسألة العبودية .

وقف الراهب برتلومي من جديد أمام قوس المحكمة :

ـــ أكاد أو من ، أن كولون لو لم يُجابه بتلك العداوة التي جوبه بها ، لكان أفرغ جميع تلك الجزر من سكانها ، لأنه كان مصراً على نقلهم بالسفن التي تأتيه من قشتالة ومن جزر الآزور ليبيعهم في أي مكان تروج فيه هذه البضاعة » .

هذه المرة وقف ليون بلوي مقابل الرئيس صائحاً :

ـــ هذه الدعوى ، صارت دعوى نوايا .. أكاد أومن ، أكاد أومن .. أية قيمة يمكن أن تكون لتخمينات هذا الكذاب ؟ » .

وصاح معارضو اسطورة الغزو الاسباني السوداء :

ـــ لا تلقوا بكولون إلى الوحوش !

ـــ نيرون ! نيرون ! .

صرخ واحد منهم وهو يشير إلى محامي الشيطان الذي كان يضحك ، ويضم قبضته مشيراً بإبهامه إلى الأسفل[1] . وسأل الرئيس :

ـــ هل توجد براهين على أن كولون أقام تجارة الرق على نحو مُتعمد ؟ لأنه يُقال إن المسؤول عن إرسال الهنود إلى إسبانيا كان أحد إخوته . فهل كان الأميرال الكبير على علم بذلك ؟ .

ـــ نعم يا سيدي ! حتى أنه كتب إلى أخيه طيب الذكر رسالة يوصيه فيها أن يثقل السفن بالعبيد مبيناً الفوائد الجمة الناتجة عن بيعهم .

وسأل بالدي :

ـــ من رأى هذه الرسالة ؟ .

وأجاب أسقف تشيبياس بثقة :

ـــ أنا رأيتها مكتوبة وموقعة بخط يده .

ـــ حقير ! شاهد زور ! غشاش ! مراء .

أخذ ليون بلوي يصرخ بهذه الألفاظ بحدة ، حتى بُهر وشُق حلقه .

وصاح الراهب برتلومي دي لاس كاساس بصوت مفزع :

ـــ من يسرق خبز عرق الغير هو كمن يقتل قريبه .

---

(١) إشارة إلى أن قضية كولون ستدحر .

وسأل الكاتب وقد انتشل فجأة من حلم عميق :

ــ من يذكر ماركس هنا ؟ .

وأوضح أسقف تشيبياس :

ــ الإصحاح ٣٤ من الكتاب المقدس .

وقال الرئيس : لندع هذا . ولنمض إلى المسألة الأخلاقية للمرشح .

فقال محامي الشيطان :

ــ أطلب الإذن بمثول لا مارتين على أنه شاهد اثبات .

وجأر ليون بلوي بصوت أصم مكبوت : (اللعنة ! ماذا يفهم شاعر البحيرة بالأمور البحرية ؟) . ووقف لامارتين ممشوق القامة ، يرتدي سترة الخطباء ، وذؤابته تنوس فوق جبهته ؛ وانهمك في شرح طويل فهم منه الطيف المغموم فقط ما يتعلق « بعاداته القبيحة وابنه اللاشرعي » .

وقال محامي الشيطان :

ــ إني أكتفي بهذا القدر . لأننا وصلنا إلى مسألة هي من أخطر المسائل التي ينبغي أن نمعن النظر بها : هي علاقة الأميرال اللا شرعية مع المسماة بياتريس التي لن أسميها محظيته ، ولا خليلته ولا عشيقته كيلا أسيء إلى ذكرى امرأة ، بل سأعمد إلى لفظة دقيقة طالما أعجب بها الكلاسيكيون الإسبان فأسميها : « صويحبته » . (وحينما سمع الطيف اسم بياتريس عاده الحنين وتمثل بفقرة عبر فيها دانتي عن انفعاله لما برزت له بياتريس من بين ضفاف الليتيو : « ... إن الجليد الذي كان يطوّق قلبي تحوّل إلى زفرات ودموع تنبع من أحشائي ، وتنطلق من فمي وعيني » .

وحينئذ انتصب محامي الدفاع بالدي واقفاً . وطلب الكلام وهو يقوم بحركات مبالغ فيها :

ـ يتجه السعي الآن لتلطيخ ما يعتبر أمراً إنسانياً للغاية ، وإن كان حباً خالصاً . أجل ، أيها السيد محامي الشيطان ، دع عنك هذه الإشارة الوقحة من يدك ، وهي جديرة بالسوقة . وكان خليقاً بك أن تصغي إلى ما قاله الكونت روسلي دي لورغ حول خريف غرام الرجل الكبير :

« فبالرغم من سنّبه الأربعين ونيف ، وبالرغم من ترمله وفقره ولكنته الأجنبية ، فإن فتاة ذات حسب وجمال رفيع رضيت أن تكون رفيقة له . كانت تسمى بياتريس ، وفيها اجتمعت كل فضائل المرأة القرطبية وأريحيتها .. ولكن هذا الشعاع من الضوء الذي حمل قليلاً من السلوى إلى قلبه المرهق ، لم يثن الرجل الكبير لحظة واحدة عن رسالته المقدرة » .

وسأل محامي الشيطان بوقاحة :

ـ « أليس جميلاً أن ترافق بعض الكمنجات هذه الأغنية الرقيقة » .

وصاح الرئيس ـ قليلاً من الانضباط !

ـ هذه المرأة القدوة في الفضيلة ، كان الرجل العظيم يحبها ويجلها ... » وعلق بشيء من الفظاظة العالم الإبليسي :

ـ كان يجلها حتى أنها أنجبت منه ولداً . وكان كولون يعلم مسؤوليته عن هذه الغلطة ، حتى أنه حاول أن يصلح من شأن تعاستها وترملها ، مع أن لها زوجاً على قيد الحياة ، وطفلاً قرطبياً ترعاه لم يبلغ أن يكون مصارع ثيران لما صرخ رودريغودي تريانا صرخته المشهورة : الأرض ! إنها الأرض !! وكان أولى به أن يصرخ : ما أوخم هذه الورطة ، ما أوخمها !

ـ لندع رودريغودي تريانا بسلام . أما بشأن العشرة آلاف ميرابطية ، فكان خيراً أن تودع في يدي أم شابة من أن يأخذها بحار يلعب بها في أول حانة يصادفها ..

(أجل ! أجل ! ليترك دي تريانا بسلام . فلو جاء في إثره بنشون ، وخادماي

سُنْثيدو وأرْيال اللذان كانا ينقلان خرائطي السرية دون علمي إلى الباسكي اللعين خوان دي لاكوسا ، لو جاء هؤلاء لصارت قضيتي هباء » . ولكن عبارة مسمومة نطق بها الآن محامي الشيطان الذي يتسم ابتسامة شيطانية ، ختمت النقاش على نحو شيطاني :

ــ « يبدو أن أولاد « الحرام » ــ أعني أولاد الغرام الجسدي في سرير زوجية غير مقدس ــ يكونون في الغالب محط عطف خاص من أبويهم . ومن هنا فإن كريستوبال كولون كان يبدي دائماً إيثاراً مميزاً لابنه اللاشرعي دون فيرناندو ... ولكنّ حب أب ابناً له غيرَ شرعي حباً مميزاً للغاية ، لا يؤهله لتلقي هالة قدسية ... وإلا فإن قدراً طيباً من الهالات سيضيء العالم الذي قد لا يعرف معها أبداً ظلمات الليل » .

وعلق الكاتب الذي أبدى خلال المحاكمة دلائل على ضعف عقلي مؤكد :

ــ سيكون ذلك نظاماً للإضاءة العامة . وسيكون خيراً من كل ما ابتكره اليانكي أديسون الذي أشعل بالتأكيد أول مصباح كهربائي في العام نفسه الذي توفي فيه قداسة البابا بيّو التاسع عقب إدراج ترشيح الأميرال الكبير أول مرة .

وقال الرئيس مختتماً : « ليكن نور[1] » .

فتلاشت صور برتلومي دي لاس كاساس ، وفيكتور هوغو ، ولامارتين ، وجول فيرن ، واختفى معارضو اسطورة الغزو الاسباني السوداء ، دون صخب مزعج هذه المرة . وانقشعت سحابة الضباب الخفيفة المليئة بأشكال شبحية كانت تجعل القاعة مظلمة في عيني الطيف . وعادت صور أعضاء المحكمة لترتسم من جديد ، على نحو دقيق مثل صورة لوحة زيتية جدارية تبرز سان سيباستيان وقد احترقته السهام لحظة استشهاده . ونهض الرئيس قائلاً :

ــ « من كل ما رأينا وسمعنا .. هل سجل الكاتب ذلك ؟ (وأجاب الكاتب بالإيجاب وهو يتأمل عصافير من ورق مصطفة من الأكبر فالأصغر فوق ورق النشاف

(١) سفر التكوين : وقال الرب : ليكن نور . وكان النور .

الأخضر ــ مرج مصفر في وسط غطاء المنضدة الأحمر ــ . وعلم الجميع بإيماءة موارِبة من مساعد الكاتب أن هذا الأخير سجّل كل شيء ..) وتابع الرئيس : « مما قيل ومما سمع ، فإن أمرين خطيرين يؤخذان على صاحب الترشيح كولون . الأول خطير للغاية وهو السفاح ــ سفاح يفقد مبرراته إذا علم أن الملاح كان أرمل لما تعرّف على المرأة التي أنجبت له ولداً ــ . والأمر الآخر لا يقل خطورة عن الأول هو مباشرته تجارة العبيد الشنيعة ، وتشجيعها ، ببيعه في الأسواق العامة بضع مئات من الهنود المأسورين في العالم الجديد ... وبالنظر إلى هاتين الخطيئتين فإن هذه المحكمة يجب أن تصدر حكمها حول ما إذا كان المدعو كولون المرشح للتطويب جديراً بهذه النعمة التي تفتح له ، هذه المرة ، الأبواب من أجل تكريسه قديساً » .

طاف مساعد الكاتب بصندوق صغير أسود حيث وضع كل عضو ورقة مطوية . ثم فتح الرئيس الصندوق . وبعد أن أجرى الاحصاء ، قال :

ــ صوت واحد لصالح كولون .

ــ إذاً الترشيح مرفوض .

كان خوسيه بالدي ما يزال يحتج مستشهداً بروسلي دي لورغ « كان كولون قديساً : قديساً وفرّته الإرادة الآلهية في مناطق تسود فيها مملكة الشيطان » .

وقال وكيل الكنيسة ساخراً :

ــ لا يجديك شيئاً هذا الصراخ .. لقد قضي الأمر » .

هاهي الحقائب والمحافظ والرزم تُغلق . والكاتب يجمع عصافيره الورقية ، والرئيس يثبت قبعته لأن تياراً هوائياً اقتحم القاعة فجأة ، ومحامي الشيطان يختفي مثل مفستفلِس حين غاص في باب أرضي في مسرحية غونو . ثم سار ليون بلوي باتجاه المخرج وهو يلوك شعر لحيته غضباً ويشتم :

« لم يدرك مجمع الطقوس المقدس عظمة المشروع . وما كان يحفل في شيء برسالة هيأها القدر . فقد غيظ الناس جميعاً ، وضجوا ليمنعوا القضية أن تثمر ، منذ اللحظة التي لم تقدم فيها تلك القضية بطريقة عادية ، أي بملف كامل ، مُدقق ، وموقع ومصدق ومختوم بشمع أسقفي . ثم ، في رأي مجمع الطقوس ، أية قيمة لهذه الكريستوبال كولون ؟ ليس شيئاً آخر غير بحّار . ومتى كان مجمع الطقوس يحفل بأمر بحري ؟![1] » .

ــ « لقد خزيتُ » . تمتم الطيف وهو يغادر مقعده قاصداً الباب الرئيسي الذي يقوده في مسار طويل عبر الممرات والأروقة إلى خارج البناء ــ المدينة ، الضخم . وقبل أن يترك القاعة ، ألقى نظرة أخيرة على الرسم الذي يبرز استشهاد سان سباستيان : ــ أنا مثلك قد رشقت بالسهام ... ولكن السهام التي اخترقتني ، أُطلقت عليّ أخيراً من هنود العالم الجديد الذين أردت أن أذلهم وأبيعهم » .

لقد فُتن بهذا التوافق الغريب بين الصور . فتوقّف عن السير ، ولبث يتأمل تلك اللوحة التي تمثل عذاب طعين بالسهام . وخطرت على ذهنه تلك السهام الأخرى ــ سهام قاسية ولذيذة معاً ــ التي مازالت منذ العصور الميثولوجية تختار ضحاياها وتجرحهم على نحو مشؤوم ، وتبقيهم في عذاب أليم ، عذابِ من يُلقى به في « إعصار جهنمي » يحمل معه باستمرار بول وفرنسيسكا بالأمس واليوم وغداً . (لما اتهمت بالسفاح لأنني لم أتزوج شرعياً من بياتريس التي طالما أحببتها وألقيت بذرتي في تربتها الصالحة ، فإن رعاة القانون القساة الذين اجتمعوا لمحاكمتي ، ورجال الدين الجامدين من كهنة الفاتيكان الكسالى المتكسبين الذين وقفوا في وجهي كأنهم يجلسون عن يمين الرب لمقاضاة البشر ، إن هؤلاء ما كانوا يفهمون أني ، أنا صنو السادة الفرسان الجوالين العظام . (وهل

---

(١) ليون بلوي : مكتشف الكرة الأرضية ــ الباب العاشر .

كنت ، أنا ، غير فارس جوال بحري ؟!) . لقد كان لي (سيدة محبوبة) لم أحبها روحياً أبداً ، وإن بقيت مرتبطاً جسدياً مع من حفظت عليّ ذريتي .

ولقد فهمت أن للقلب أسباباً (من قال ذلك ؟) يجهلها العقل ، مذ كان القضاة العابسون المترفعون يناقشون وضعي من فوق منصة هي أشبه بمسرح فرقة قضائية متجولة .

وخطرت ببالي بغتة صورة دونثيل دي سيغوينثا المتألمة الحزينة . دونثيل الذي اتخذ من رفيعة الشأن سيدة مادريغال دي لاس آلتاس بورّيس حبيبة له ودليلاً ومنارة توجه أقداره .. لقد ملكت عليه روحه — كما ملكت أوريانا روح أماديس — لما رآها أول مرة ، في معسكر موكلين ، إثر الاستيلاء على ابّورا . فأحبها حباً يختلف اختلافاً شديداً عن ذلك الحب الذي عاش به وخطيبته زمناً رغداً . كانت صورتها لا تبرح ذهنه ، وكان يندفع بالعزيمة ذاتها التي بثت في سيدته المحبوبة حماسة فائقة في حرب استرداد ، فيلقي بنفسه في معارك خطيرة ، ربما ليزداد شهرة وطرافة في عينيها ، ثم يخر صريعاً في حرب صليبية مع العرب ، ويرقد رقدته الأخيرة في كاتدرائية سيغوينثا ، مخلّداً في تمثال[1] من الرخام ، ومندثراً بردائه العسكري ، مقصوص الغرة على الطريقة الإيطالية ؛ وقد رسم على صدره صليب سانتياغو الأحمر رمزاً إلى انبعاث روحه الدامية .

لشد ما أغبطك يادونثيل ، فقد كنت أكثر إقداماً مني ، وإن صُورت على غطاء قبرك تقرأ كتاباً ؛ لربما كان كتاب سينيكا العجوز ، بينما أنا كنت أترجم فقرات موحية من سينيكا الآخر ، باحثاً عن تنبؤات جلية تحويها مأساته ميديا .

كلانا أحب المرأة ذاتها . ولقد كنت أغار منك أحياناً ، ولِمَ إنكاره ؟ ولكنك لم تعرف كما عرفت أنا اللذة الفائقة في أن تحتضن ملكة بين ذراعيك . (أو لربما عرفت ؟

---

(١) قال أورتيغا إي غاسيت عنه : (إنه أجمل تماثيل الدنيا) (المؤلف) .

من يستطيع ضمان ذلك ؟ وكيف الغوص في سر دفين كهذا السر ؟) إنها سيدة مادريغال دي لاس آلتاس بورّيس (أوريانانا) الفريدة عصرها . على أن هؤلاء القضاة المتزمتين الغارقين في نصوص القانون لا يفقهون معنى العيش الدائم في حب مؤرق خفي . لأننا كنا مرغَمَيْن على أن نبقيه مجهولا ؛ وكنا مرغمين على ألا نبوح بالذي حملك على أن تضحّي بنفسك في عروض بطولية جديرة بالتقدير . ولكنني ، وإنّ بقيت وفياً لإحساس صار منذ لحظة معينة بوصلتي وقطبَ أفعالي ، لم أتخلّ ، مع ذلك ، عن بياتريس ، عن حبيبتي بياتريس . لأنه توجد قواعد للوفاء الفروسي ، لا يفهمها هؤلاء المشرعون ، ضيقو الأفق الذين يتهمونني اليوم بالسفاح والاغتصاب وبما لا أدري من أشياء أخر ... فلو لم أستلهم المثال الذي أحمله في داخلي ، لكنت ضاجعت هنديات — كن أحياناً شهيات ، بحق ، في عريهن الفردوسي ، كما فعل كثيرون ، وكثيرون ، ممن رافقوني في اكتشافاتي ... وهذا الأمر الأخير لن يستطيع هؤلاء القضاة أن يتخرصوا به عليّ ، مهما قلّبوا في صفحاتهم العتيقة ، أو نقبوا في أراشيفهم أو أصغوا إلى نمائم يبثها عنّي مارتين بنثون ، وخوان دي لاكوسا ، ورودريغو دي تريانا ، وسقطة آخرون ضالعون في تلطيخ سمعتي ... ولقد كانت في حياتي لحظة بديعة رفعت فيها بصري إلى الأعلى ، إلى أعلى الأعالي . فتطهر جسدي من الدرن ، وسما عقلي في اتحاد تام بين الروح والجسد ؛ وإن نوراً جديداً بدد ظلام ضلالاتي ومشاغلي .

ووجد الطيف نفسه مرة أخرى في ساحة القديس بطرس يرزح تحت ثقل غمّ كبير . (ومر بقربه عجولاً وكئيباً مساعد محافظ المجمع وهو يدمدم · « هنا لا يوجد يوم واحد للراحة . ما إن سقطت قضية كولون حتى سرى التفكير بتطويب جان دارك ، التي لا يتوفر لدينا أيضاً عظم واحد من عظامها . وإن رمادها قد ذري في مدينة روان ... وعلينا أن نقنع الكاتب بذلك ، لأنه يعتقد أن جان دارك قد شنقت في برج لندن . ياألهي ما أشقَّ هذه المهنة ! ما أشقها !! .

وظهر فجأة طيف آخر إلى جانب الطيف السابق ــ ولكنه يراه ــ . وهو عاري الجذع ، يحمل مثل بوسئيدون رمحاً ذا ثلاث شعب كما أظهرته للأجيال اللاحقة لوحة مشهورة رسمها الـ (برونزينو) . وهكذا فإن أميرال ايزابيل وفرناندو الكبير ، يلتقي لأول مرة بابن بلده ومعاصره تقريباً ــ أعوام أكثر ، أعوام أقل ــ أندريا دوريا أميرال البندقية وجنوة الكبير . كلاهما أميرال وجنوي . وشرعا يتحدثان بحرارة ، بلهجتهما الخاصة . وقال أندريا :

« لقد سئمت الإقامة في ضريحي في كنيسة سان ماتيو ، وجئت ابترد في هذه الساحة ، ولقد حصلت وأنا في الطريق إلى هنا ، على قرص من التبغ : أتريد مضغة[1] ؟ ألا تريد ؟! غريب ! لأنك مسؤول إلى حدٍ بعيد عن أن قدراً كبيراً من الناس في هذا البلد يعطسون بالنشوق ، ويدخنون الغليون ، ويشعلون سيجار هافانا . لولاك لما عرفنا التبغ » .

وأجاب كريستوبال بمرارة :

ــ في كل الأحوال ، كان أعلمهم به أميريكو فسبوشي . وكيف جئت من جنوة ؟ .

---

(١) نوع من التبغ يمضغ بدلاً من أن يدخن .

ـ بالقطار . بقطار منتصف الليل السريع .

ـ ولكن ، كيف سمح لك بالصعود إلى العربة وأنت عار هكذا ، هكذا . كنبتون في الرموز الميثولوجية ؟ .

ـ لا تنسَ أننا ، أنت وأنا ، ننتمي إلى طبقة الأطياف اللامرئية .

إننا شفافون ؛ ومثلنا يوجد خلق كثير مشهورون ، مادام ذكرهم يجري على ألسنة الناس . وهم لشهرتهم ، لا يمكن أن يتلاشوا في لا نهاية شفافيتهم الخاصة ، أو يبتعدوا عن هذا العالم التعس الذي ينصب لهم التماثيل ، ويقوم فيه مؤرخون من جيل جديد بمعالجة أسوأ التقلبات في حياتهم الفردية .

ـ أو تقوله لي ؟! .

ـ إن كثيراً من الخلق يجهل أن البطل رولان ، والراهب أنخيليكو ، أو ماركيز دي سنتيّانا يسافرون في القطارات ، أو في سفن شركة الملاحة الإغريقية سباسيا .

ـ كل ميت يغدو طيفاً .

ـ ولكنّ الطيف يتجسد « بشراً » ويتكلم مع من يثير اسمه ، مادام الناس يلهجون بذكره ، ويتحدثون عن أعماله وعما كان في حياته . ولكن في هذا الأمر ، كما هو الحال في أمور أخرى ، توجد طبقات عائدة إلى توفر الطلب أو نقصه . فهناك طيف من الطبقة (أ) مثل شارلمان وفيليب الثاني . وطيف آخر من الطبقة (ب) مثل الأميرة دي إيبولي ، والفارس بيّاردو . وهناك طيوف ثانويون ، الطلب عليهم قليل جداً ، مثل فافيلا ، الملك الغوطي التعيس الذي ذكره ألفونسو الثالث في تاريخه ؛ ويعرف عنه فقط أنه حكم سنتين ثم أكله الدب . أو مثل برتلومي كورنيخو ، الذي افتتح في سان خوان في بويرتوريكو ـ إذا تكلمنا عن عالمك ـ بموافقة ثلاثة أساقفة أول بيت للعاهرات في القارة يوم الرابع من آب عام ١٥٢٦ ؛ وهو تاريخ مشهود كان فيه شيء مما يُسمى « يوم العروق » لأن من كان يعمل فيه ، كن فتيات جلبن من شبه الجزيرة الايبرية ، ولأن الهنديات لم يمارسن أبداً من قبل هذه المهنة ؛ إذ كن يجهلن الهوس الذي يعرفه كلانا جيداً . إيْه ! مالك أيها البحار ؟.

وقال الطيف المكتشف وقد لُدغ :

ـــ في تاريخ أمريكا ـــ وهي تنتمي لي وإن حملت اسم شخص آخر ـــ يوجد أسياد أولى بالذكر من برتلومي كورنيخو . فهناك ، مثلاً ، ساهاغون وموتولينيّا والراهب بدرو دي غانتي

ـــ من يشك في ذلك ؟ ولكن ، كان هناك سيمون بوليفار .

ولكن الطيف الشبيه بكريستوفوروس اللامرئي ، تشنج في عالمه اللامنظور :

ـــ أرغب ألا تذكر سيمون بوليفار .

وعلّق دوريا .

ـــ عفواً . إني أفهم أنك لا تحب ذكره . فقد فكك ما عملته أنت .

ـــ لذلك : لا تضع الحبل في بيت المشنوق » .

ـــ ولكن ، فكر جيداً : لو أن اكتشاف أمريكا عني به الملك هنري البريطاني ، فإن سيمون بوليفار لصار اسمه سميث أو براون . ولو قبلت حنة البريطانية عرضك لكانت سادت لهجة بربرية من لهجات موربيهان حيث تسود اللغة الإسبانية .

فقال كريستوفوروس ملدوغاً :

ـــ أريد أن أذكرك أنك قبل أن تقاتل في صفوف شارل الخامس ، قد كنت سعيداً للغاية في خدمة خصمه الملك فرنسوا الأول ، ملك فرنسا . نحن ـــ الجنويين ـــ نعرف بعضنا البعض جيداً .

ـــ جيداً جداً ، حتى إن الجميع هنا ، يعرف من هو أميرال المعارك ، ومن هو أميرال النزهات . أين كانت حروبك ؟ .

ـــ هناك . أجاب أميرال ايزابيل الكاثوليكية مشيراً إلى جهة الغرب :

ـــ حروبي كانت هنا ، في البحر المتوسط . مع فارق أنك كنت تثير ببنادقك ذعر هنود عراة ، مساكين لا سلاح لديهم سوى نبال لم تكن كافية حتى لإخافة حصان جر من أحصنتنا . أما أنا ، فقد كنت لأعوام طويلة السوط المسلط على سفن الأتراك .

لقد ازداد النقاش حدة ، غير أن دوريا غيّر الموضوع وقال مشيراً إلى باب الكنيسة الكبير :

ـــ ماذا كنت تعمل هناك ، في الداخل ؟ .

ـــ لقد أسقطوني .

ـــ كان لا بد من ذلك ، أيها الملاح الجنوي .

ثم أنشد أبياتاً من الكوميديا الإلهية بصوت مفخّم :

ـــ« آهٍ منكم أيها الجنويون ! أنتم أناس بعيدون عن كل فضيلة ، ومليئون بالفساد . لماذا لم تُطردوا من الأرض ؟ » .

وكرر كريستوفورس بصوت مفعم بالحزن :

ـــ لقد أسقطوني . أنت يا أندريا أميرال كبير ، وقد خُلدت ذكراك على أنك أميرال كبير . وأنا أيضاً أميرال كبير ، ولكن بإصرار البعض على أن أكون منفرداً في العظمة ، فقد هووا بي من مقام الأميرال الكبير .

ـــ يعزّيك إذا علمت أن قدراً صالحاً من التماثيل سينصب لك في الدنيا .

ـــ ولكن لن يشبهني تمثال واحد منها ؛ لأنني من السر جئت وإلى السر رجعت ، دون أن أترك أثراً مطبوعاً أو مرسوماً ، يمثل شكلي البشري . ولكن ليس بالتماثيل وحدها يحيا الإنسان . واليوم ، فإن بعض أصدقائي ، لإسرافهم في الإعجاب بي فقد هزؤوني .

ـــ كان لا بد من ذلك ، أيها الملاح ، أيها الجنوي .

وكرر الطيف وهو يكاد يبكي :

ـــ لقد خزيت .

ووضع أندريا يداً لا منظورة ، فوق كتف كريستوبال اللامنظور :

ـــ ولكن ، اللعنة ، متى حدث أن رُسم بحار قديساً ؟ فإذا لم يوجد بحار في مجمع القديسين ، فذلك لأن أي بحار لم يولد ليكون قديساً .

ساد صمت طويل . ولما لم يعد لدى الطيفين ما يقولانه انفصلا .

ـــ وداعاً كولومبو .

ـــ وداعاً دوريا .

وبقي الرجل ـــ المحكوم ـــ أن يكون ـــ رجلاً مثل سائر الرجال ـــ في مكان معين من الساحة ، إذا نُظر منه إلى أعمدة كنيسة برنيني بدا عمود الواجهة أنه يخفي ثلاثة أعمدة إخفاءً تاماً حتى لتبدو الأعمدة الأربعة عموداً واحداً . وتمتم في سره « لعبة مظاهر . هي لعبة مظاهر مثلما كانت بالنسبة لي جزر الهند الغربية . فقد قلت ذات يوم قبالة رأس على ساحل كوبا سميته ألف ـــ ياء (ألفا أوميغا) . هنا ينتهي عالم ، ويبدأ عالم آخر . شيء آخر ، أمر آخر ، لم أوفق ، أنا نفسي ، في أن أميزه ... لقد نزعت الحجاب عن السر ، لأدخل واقعاً جديداً يفوق جدود فهمي ، لأنه توجد اكتشافات ضخمة وممكنة مع ذلك ، ولكنها لضخامتها ذاتها تهلك الإنسان الفاني الذي تجرأ على اقتحامها » .

وتذكر الطيف سينيكا الذي كانت مأساته ميديا كتابه المفضل ، وتقمّص شخص تيفيس قائد الأرغونات . في مقاطع مشهورة حُملت اليوم بمعنى تنبؤي :

« كان تيفيس مقداماً فنشر قلوعه فوق البحر الواسع ،
وأملى على الرياح قوانين جديدة .
واليوم ، قد قهرت الأمواه ، وخضعت لقوانين الجميع
حتى أضعف القوارب يستطيع أن يجوب آفاقها ؛
وحطمت التخوم المعروفة ،
وشيدت أسوار مدن جديدة
في أراضٍ عرفت حديثاً .
لاشيء بقي كما كان بالأمس
في عالم صار بأجمعه تحت السيطرة » .

وبينما راحت أجراس روما تدق بهدوء في منتصف النهار ، أخذ يتمثل بأشعار ، يبدو أنها تشير إلى مصيره ذاته :

« تيفيس الذي أخضع الأمواج
كان عليه أن يسلم الدفة إلى ملاح أدنى رتبة .
ثم هبط إلى مملكة الظلال المظلمة .
وهو بعيد عن أراضي وطنه
دون أن يحظى إلا بقبر وضيع ... » .

وفي مكانٍ من الساحة إذا نُظر منه إلى أروقة الأعمدة الدائرية ، فإن أعمدة أربعة تبدو عموداً واحداً ، انحلّ الطيف في الهواء الذي يلفه ويخترقه من كل صوب ، ثم صار وشفافية الأثير شيئاً واحداً .

طبعت في مطابع دار العلم دمشق
هاتف ٢٢٥٧٠٧ - ٢١٢٧٢٠
عدنان الخطيب

الوتر والظل

من الأسطورة الذهبية يطلع السؤال ، إذ يعزف الفن واليد والوتر ، الجسد والروح والظلّ .. ومن مبدعات الكاتب الكبير آليخوكاربانيتير ، صاحب عصر الأنوار ، والخطوات الضائعة ، تطلع هذه الرواية التي ترجمها عن الأسبانية علي الاشقر ، لتضيف الى مكتبتنا الأدبية ـــ وليس الروائية وحسب ـــ ماسبق أن أغنت به الأدب العالمي ، وليس الرواية العالمية وحسب .

صدر أيضاً عن دار الحوار

* العذراء والغجري : لورانس
* الثعلب : لورانس
* الرب لم يتسرح في اليوم السابع : رشاد أبو شاور
* رياح الشمال : نهاد سيريس
* مدارات الشرق ـــ الأشرعة : نبيل سليمان
* مدارات الشرق ـــ بنات نعش : نبيل سليمان

دار الحوار للنشر والتوزيع



سورية ـــ اللاذقية ـــ ص.ب 1018